



الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي

الشَّعْرُ الْعِرَاقِيُّ الْحَيَثُ

وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه

تأليف
دكتور يوسف عز الدين
المجمع العلمي العراقي

الناشر: دار الشؤون الوطنية للطباعة والنشر، القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

الشَّعْرُ الْعِرَاقِيُّ الْحَيُّ

وَأَثَرُ التَّيَّارَاتِ السِّيَاسِيَّةِ وَالْإِجْتِمَاعِيَّةِ فِيهِ

المكتبة العربية

تُصَدِّرُهَا

الثقافة والأشكال القومية

بِعَرَعِيَّهَا

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والانباء والنشر
الدار القومية للطباعة والنشر - الدار المصرية للتأليف والترجمة



الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي

الشعر العراقي الحديث

وأثر التيارات السياسية والاجتماعية فيه

تأليف
الدكتور يوسف عز الدين
المجمع العلمي العراقي

النشر الحزبي القومي للطباعة والنشر القاهرة

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

لك أيها القارئ :

الكتاب جزء من كيان الكاتب ، وقبس من ، وحه ودمه وقلبه ، وصاحبه
ثنا يصاحب الوالد ولده ، ويتعهد به بكل ماله من قوة ، ويصرف عليه
ما يملك من جهد ليراه نصرته النفوس وابتسامته الثغور . حتى يستوى على
ساقه فتعجب الباحث أصالته ويرضى عنه .

وهذا الكتاب جزء عزيز على فقد صرفت معه أحلى سني حياتي راضياً
مسروراً ، لأنني شغفت بالشعر طفلاً ، وزهرت بحفظه يافعاً ، ورضيته معبراً
عن أحاسيسي شاباً يافعاً ، ونما معي حب الشعر وموسيقاه ، ونمت معي
عواطف الشعراء وأحلامهم ، وكنيت منكباً عليها تغمزني اللذة والرضا ،
ويدفعني الشوق ، وأخذت أجمع ما يقع بين يدي من مختارات ثم أمزقتها
عندما أبلغ من العمر مرحلة ، وجمعت دواوين الشعراء على اختلاف أنواعها
غير مفروق بين قديم وحديث ، حتى جمعت ما لم أكن أفهمه وأطلب شرحه
من مدرسي فيضجر من الإلحاف ظاناً أنني أمتحن قدرته .

وقد استهواني الرصافي لأنه كان ينفض بالحياة التي نحيها ، وكنيت عنه
أول بحث في الجامعة . وقد كانت التفاتة كريمة من أستاذي العلامة محمد
خلف الله أحمد عندما اصططاني طالباً لإكمال الماجستير تحت إشرافه وهو
الشاعر الرقيق والدواقة الموهف الإحساس ، واقترح على أن أكتب عن
(الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) فسرت في هديه ، وتحت دربته ،
ووفقت بما بذله لي من عون لا ينسى ، وتوجيه لا ييلي . وسرت في الطريق
العلمي حتى وصلت القرن العشرين الذي أحسست بالآمه ، وشعرت بأوجاعه
فكان كتابي هذا (الشعر العراقي الحديث) الذي كلفني ما كلفني أخوه الأول .

وبدأت قصة هذا الكتاب عندما عدت إلى العراق بعد الحصول على الماجستير فأخذت أطلع الجرائد العراقية من صدرها واتخذتها قاعدتي الأولى في البحث لأن ما ينشر فيها لا يغير متى اختلفت سياسة الحكومة وانجبت وجهة جديدة . وتبقى قوة الشعر وشعور الشاعر دون تبدل أو تغير حتى إذا غيرها خوفاً أو رهبة أو طمعاً . وسافرت إلى البصرة في صيف العراق ووجدت في مكتبة «باش أعيان» بعض هذه الجرائد وكنت خلال عملي في تفحص الجرائد أبعث برسائل دورية للشعراء ، صغبرهم وكبيرهم ، مغمورهم والمشهور منهم ، واتصلت بمن أعرف منهم — وأعرف جلهم — كما أعلنت إعلانات متنوعة في الجرائد والمجلات راجياً فيها الشعراء أن يفضلوا بمساعدتي ، ومنهم من لم تتح لي الظروف للتشرف بمعرفتهم . ولما أنجزت ما قدرت على إنجازه في العراق سافرت إلى تركيا وبحثت في مكتبات الآستانة وذهبت إلى باريس وفشتت في المكتبة الوطنية ومكتبة فرسايل ، ثم بحثت في مكتبة المتحف البريطاني ومكتبة معهد اللغات الشرقية والإفريقية وكانت معي خلاصة أخذتها من مكتبات بيروت والقاهرة والإسكندرية .

وبدأت في كتابة هذا الكتاب باللغة الإنكليزية فكانت مشقة جديدة وجهداً عميق الأثر وغير معبر لهذا الجهد ما كتبت له لصديق في أول أيام وصولي ل لندن قلت له (أكتب إليك والقلم يهتر فرعاً من عميق مشاعري وحنيني إلى وطني وسأهتر منه فرعاً عندما أكتب بعد ذلك باللغة الإنكليزية) فقد كانت الترجمة وخاصة الشعر عسيرة عليّ لأنني حاولت نقل أحاسيس الشاعر كما أتمسكها على أن أحافظ على الذوق الأوروبي فحاولت أن أترجم حرفياً فلم يكن المعنى واضحاً ، ثم أردت أن أترجم المعاني وكان من العسير على ترجمة التورية والجناس والمحسنات اللغوية الأخرى بسهولة ويسر ، وأخيراً مزجت بين الطريقتين فاستقام لي بعض الأمر .

وعدت إلى العراق بعد أن أنهيت دراستي وعكفت على ترجمة ما كتبت به باللغة الإنكليزية فوجدته سهلاً بسيطاً أقرب إلى لغة العلم منه إلى لغة الأدب فاضطرت إلى إعادة الكتابة مرة أخرى ناسياً التكوين الذهني الذي اكتسبته في أوروبا وحاولت أن أجليه عربياً سليماً وعساي وفقت .

كان موضوع البحث شائكاً لأمرين ، الأول : أنه يبحث في أمور ما كانت مقبولة رسمياً ونجراً كاتبها إلى المتاعب ، فقد تطرقت إلى الإقطاع والفقر والمرض والجهل وذكرت أثر الاستعمار ، وموقف الحاكمين الذين كانوا في الحكم منه ، والثاني : أن البحث يقدم إلى جامعة إنكليزية وأنا عربي أبحث مشكلات وطني وأكتبها للإنكليز ، الذين سيقررون مصيري ومستقبلي وطالما نصحت أن أترك هذا البحث وألا أنطرق إلى هذه المشكلات أو أن أخفف من حقيقتها . ولكني أبيت إلا المضي في الطريق السليم ، وإبراز الحقائق ، ورسم صورة جلية صادقة عن العصر الذي أدرسه ، حسب طاقتي وقدرتي لأن مشكلات العراق هي مشكلات العرب أجمع ومشكلات الإنسانية جمعاء وتفهمها يجعل في حلها . وقد كانت هيئة الامتحان منصفة كل الإنصاف فلم تتحيز برغم ما في البحث من حقائق مرة ، وأوصت بطبعه تقديراً له ، فضربت مثلاً كريماً في حرية الفكر وتقديسه .

بعد أن اتخذت الشعر قاعدة أستند عليها عولت على توضيح الحياة السياسية والاجتماعية في دراسة التاريخ فوجدت شعر هذه الفترة مثل عصره أوضح تمثيل وأصدق . ووقفت البحث حتى سنة ١٩٣٩ لسببين : الأول : ظهور اتجاهات جديدة على الشعر العراقي لم تكن متبلورة وكانت في فترة التطور ، والحكم على أمر غير ناضج أو مستقر لا يقره البحث العلمي ، ثم أتاحت لي فرصة لإخراج كتاب آخر عن (الشعر العراقي المعاصر) سأبحث فيه التيارات الشعرية التي عاصرتها وعشت في جوها . والسبب الثاني : أن العراق بعد هذه الفترة مر بأزمات سياسية دعت إلى إعلان الأحكام العرفية ، ومنع كل شاعر لا يسير في ركاب الحاكمين والاستعمار أن يعبر عن رأيه ، وقيدت الآراء ، وضغطت على الحريات العامة ، وهددت المفكرين ، وسأقت إلى المعتقلات والسجون من ساقط ، واتهمت آخرين بتهمة شتى ، فعاش الفكر في محنة جرت به إلى ركوده وضموره قواه ، فسجل التاريخ فترة تحكم فئة قليلة بأكثرية أبناء الشعب محاولة توجيهها نحو الوجهة التي تريدها .

وليس هذا الكتاب كل ما كتبه باللغة الإنكليزية ؛ فقد شمله الحذف والإطالة ليتناسب والنزق العام ، ولكنه يحوى الأسس الأولى واتجاهاتها وروحها فهو أكثر منها في بعض أقسامها وأصغر منها في جميعها ، ولابد من الإشارة إلى أنني درست تيارات العصر واعتمدت كثيراً على المنشور من الإنتاج فإن فائتي بعضه فما تركته إهمالاً ، ومعذرة لمن لم أعرف عليه .

حسبي أنها محاولة من طالب أدب يقدمها للأدب العربي الخضم أردت بها أن أعلم أمي ، ولست بالعالم الذي لا يخطئ ، أو الكامل الذي لا يعثره الشك ، ولكنني أقولها صريحة : إنني بذلت جهدي ووضعت عن كاهلي بعض العبء ، وألقي تبعة نقصه على الشعراء والكتاب الذين يعملون فيه ما يقرره نحو الصواب والحقيقة ولا يفعلون ، سواء في النقد أم في النصيح أم بالتقويم ، ولست بمستكثر على أحد تقديمي وتقليدي ونصحي ، وسجدي من الراضين الشاكرين .

ولا يسعني إلا شكر أولئك الأجاويد الذين مدوا لي يد المساعدة سواء في إنكلترا أم في العراق مهما كان نوعها وسواء كانت إعارة جريدة أم كتاب أم تصليح ملزمة من الملائم ، أو جواباً على رسالة كتبها له أم مساعدة في الكتابة على الآلة الكاتبة وهم كثر منهم الأستاذ الجليل الفريد كيوم A. Guilleme والأستاذ آربري A. J. Arberry والأستاذ سارجنت R. B. Serjeant والأستاذ داود كون D. Cown وجون كوكس J. Cox وجون براون J. Brown وأسة فراير Frier والدكتورة حكمت أبوزيد ، والأخ العقيد عبد الرحمن التكريتي ، والأستاذ عبد الستار القرهغولي والدكتور إبراهيم السامرائي ، والأستاذ أحمد ناجي القيسي ، والأخ يحيى جاسم والشاعر عبد الرزاق بستانه ، والشيخ علي الشرقي ، والأستاذ مصطفى علي ، والشيخ فريق مزهر الفرعون ، كما أشكر جميع موظفي المكتبات في لندن وباريس وإستانبول وبيروت والقاهرة ومكتبة المتحف العراقي منهم السيد حكمت فتوحى ، والآتين ساجدة العزى ، وفكتوريا مولود ، والسيد عبد الحميد عبد علي .

وغتافاً - أيها القارئ - ما أنا إلا طالب أدب أتحرى الحقيقة جهدى
لمعلمة مما وقع لي من أخطاء ، ولا تأسف على ما دفعت ثمناً لهذا الكتاب .
نرجو الله أن يأخذ بيدنا نحو السداد بما فيه خير هذا الوطن وهذا الشعب ،
فمن أجله نحيا ومن أجله نبحت ونتحرى عن الحقيقة لنراه رافلاً في السعادة
والخير .

يوسف عز الدين

بغداد رجب الأصم سنة ١٣٧٩ الهجرية

مطلع عام ١٩٦٠ الميلادي

الشَّعْرُ الْعِرَاقِي فِي الْعَهْدِ الْعِثْمَانِي

١ - المجتمع العراقي ومشكلاته

٢ - الاتجاه الإيماني

٣ - المجتمع والشأن

٤ - حروب الدولة العثمانية

المجتمع العراقي ومشكلاته

قبل أن ندرس أثر المجتمع والسياسة في الشعر العربي في العراق في هذه الفترة (١٩٠٠ - ١٩١٩) أرى أن نرسم صورة لهذا المجتمع والمشكلات التي كانت تؤثر فيه :

فقد كان الوالي هو الحاكم المطلق الذي يدير سياسة الولاية ، ولو أنها كانت مصبوعة بالصبغة الإسلامية ، بيد أن للوالي الرأي الأول في أمور الولاية ، وكانت سيطرته تشمل الرئاسة العامة على الجماعات ، مثل رئاسة البلدان والأمراء والجيش والقبائل وما شابه ذلك . أما السياسة الخارجية فقد كانت جزءاً من سياسة الدولة العثمانية العامة التي تدار من قبل الآستانة مباشرة (١) .

هذه الثماني عشرة سنة من حكم الأتراك في العراق لم تكن إلا استمراراً لحالة العراق في القرن التاسع عشر ، وتكاد تكون جزءاً لا يمكن بتره عنه ، لولا بعض إصلاحات ناظم باشا ، وأثر البقطة الفكرية المحدودة التي تسربت من أوروبا ، ولولا أثر المستور العثماني .

كان العراق بلداً متأخراً هيمن عليه الجهل ، وفقد الأمن والنظام ، غرّب الجوانب والجنابات ، وخير وصف لحالة العراق هو وصف جريدة « صدى بابل » ؛ فقد وصفته بأنه بلد حاق الخراب به والظلم والخوف والاضطراب ، وذكرت الفوضى التي حلت به وكيف كانت ضواحي بغداد تسلب وتنهب وتمسرق ، وما حاق بالحياة العامة من تأخر (٢) .

(١) يلاحظ (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) للدولف .

(٢) صدى بابل العدد ٤٠ السنة الأولى عام ١٣٢٨ هـ .

وقد تلخصت هذه الجريدة حاجات العراق فردتها إلى أمور رأتها أهم ركائز الإصلاح ؛ أحدها : الأمان ، وثانيها ، العدل ، وثالثها العلم (٣) . ولا أدري ما أبتغته الجريدة فهذا مختصر واف لحاجات البلد المتأخر . ويجب أن أقول : إن هذا التأخر الذى ساد العراق لم يكن غير جزء من تفسخ عام شمل جميع الإمبراطورية العثمانية ؛ فقد كانت الولايات - ومنها بغداد - تباع وتشتري كأية بضاعة أخرى (٤) ، وقد كان هناك ممارسة يتصلون بالراغبين في مثل هذه الصفقات (٥) ، فلا نستغرب أن انحصر همّ الوالى في جمع المال الكافى للوصول إلى الثراء العاجل ، فهو مشغول عن دفع هدايا مستمرة لأسباده في الآستانة ، وعليه أن يكون له أصدقاء يحافظون عليه وعلى مركزه كيلا يغزل (٦) ، فهو يبيع لنفسه الاستيلاء على الأموال واستيفاء الضرائب (٧) ، فيتخذها الموظفون قلدوة ؛ إذ يستوفون الضرائب دون أن يسجلوها في السجلات وتبقى ديوناً على أبناء الشعب (٨) .

لذلك انتشرت الرشوة بين الموظفين ، وتلنى بعضهم إلى درجات مضحكة ، فأخذت تندبهم جريدة « أبابيل » في عددها الثامن والأربعين بنشر أبيات هزلية تسخر من هؤلاء المرتشين ، وتطالب بالإصلاح العام معتمدة على إعلان الدستور الذى من أهم مواده الإصلاح ومحاربة الارتشاء المنتشر في أنحاء الدولة .

(٣) صلى بابل العدد ١-٤٠ .

(٤) لونكرليك : أربعة قرون من تاريخ العراق من ٢٧٨ و ٢٧٩ .

(٥) غرائب الاغتراب من ١٨٨ .

(٦) غاية المرام حوادث ١٨٠٠ وغرائب الأثر من ٥١ .

(٧) لونكرليك ٢٧٨ و ٢٨٩ . يقول ولي الدين يكن وهو كاتب يتصعب للائزاز

ويبلغ عنهم عن سرقة أموال الشعب ما يلي :

« فتجسّى أموال الرعية بلا حساب فيضج بعضها في جيب الوالى وبعضها في جيب من هو فوقه فلا يبقى لبيت مال الدولة إلا ما يتصدق به عليه السارق والناهب . فضالة ينفق جانب منها على طرب الماوك ولذاتهم وجانب على المقرين من الفرافقة ، ويبقى الموظف الصغير صفر اليدين أو تدرك أمره رحمة فيمد إليه بما يسد به رمقه (المعلوم والمجهول من ٤٤) .

(٨) صلى بابل ١-٤٠ .

وهذه هي الآيات :

إذا ارتشى اليوم (مأمور برطيل) إليه أرسلت طيراً من أبايل
لترمي على رأسه شر الحجارة من نوع الفضيحة لا من نوع مسجل
فتترك الوجه منه حين تحجله يحوى بثوراً كأمثال التآليل (٩)

والرشوة سبب من أسباب ضعف الدولة ؛ فالموظف المرتشى يكون
ضعيفاً خائفاً لا يقدر على تطبيق النظام مما يساعد على انتشار الفوضى ، حتى
إن الناس لم يكونوا بقادرين على ترك ييوتهم في المدن دون أن يحملوا معهم
ما يقيهم من أذى اللصوص ، وسطوة الناهبين والسالين (١٠) . بل تجرأ
اللصوص على السلب والسرقة علانية ، ولم يكن يمضى يوم دون سرقة أو
جرح أو قتل أو سلب (١١) . وقد وجدت عدة رسائل مفتوحة موجهة إلى
الوالى تشكو ما حل بالولاية من إراقة الدماء ، وانتهاك الأعراض ، واغتصاب
الحقوق ، وما عها من فوضى وخراب ودمار (١٢) ، وما كانت شكاوى
الأهلين بمجدية لأن الوالى ومن ييدهم الأمر هم أصحاب المنافع المباشرة ،
وهم أساس هذه الفوضى ، والرابجون من جرائها (١٣) ، وكثيراً ما ثاروا
على الدولة ، وقطعوا علاقتهم بها ، وجروا على البلاد الدمار بحروبهم (١٤)
بل إن بعض هؤلاء الولاة كانوا يحرضون الأشرار على تعكير صفو الأمن
للقوز بالغنائم ومصادرة ما بأيدي اللصوص (١٥) ، لذلك انكمش الناس
في قراهم تاركين العناية بالزراعة ، والاهتمام بالتجارة ، فظهر نقصان الغلال

(٩) جريدة الرقيب العدد ٩٠-١ يقصد به (مأمور) الموظف في الدولة والبرطيل
كلمة تركية معناها الرشوة .

(١٠) لوندريك ص ٢٥٢ .

(١١) الرقيب العدد ١١٥-١ وفى غمرة الاتصال ص ٥١ .

(١٢) الرقيب العدد ١١٤-١ .

(١٣) غرائب الأثر ٩٤ وغرائب الاغتراب ص ١٩٩ وتذكرة الشراء ٣٥ .

(١٤) كما حدث لسلطان باشا القليل عام ١٨١٠ ولدود: باشا ١٨٣٠ .

(١٥) غرائب الأثر ص ٦٧ ولوندريك ص ٣٢٣ .

في بلد هو من أنخصب بلاد العالم وأغناها فعمه الغلاء والقحط وتردت حياته الاقتصادية (١٦) .

استمرت جميع مشكلات العراق التي كان يعاني منها في القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين ؛ ومن هذه المشكلات الأساسية قضية سكان العراق فقد كان أغلبهم من العشائر الذين لهم نظامهم الخاص بهم ، وكثيراً ما كانت هذه العشائر تتمتع باستقلال ضمن دائرة العشيرة ؛ إذ لم تتمكن الحكومة من السيطرة عليها سيطرة فعلية ، وكثيراً ما تثار العشائر على الحكومة فتنتشر الذعر والرعب في النفوس (١٧) مغتمة ضعف الحكومة في فرض إتاوات وضرائب على بعض المدن ، إضافة إلى بعض المغامرات التي تفوز بها عندما تهاجمها دون وأزع من نظام يردعها (١٨) . وقد حاولت الحكومة العثمانية السيطرة عليها ، ولكنها لم تفلح لتحول رجالها من عصاة إلى مواطنين صالحين لأنها لم تكن تهمد لهم الوسائل اللازمة ، ودون أن تبذل أي جهد لتضمن طاعتهم واحترامهم لها (١٩) ، فلا عجب أن كانوا مصير قلق عام للحكومة وللبلاد ، يضاف إلى ذلك أنهم كانوا مسلحين بأسلحة هي أجود وأحسن من أسلحة الجيش الذي كان يذهب لقمع حركاتهم (٢٠) .

ولقد كانت المرأة بعيدة عن المجتمع العراقي ؛ فقد احتجزت في البيوت إذ لم يكن يسمح لها بالاختلاط مع الرجال ، وقد كان الوالد يريد أن يتخلص من ابنته مفضلاً عليها الولد مهما كانت درجة فضلها وخطئها ؛ فقد كانت ممنوعة من تعلم القراءة والكتابة كيلا توصلها إلى أغراض فاسدة (٢١) . وقد كان لاضطراب المجتمع وقلق مثله العليا أثر في حياة الرجل الذي تفككت مثله

(١٦) المصدران السابقان .

(١٧) صلي بابل العدد ٩٧ السنة الثانية سنة ١٩١١ .

(١٨) جريدة الزوراء العدد ١٧٣ السنة الثالثة سنة ١٢٨٧ .

(١٩) لوتكريك الصفحات ١٧١ - ١٧٥ و ٢٨٨ - ٢٩٢ .

(٢٠) صلي بابل ٩٧-٢-١٩١١ .

(٢١) تراجم الإصاوية في منع النساء من الكتابة (مخطوطة لنهان الأكوسي) ، وديوان التفنات ، ومجموعة أمثال الموصل ، ليعرف القارئ مدى خوف الآباء وأول الأمر من عار البنات .

العليا ولم يعد يردعه الوازع الديني أو الخلقي عن ارتكاب الجرائم ؛ فالتقابل كانت تشن الغارات على المدن ، والإيرانيون يهدونها ، وموظفو الحكومة العثمانية نفسها كانوا يسبون النساء ويأخذون السبايا إلى الآستانة (٢٢) ، لذلك حرص القوم على إخفاء بناتهم خوفاً من العار والسبي .

أما الحالة الصحية فقد كانت متردية نتيجة لإهمال الدولة لشئون البلد فلم يكن في بغداد طبيب واحد يشرف على المرضى ، فغدا العراق مرتعاً خصباً للطاعون الذى كان يفتك دون رحمة ، ودون أن يقف أمامه شيء (٢٣) حتى غدت الجثث طعاماً سائغاً تعودت عليه الكلاب (٢٤) .

وإذا تلمسنا حالة التعليم في هذه الفترة فلا نجد للتعليم ظلاً إلا في المساجد في المدن الكبرى وبحلود ضيقة (٢٥) ، ولولا عناية رجال الدين في مساجد بغداد والبصرة والموصل والتجف الأشرف لقضى على اللغة العربية ، ولعل أزهى عصر من عصور التعليم هو عصر ملحت باشا ، غير أن بارقة الأمل التي لمعت في عصره اندثرت بعد ذهابه من بغداد وبقيت الحال مهملة ، حتى أن الحكومة لم ترصد عام ١٩١٤ للتعليم مبلغاً من المال مع أنها رصدت مبالغ للجنسنة وللأمن العام مهملة شئون التعليم وكأنه شيء غير ضرورى ، أو يمكن الاستغناء عنه ، ولم نجد المطالبة بالإصلاح بضرورة نشر التعليم فتيلاً . ومن الطريف أن الحكومة كانت تدفع للبواب ٥٠٠ قرش وتدفع للمعلم ٢٠٠ قرش (٢٦) .

(٢٢) أخذ حاكف باشا بعض النساء المرييات من الحلة أسيرات إلى الأناضول . راجع مقالاً بقلم يوسف رجب عن بدر الرميض في مجلة عالم اللد العدد ٩-١-١٩٤٥ و (الحقائق الناصحة) ٤٣ .

(٢٣) لوفكرليك ص ٣١٦ .

(٢٤) غاية المرام ص ٢٢٧ وحديقة الورد ص ١٣ وئيل المرام ص ٧٩ .

(٢٥) نشرت جريدة صدى يابل الميزانية في عددها ٢٣٨-٢-١٩١٤ وقد كان مصدر ليزاد ميزانية الخزينة في الولاية يتألف من (معارف وير كوسى) أى ضريبة المعارف و(شوصه بلى) ضريبة الطرق وضرائب أخرى ، ولكن الولاية لم تكن تستفيد شيئاً . وهناك ميزانية أخرى توضع في الآستانة مع الميزانية العامة . أما ميزانية الولاية فليس للاستانة دخل فيها .

(٢٦) تنوير الأفكار ١-١-١٣٢٨ .

ما اللغة العربية فقد بقيت ممنوعة الاستعمال في الدوائر الرسمية حتى بعد ظهور المستور العثماني ، وكانت ترفض العرائض التي تكتب بها ، بيد أن جريدة الرقيب لم يرضها الحال ، فقارنت بين حالة العراق ، وحالة سوريا التي تميز استعمال اللغة العربية في الدوائر والمراسلات الرسمية ، فأمر الوالي باستعمال العربية (٢٧) ، وقد يكون للوالي عذر في أن يكتب له باللغة التركية ليفهمها مباشرة دون أن تكون هذه الرغبة مدعاة لاستعمالها في جميع الدوائر وفي المحاكم ، لذلك فقد كان أبناء الشعب يفضلون تعلم التركية لأنها السبيل الوحيد للتوظيف والعمل في مصالح الحكومة (٢٨) ؛ فلا نعجب إذا وجدنا أن نسبة التعليم لم ترتفع عن ٠,٥ ٪ في جميع أنحاء العراق (٢٩) .

هذه نظرة عاجلة إلى المجتمع العراقي ومشكلاته وجلدت من المناسب تقديمها لهذه الفترة ليكون القارئ قد تعرف عليها قبل البدء في دراسة هذه الفترة الأدبية ، ومنها يرى مقدار التردى الذي حاق بالعراق في جميع نواحيه الاجتماعية ، والثقافية ، والصحية : وقد سكت الشعب طويلاً خوفاً أو مجاملة للدولة المسلمة حتى ظهرت بوادر الإصلاح ، وارتفعت صيحاته من كل أطراف العلم ، ومن ثم بدأت الآراء الجديدة في العدالة والمساواة والحرية تتسرب تارة بوساطة الجرائد والكتب الواردة من مصر وسوريا ، وطوراً بما تنقله جرائد بغداد من أخبار العلم ، وآونة بما ينقله العراقيون المسافرين إلى الآستانة عند عودتهم بعد احتكاكهم بأبناء الإمبراطورية العثمانية . هنالك بدعوا يحسون بضرورة الإصلاح والمبادرة إلى عمل يفيد الشعب ، وقد كان منهم المطالب الجريء المستميت ، ومنهم الهادئ المعتدل . ومن تلك الصيحات الهادئة ما كانت تنشره جريدة صدى بابل ، أما الجرائد الجريئة فقد كانت « الرقيب » ، « وتنوير الأفكار » ومن ذلك قولها في إحدى مقالاتها : « لقد عم عموم التبعة العثمانية ، بل والأجانب حال العراق وما كان يشن تحته

(٢٧) الرقيب ١١٤ صدر في جاني الأول والمدد ١٣٥ صدر في الخامس من رجب سنة ١٣٢٨ .

(٢٨) لوتكريك ص ٣١٦ .

(٢٩) المصدر السابق .

من ثقل الاستبداد الذي كان نجماً عليه ضاعطاً إياه ، وعلى الخصوص ما كان تجرى فيه من المصائب الناتجة عن استبداد الولاة وكنهم أغلب الأمور عن الآستانة .. « وهذه جرأة وصراحة لم يكن يعهدا أهل العراق فهو تعريض واضح باستبداد الولاة وتزويرهم للأخبار التي ترسل إلى الآستانة العاصمة ولم تكشف الجريدة بهذا . إنما ذكرت بصورة جلية لاتدعو للشك طريقة تزوير هذه الحقائق ، والأسلوب الذي تكتب فيه هذه التقارير التي تصدر عن الولاية إلى مركز الحكم في الآستانة فقالت : (إن القتل والنهب والسلب ، واصل إلى العيوق ، ولكن الإفادات اليومية لا يحجر فيها . إلا أن الأمن والراحة العمومية على غاية المرام ...) (٣٠) .

ولابد لنا من أن نذكر هنا بعض المحاولات المشكورة في سبيل الإصلاح ، فناظم باشا كانت له مشاريع كبيرة فقد اتوى شق ثلاثة شوارع في بغداد ، وحاول تسير الترام بالكهرباء ، وبناء جسر حديد وجسرين من خشب ، وأمر بعمل خرائط للكنات ومستشفيات . ثم بدأ فعلاً ببعض الإصلاحات ، كإصلاح الأسواق وتعديل وتسوية الطرق المؤدية إلى إيران تسهلاً لمرور عربات النقل ؛ ووضع مخافر للمحافظة ، وتعيين بعض الموظفين الأمناء في الكمرك ، وتعجيل أعمال التجار ، وتعيين مأمورين للبرق والبريد ليلاً ونهاراً . غير أن هذه الإصلاحات لم يكتب لها الاستمرار لأنها كانت دائماً تصطدم برغبات الحكومة المركزية التي كثيراً ما يضطر لأجلها الوالي إلى ترك العمل أو الاستقالة (٣١) . ولم تكن غالبية الموظفين همها حركات الإصلاح لأن ذلك سيقطع عنها طريق الإثراء غير المشروع ، ويسد عن جيوبها موارد سهلة مستدعمة من أموال الشعب ، بل لا يهمها مطلقاً إلا خراب البلاد ، وفساد النظام لضمان عمران بيوتهم (٣٢) ؛ فقد كانت الوظيفة غاية يتوسل بها الموظف إلى جمع أكبر قدر من الأموال ، ومن كان همه الإثراء على حساب

(٣٠) جريدة الرقيب العدد ٥٢ السنة الثانية ١٣٢٨ .

(٣١) صدى بابل الأعداد ٤٣ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٨ من السنة الأولى ١٣٢٨ و ٩٧-٢-١٩١١

و ٣٠-١٩١٠ .

(٣٢) الرقيب العدد ١١٤-١-١٣٢٨ ولونكريك ص ٢٨٢ و ٣١٩ .

الشعب الذى لا تربطه رابطة قوية قوية لن يحاول مطلقاً معالجة الأمور بصورة جدية ، أو أن يعطى أية أهمية لشكوى تأتية من فلاح بائس ، أو عامل محروم إضافة إلى أن البحث فى الإصلاح والعمل الجدى المثمر المنتج تكلف الموظف الوقت الطويل والتضكير العميق وجهداً ومشقة لا طاقة له بها ، وكل ما يريده الذهاب إلى الديوان ، أو العودة إلى البيت أو للترهة (٣٣) .

هذا الانحطاط وهذا التأخر هو الذى دفع الشعراء فى أوائل القرن العشرين (٣٤) إلى المطالبة بالتححرر والإصلاح متأثرين بالحركات التحررية التى عمت العالم ، ولم يكونوا فى دعواتهم هذه - خلال القرن التاسع عشر وأوائل العشرين - راغبين فى الانفصال عن الجامعة العثمانية ، وإنما كانوا يريدون إصلاح الأمور العامة تحت ظل الخليفة العثمانى ، لأنه الرمز الإسلامى العثمانى للوحدة الإسلامية ، . ومن ثم أخذت هذه الدعوة طريقاً آخر هو الدعوة إلى الانفصال وتأسيس دول مستقلة منفصلة عن هذه الرابطة .

أما الأسلوب الذى سار عليه الأدب فهو نهج القرن التاسع عشر العناية باللغة عناية تخرجه إلى حد التزييق الممجوج الذى تملأ النفس ، إضافة إلى أن الموضوعات التى قد طرقها الشعراء كانت موضوعات تافهة ، مبالغاً فيها مبالغات تخرج إلى حد الإسفاف ، ولا سيما المديح والثناء .

(٣٣) تنوير الافكار ١-١-١٣٢٨ .

(٣٤) فى كتابنا الشعر العراقى فى القرن التاسع عشر المطبوع فى بغداد ١٩٥٨ تفصيل لحالة الشعر والحالة الاجتماعية والسياسية والثقافية .

الاتجاه الإسلامي

بقيت الدولة العثمانية — حتى الحرب العظمى الأولى — تحكم البلاد العربية ، وقد كان السلطان العثماني ممثلاً للشرق والمسلمين ، يقود هذه الشعوب أنى أراد وأين أراد ، ومتى أراد لسيطرة النزعة الإسلامية على غيرها من النزعات الأخرى بين الشعوب المسلمة والعربية ؛ إذ لم تكن الفكرة القومية قد ظهرت بعد ظهوراً شعبياً ، ولم تكن الفكرة العربية قد تغلغت في النفوس بعد ؛ إذ كان أكثر العرب ينظرون إلى الخليفة العثماني على أنه ممثل لآمالهم الإسلامية ، ولم يكن العربي المسلم يأنف من الاعتراف بسيطرة السلطان ، ولعل الخوف من سيطرة الأوروبي الكافر هو الذى جعل هذه الشعوب قوية الالتفاف حول السلطان العثماني ؛ فهي ترى الحاكم المسلم خيراً من حاكم لا يربطها به أية رابطة ، وقد اتخذت الدول الأوروبية نفس السلاح ودعت الشعوب غير المسلمة إلى الثورة والتخلص من حكم المسلمين (١) .

فالفكرة الإسلامية كانت نزعة هذا العصر ، ومن أراد الخروج عليها والدعوة لغيرها فهو خارج على الدين الإسلامى . مع أن أكثرية المنادين بالجامعة الإسلامية ليسوا من مؤيدى النفوذ العثماني ؛ وإنما كانوا يفضلونه على سواء من النفوذ الأجنبي مسوقين بالعاطفة الدينية التى تقول : إنما المؤمنون إخوة ، لذلك فهم يرون الخليفة العثماني الركن القويم الذى تعتمد عليه الوحدة الإسلامية .

والشعراء جزء من الشعب يعكسون رغباته ، ويمثلون آمانيه فتراهم فى

(١) فى (الاتجاهات الوطنية) بحث نفيس عن مطالع الدول الأوروبية وأعمالها ويراجع عبد الحميد ظل الله على الأرض ص ٦٣ - ٧٢ .

شعرهم قد اتخذوا الخليفة العثماني رمزاً للوحدة الإسلامية ، فهم امتدحوا سجاياه ، وأشادوا بأخلاقه وفضائله ورفعوا ذكره ومجّلوا سياسته ، فجعلوه في مصاف الآلهة لأنه يحمي (بيضة الإسلام) وهو (ظل الله في أرضه) وهو الذي (يدافع عن المسلمين) (ويقاوم المشركين والكافرين) (٢) . وقد بقيت هذه الفكرة مسيطرة سيطرة تكاد تكون تامة على الشعر حتى أعلن الدستور العثماني وبدأت الأحزاب تتشكل ، وتنتشر الجرائد ، وأبعد السلطان عبد الحميد عن الحكم ، فهوت قداسة السلطان على الأرض ، فلم يعد الرمز المقدس الذي لاتصل الأيدي إليه ، ولا تنوشه الألسن ، وبدا مثل البشر في سيئاته ومزاياه ، لا يزيد عنهم شيئاً ؛ لذلك فعندما كان هذا السلطان في قوته وفوقه ، وسطوته ، كان الأدباء يحاربون كل من سولت له نفسه الخروج على طاعته — سواء كان العاصي من العرب أو من المسلمين — فقد كان معنى ذلك انشقاقاً على الإجماع الإسلامي الذي حاولوا جاهدين الاحتفاظ به وصيانتة ، فهم يريدون في حماية السلطان أن يحموا الوحدة الإسلامية من التبدد والتفريق :

فلا عجب أن نرى بعض الشعراء يتخلون السلطان عبد الحميد رمزاً مقدساً يسرون في ركابه ؛ فقد أشادوا بالحروب التي أعلنتها ، وطربوا للغزوات التي شنّها ، وتغنّى الشعراء بالانتصارات التي حازها على أعدائه ؛ فكان محور الشعر ومداره حوله يحرق بخور الأدب ، وينشر عير الشعر ، ثم جاء من بعده محمد رشاد فأصابته بقايا هذا البخور الأدبي والعير الشعري ١١ وقد اشتهر في هذا القرن شعراء كان منهم الذي شب وترعرع ومات في العصر العثماني — وهم الذين بحث شعرهم في كتابي : (الشعر العراقي في القرن التاسع عشر) — وقسم شب في هذا القرن ، ولكنه تأثر بالتيارات الفكرية الجديدة ، وحركات الإصلاح التي انتشرت في ربيع النولة العثمانية ، ومع ذلك فقد بقي ولاؤهم للنولة حياً ، وناصحوا عن عقيدتهم لإسلامية واتمسك بها ، ومن هؤلاء الشعراء معروف الرصافي ؛ فإنه على

(٢) يراجع الشعر العراقي في القرن التاسع عشر فصل ملح السلطان .

الرغم مما كان يراه من انحطاط في أرجاء الدولة ، وتغشى التأخر بين أبناء الشعب لم يرض للعرب أن يخرجوا على هذه الدولة ، وأن ينظموا المؤتمرات في سبيل هذه الغاية ، فقد أيد حركات الإصلاح التي نادوا بها ، وطالب بها دون أن تخطر في ذهنه فكرة الانفصال عنها ، كان يريد الإصلاح في إطار الدولة العثمانية ، لأنه يرى الانفصال جريمة كبيرة تقترب ضد الإسلام ، ويؤدى إلى أن يتدخل الأوربي في شئون المسلمين ، لذلك نراه يبارك دعوة الإصلاح التي دعا إليها جماعة من العرب . بل إنه دعا العرب للانضمام إلى هذه الدعوة في قصيدة طويلة منها :

أبلغ بنى وطنى غنى مغلفة في طيها كلم في طيها ضرم
ما بالهم لم يفيقوا عن عمايتهم وقد تبلج لإصباح المنى لهم (٢)

ولكنه لما رآهم يطالبون باللامركزية والانفصال عن الدولة، وأنهم عقلوا مؤتمرهم في فرنسا (٤) ثار عليهم ، وزادت ثورته عندما أرسل «حتى العظم» إلى جريدة الطان Le Temps طالباً من الحكومة الفرنسية التدخل في أمر سوريا . إن هذا الطلب كان دعوة صريحة من العرب المسلمين إلى دولة أجنبية استعمارية أن تتدخل في أمور دولة مسلمة ، لذلك كانت مهاجمة الرصافي عنيفة دون هوادة ؛ فقد رآهم في قصيدته أنهم أثاروا في البلاد الإسلامية شراً وما قصدوا الإصلاح في دعوتهم هذه ، وإنما أرادوا تهديم الكيان الإسلامى الشامخ ، وقد كان شاعرنا حريصاً على إبقائه حرصاً شديداً لذلك قال لعبد الفتى العريسي (٥) الذى عقد مؤتمر باريس :

قل للعريسي والأنباء شائعة والصحف تروى لنا عنه الأعاجيب
علام تعقد في باريس مؤتمرأ ماكنت فيه برأى القوم مندوباً

(٢) ديوان الرصافي الطبعة الثالثة ص ٣٩٣ مصر .

(٤) في غمرة التضال - تفصيل عن أهدافهم وأصالحهم ص ١٢٧ - ١٣٠ .

(٥) شق جبال بلشا السقاع عبد الفتى العريسي خلال الحرب العظمى الأولى .

ويخاطب « حتى العظم » ويصف عمله بأنه كعمل الحمل الذي يطلب
المعونة من الذئب :

وهل تعتمد حتى العظم فعلته لما نرى خيراً للظان مكنوبيا
إذ راح يستنجد الإفرنج منتصفاً كأنه حمل يستنجد الدنيا
ولم يكن يؤلم الشاعر إلا عمل « حتى العظم » الذي يريد أن يفرض سيطرة
إسلامية إلى استعمار أجنبي لا تربطه به رابطة ، ولن يكتفى القرنسيون بالمساعدة
فقط — كما يظن حتى العظم — وإنما يريدون استعمار الشام بأجمعها ، وقد
تحقق ظن الرصافي بعد ذلك ، وصدقت نبوءته فيما بعد لأنه ثار عندما عقدوا
مؤتمرهم في باريس ، وتمنى أن يكون مؤتمرهم في بلد ليست له مطامع
استعمارية ، فهو متفق معهم في الحاجة إلى الإصلاح . لكنه يجب ألا يكون
في ظل حكومة فرنسا فقال :

لو كان في غير باريس تأليبهم ما كنت أحسبهم قوماً مناكيا
لكن باريس مازالت سياستها تنو إلى الشام تصعيداً وتصوبيا
ولم تزل كل يوم من سياستها تلقى العراقيل فيها والعراقيا
هل يأمن القوم أن يحتل ساحتها جيش يدك من الشام الأهاضيا (٦)

وكان الرصافي ينود عن حياض الإسلام والمسلمين لأنه ربي تربية دينية ،
وكان من أشد ما يؤلمه أولئك الذين يتخلون من تأخر المسلمين وتخلفهم سبباً
للطعن في الدين الإسلامي ، لذلك يسرد البراهين ويأتى بالأدلة ، ويسوق
الحجج ليبعد تهمة التأخر والانحطاط عن الدين الإسلامي نفسه ، فالدين
الإسلامي لم يكن السبب في تأخر المسلمين عن ركب الحضارة والمدنية ،
وإنما كان عاملاً قوياً في تقدم المسلمين الأوائل وازدهار المدنية ، وسعادة
الإنسانية قروناً ، ثم إن واقع الدين الإسلامي بنصوصه وتعاليمه يثبت ماله
من الفضائل ويميزات فهو الدين الذي يدعو إلى المساواة بين البشر ، فلا فرق
بين غني وفقير ، أو صعلوك وملك ، فهم كلهم إخوان متساوون في

الحقوق والواجبات ، ولافضل لأحدهم على الآخر إلا بالأعمال الصالحة ، وتقوى الله ، لأن الدين الإسلامى فى طبيعته لم يخلق طبقات من أبناء البشر ، ولم يفاضل بين ذوى المجد ، وبين مقطوعى النسب فقال الرصافى يؤيد رأيه : وماترك الإسلام للمرأة ميزة على مثله ممن لآدم يسمى فليس لثمر نقصه حق معلّم ولا عربى بنحسه فضل أعجم ولا فخر للإنسان إلا بسعيه ولا فضل إلا بالتقى والتكرم (٧) وفى ديوان الرصافى الشيء الكثير من شعر ينافع فيه عن عقيدته . وهناك شاعران آخران ألف كل واحد منهما كتاباً عن الدين الإسلامى هما : محمد حبيب العبيدى الموصلى ، وجميل صلق الزهاوى .

فالزهاوى آلمه أن تظهر الدعوة الوهابية لأنها دعوة تنادى بشيء جديد يختلف عما آلمه العثمانيون ، إنها دعوة تدعو إلى قومية عربية وهذا تهديد لكيان الدولة العثمانية فيؤلف (الفجر الصادق) ليهاجم فيه الوهابيين ويقول : الوهابية دعوة رفعت راية العصيان ، وتجاهرت بوخم عدوانها ، وسمى الوهابيين بالجماعة الباغية (٨) . وحفظاً للجامعة الإسلامية رأى أن الخلافة لايشترط فيها أى شرط فلا يجب أن يكون الخليفة إماماً ولا معصوماً ، ولا أن يكون علوياً أو قرشياً (٩) ، كل هذا ليمهد إلى القول بأن حكم آل عثمان حكم شرعى ، ولم يكتف بهذه الشرعية بل يوجب على المسلمين طاعة السلطان العثمانى ، ويعتبر العاصى كافراً لا يؤمن بالنبي ولا بالقرآن حيث يقول :

من كان يؤمن بالنبي محمد وبما أنى من منزل القرآن

علم اليقين بأنه فى دينه وجبت عليه طاعة السلطان (١٠)

(٧) ديوان الرصافى ص ١٣٠ .

(٨) الفجر الصادق طبع مصر سنة ١٣٢٣ (١٩٠٥) المقدمة .

(٩) الفجر الصادق ص ٧ .

(١٠) وقد كان رجال الدين يتقربون إلى السلطان بوسائل شتى منها البحث عن الأحاديث المفسوخة ، وغير الصحيح منها ، فلا يرون الملوك إلا ما كان حثاً على طاعتهم مثل قولهم (قلب السلطان بين إصبعي الله يقلبه كيف شاء) وقولهم (الملوك ملهون) وقولهم (اسمعوا وأطيعوا ولو دل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة) كل ذلك يفسدون به أخلاق الملوك تقريباً إلى جفائهم . لاحظ (المعلوم والمجهول) مصر سنة ١٩٠٩ ص ٤٣ .

ولسنا بصدد صديق عقيدة الزهاوى أو كذبها بعد أن نتصل من هذا الكتاب وادعى أنه اضطر إلى تأليفه خوفاً من السلطان ، ولكن يهمنى الكتاب نفسه لأنه عكس روح العصر التى كانت تسيطر - يومذاك - على الكتاب ، وقد مثل الزهاوى هذا الدور أصدق تمثيل .

أما العبيدى فقد كان السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه « حبل الاعتصام ووجوب الخلافة فى دين الإسلام » أقوى وأعمق من السبب الذى دعا الزهاوى . لأنه رأى أن الوهابيين أرادوا أن ينقوا الدين من شوائبه ، وأنهم دعوا إلى الإصلاح العام الشامل ، ولكن الخطر كل الخطر فى المستعمر الذى يريد أن يقضى على الدين ويهدم الخلافة ، لهذا فقد دافع عن الدولة العثمانية التى تمثل عقيدته ودينه ضد مستعمر بعيد عنه فى كل شيء ، ضد بريطانيا التى تريد أن تقضى على الخلافة الإسلامية ، وقد صرح برأيه هذا قائلاً :
 لأن الغرض من تأليف هذا الكتاب الدعوة إلى اتحاد المسلمين ، وتحت رسالة الملل . وقد برهن فى الفصلين الثانى والثالث على أن الخلافة الإسلامية قائمة بالدولة العثمانية (١١) ، وتزول الخلافة بزوال الدولة العثمانية ، ويرى استحالة قيام خلافة جديدة مكانها ، ثم يسبغ على الخلافة قنسية فى الفصل الأول إذ قال : إن الخلافة الإسلامية خلف النبوة بل النبوات ، وأنها واجبة قبل كل واجب دىنى . وعندما يهاجم بريطانيا فهو يهاجمها لأنها تريد أن تزيل الدولة الإسلامية من وجه البسيطة ، والقضاء على الخلافة التى هى كعبة السياسة للمسلمين ، والرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية (١٢) ، وفى ظل الوحدة الإسلامية أن تجد فرقاً بين المسلمين فهى قوة واحدة تقف أمام كل اعتداء على المسلمين فى أى قطر من الأقطار ، فإذا دخلت روسيا إيران ، أو دخلت إيطاليا طرابلس ، أو حاربت بريطانيا الدولة العثمانية ، نجد الفتاوى من علماء الدين تنشر لتحث المسلمين جميعاً على محاربة الكفار فى ديار الإسلام (١٣) ، فالاعتماد على الرابطة الإسلامية معناه اعتماد

(١١) هناك كتاب آخر باسم (جنايات الإنكليز) طبع فى بيروت سنة ١٩١٦ .

(١٢) حبل الاعتصام بيروت ١٩١٦ ص ١٢٠ .

(١٣) مجلة لنة العرب ج ٧ كانون الثانى ١٩١١ .

على شعوب كبيرة لما سيطرتها وقوتها لذلك كان السلطان يحرص كل الحرص على هذه الرابطة لأنها الوتر الحساس الذي يضرب له العرب والمسلمون ، فإذا أرادت الدولة أن تبقى أسطولا فتكون الدعوة للمساهمة في هذا البناء باسم الدين ، وباسم المحافظة عليه فيجد المسلمون لزماً عليهم هذا التبرع ، وهل هناك من لا يريد أن يحافظ على الدين الإسلامي أو يريد معرضاً لخطر الكفار ، فلا عجب أن دعا محمد طاهر السماوي النجفي الناس إلى التبرع والمؤازرة باسم الدين ، فقد تصور سير الأسطول في البحر وحده يكفي المسلمين فخراً وعزة ومنعة ، لذلك من المحم أن يتبرع في سبيل إنشائه الصغار والكبار لأنه أسطول إسلامي حيناً قال :

وبحق المجد قد ناشدتكُم يا حماة المجد شيخاً وغلاماً
أن تساعلوا في بناء هذا الأسطول لأن فيه أبطال المسلمين وأحلافهم ،
وهؤلاء هم الذين أبلوا بلاء حسناً في المعارك عندما فتحوا الأقطار لرفع
راية الإسلام وحيناً قال :

فيه أبناء الميامين الألى دوخوا الأعداء حرباً واصطلاماً
من بنى الإسلام أو أحلافهم كل مشتاق إلى الحرب غراماً
فتحوا الأمصار قدماً بالضبا تنفذ الأكباد أو تنقف هاماً (١٤)

ولم تكن الروح الإسلامية مقصورة على ناحية من نواحي الشعر ، أو على اتجاه معين ، وإنما كانت مهيمنة على كثير من قصائد الشعر التي كان يمدح بها القواد والولاة ، فعندما يمدح الشاعر والياً أو قائداً فهو يمدحه لأنه يؤازر الخليفة الإسلامي ، ولأنه يد قوة ترمي الأعداء الذين يريدون أن يعتلوا على الدين الإسلامي ، وأن السلطان العثماني هو الخليفة ، وأنه أمير المؤمنين وهو إنسان لا ينتخب إلا من يجد فيه المقدرة والكفاية الحربية والإدارية والفكرية ، ويهتز الشعراء طرباً للانتصارات العثمانية ، والحروب التي يفوز بها الجيش العثماني لأنها حروب في سبيل إعلاء راية الإسلام والمسلمين . ومن

أمثلة ذلك عبد الرحمن البناء (١٥) ، فهو يفرح بهذا الانتصار العثماني لأن الانتصار فيه حفظ لمركز الخلافة فيقول :

حفظوا مركز الخلافة حتى عاد ما حاول العدى مستحيلة (١٦)

ومثله الشاعر على البناء (١٧) فقد مدح القائد خليل باشا في معركة الكوت (١٨) لأنه رأى الجيش الإسلامي العثماني الذي يقوده خليل باشا قد انتصر على جيش الكفار الذين يريدون كسر راية المسلمين ، وقد رجع هؤلاء الكافرون خاسئين ذاهلين فقال مخاطب القائد :

لقد خففت رايات عرك بالنصر وأطفأت في ماضي الشباسورة الكفر
أمدك رب العرش في الجند هية ملأت قلوب الشرك فيها من الذعر

ثم بنى الإسلام بالنصر الذي أحرزه القائد ، ويطرب للانتصار الذي ناله ثم يمدح السلطان رشاد فخر الإسلام بقوله :

لئننا بهذا ملء الدين إنسه سرور بني الإسلام في كل ذى قطر
وتكسى فخاراً آل عثمان سرمداً بما فيهم قد شد للدين من أزر
ومسلطانها الغازي رشاد عمادها وفخر بني الإسلام بل مفخر الفخر (١٩)

ولم تكن هذه الروح الإسلامية مقصورة على شعراء بغداد الذين لهم اتصال مباشر بمركز الحكومة وقد تكون لهم مصالح خاصة ، إنما كان ذلك في جميع أنحاء العراق دون فرق بين الطوائف والقوميات ؛ فقد تغلبت النزعة الإسلامية على كل نزعة ، ووقفت كل الطوائف الإسلامية – بشهادة – تناصر الدولة العثمانية في جميع حروبها ، فعندما أعلن الجهاد في الحرب

(١٥) لايمد عبد الرحمن البناء من شعراء الطبقة الممدودة فهو قابلية شرعية فياضة ، لكن لم تقدر له ظروف المعرفة العالية والدراسة المنظمة .

(١٦) جريدة صدى الإسلام ٢١٥-١-٢٣٤ هـ .

(١٧) لم يكن من الشعراء المشهورين .

(١٨) استحدثت عن هذا مفصلاً في فصل ثالث في حروب الدولة العثمانية .

(١٩) صدى الإسلام ٢٦٦ في ٣ شعبان ١٣٢٤ هـ .

العظمى على خصوم الدولة العثمانية كان العلماء الأعلام يحفزون الشعب على الدفاع عن الدين الإسلامى ، فقد نظم كاظم آل نوح خطيب الكاظمية قصيدة تشيد بالانتصارات العثمانية لأنها تمثل انتصارات المسلمين فيقول متسائلاً :

أحرز المسلمون في هذه الحر ب انتصاراً لم ينس في كل جيل
أأهبل الناقوس تغلب في الحر ب أهبل التكبير والتهليل
ثم ينظر بازدراء إلى جيش الكفر الذى يحارب العثمانيين ، ويصفهم بأنهم كالسوام التى تريد أن تحارب الأسود ولكنها عادت فاشلة :

من هم الكفر إنما هم سوام أفتخشى السوام أسد الفيل
قفل الكفر عن أسود الفيل خاسئاً ذاهلاً يآثر قفول (٢٠)

ومن الشعراء المشهورين الذين فاصروا الجيش العثمانى من النجف الأشرف محمد على يعقوبى حيث أسماه الجيش الإسلامى الذى يحرس الدين والوطن ويشيد ركن الإيمان ، فترفع ذرا الإسلام شامخة :

حييت في الحرب بنصر الرحمن ياكالى الدين وحامى الأوطان
شيدت في بيضك ركن الإيمان وأصبح الإسلام عالى شان
ومجدنا عاد رفيع البنيان (٢١)

ولم تكن هذه المناصرة مقصورة على شاعر أوطبة ، فقد نظم في هذا الباب محمد مهدى البصير ، ومحمد رضا الشيبى ، وكاظم الدجيلى كما ستراه مفصلاً .

فقد قال البصير مخاطباً وزير الحربية العثمانية أنور باشا عندما زار العراق :
كم وقفة لك دون ملة أحمد فيها برأيك بل بسيفك تنصر (٢٢)

(٢٠) صلى الإسلام ١٠٨-١-١٣٣٤ هـ .

(٢١) صلى الإسلام العدد ١٧٢-١-١٣٣٤ هـ .

(٢٢) صلى الإسلام العدد ١٨٣ من السنة ثلثها .

وبقي الحنين طويلاً نحو الدولة العثمانية لأنها تمثل الاتجاه الإسلامي ، حتى
بعد أنول نجم هذه الدولة واندحارها واحتلال الإنكليز العراق ، فقد نظم
كاظم الدجيلي قصيدة يؤيد فيها « الملك حسين » لكنه عطف على الدولة
العثمانية بقلب ملؤه الأمل والأسف والحسرة لما حاق بها ، ولم يكثر
بما سبقناه من الدولة الإنكليزية ، مع أن القصيدة قد نشرت زمن الاحتلال
البريطاني فقال :

سلامٌ على أبناء عثمان وافر فلولتهم أضحت بأيدي مواليتها
ثم يهيب يبايى الدولة العثمانية وأشهر سلاطينها أن يقوموا من قبورهم
لأن دولتهم أصبحت بيد الأعداء ، وأن عاصمتهم غدت محنة من قبل
الأجانب :

أعشان قم وانظر إلى الملك مهملًا فلولتك العليا قد انمطت عاليا
أفانح اسطنبول فانقض لحفظها فقد حكمت فيها عداك مواضيا
غزتها رجال كنت تغزو بلادها وتفتحها قهراً فسموك غازيا
سليمان فاجلس للعزاء فلولة تكفلتها قد مات بعدك حاميا
وأصبح فيها ضاحك السن باكياً ومادحها بالأمس ذا اليوم رائيا (٢٣)
وقد قال السيد عبد المطلب: إن العرب والترك إخوان يجمعهم الدين ،
وللأتراك فضل لأنهم قد حموا الدين من الكافرين فخاطب العرب بقوله :
أقول للعرب إن الترك إخوانكم والدين أما لكم أضحي معاً وأبا
ماذا الذي قد نقمتم منهم وهمو في أول الدهر شادوا للهدى قيبا
هم الذين أقاموا الدين في قصب في حدها عاد جبل الكفر منقضا
وحطموا بالضبا الأوثان وانصلتوا إلى الكنائس حتى حطموا الصلبا (٢٤)
وقد خاطب الشيبى معاتباً الأتراك على ما قدموه من إساءات وكيف
أن العراقيين صفحوا عنهم ، وعن زلاتهم ؛ كل ذلك حتى لاتنفرك الوحدة

(٢٣) دار السلام العدد الأول السنة الأولى سنة ١٩١٨ ونشرت بتوقيع ك. د. .

(٢٤) شعراء الحلقة ج ٣ ص ٢٠٩ .

الإسلامية التي تربطهم بها مع ماقتلوا وشتقوا وأسروا (٢٥) ، وقد كان الرصافي صريحاً — كل الصراحة — في نذب أيام الدولة العثمانية ، وقد أظهر وفاءه لأيامهم مع أنه يلومهم لأنهم فرطوا في حقوق العراق ، وتركوه نهياً بيد العدو ؛ إذ راح يملأ نفس الشعب أملاً بعودة العثمانيين لإتقاذهم من الاستعمار البريطاني ، فقد فضل أن يبقى العراق عثمانياً على أن يكون مستعمرة بريطانية ؛ فقال يرد على سليمان نظيف الذي يعاتب العراقيين على لسان دجلة :

أنا باق على الوفاء وإن كا نت بقلبي ممن أحب جراح
فإليهم ومنهم اليوم أشكو بلغهم شكائى بارياس (٢٦)
ويتحسر الزهاوى على أيامه التي قضاه في زمن الدولة العثمانية فيقول :
أين عزى في دولة الأتراك أنا مما فقدته أنا باكى
كنت بالأمس راضياً عن حياتى وأنا اليوم من حياتى شاكى (٢٧)
ولم تخمد الروح الإسلامية ، وقد بقيت مسيطرة على نفوس العراقيين طويلاً حتى بعد ظهور الروح القومية ، وفشل الجامعة الإسلامية ، ويأس دعايتها من تحقيقها . ومن الشعراء الذين لهم أثر كبير في تاريخ الأدب في العراق الرصافي ؛ فهو الذي لم يتغير في رأيه وعقيدته ، فقد نظم قصيدة في الحرب العالمية الثانية يقول فيها :

قل لمن رام صدعنا بشقاق أنت كالوعل ناطح الصفوان
ويك إن الإسلام أوجد فينا وحدة مثل وحدة الرحمن
فاعتصمنا منها بجبل وثيق هو جبل الإخاء والإيمان
ليس معنى توحيدنا إلا - إلا اتحادنا في الكيان (٢٨)

(٢٥) ديوان الشبيبي ص ٢٦ - ٢٩ - .

(٢٦) ديوان الرصافي ص ٤١١ .

(٢٧) الباب ص ٦٥ بغداد ١٩٢٨ .

(٢٨) ديوان الرصافي ص ٤٦٧ وقد أخبرني سيادة الأستاذ مصطفى على أنها نظمت بعد

الحرب العالمية الثانية .

الدستور العثماني

كان إعلان الدستور العثماني بداية عهد جديد في التفكير العربي عامة والعراق خاصة ؛ فقد أثر كثيراً في تغيير الاتجاه العقلي وفتح الأذهان على مثل جديدة ألفاظ حديثة لم تكن مألوفة لأهل القرن التاسع عشر وما نشئوا عليه من استبداد مطلق ، وتحكم في رقاب الناس ، فقد تفاعل الشعب به كثيراً في أرجاء الإمبراطورية العثمانية وظنه منحصب الأرض ، ويثرى الفقير ، ويكسو العريان ، ويشبع الجائع ، ويطلق للناس حرية كاملة في التعبير عن آرائهم بصورة مطلقة لا تخضع لقيود ولا تقف أمامها حلود .

أعلن الدستور العثماني سنة ١٩٠٨ فكان صدى إعلانه كبيراً على الشعب وخاصة الشعراء— فقد فرحوا فرحاً شديداً به وبلدت علائم الفرحه تسرى في شعرهم ، وقد انقسم هؤلاء الشعراء إلى قسمين أو اتجاهين :

الاتجاه الأول وقد ضم جماعة ممن عاشوا على التراث التقليدي ، وهو امتداد للقرن التاسع عشر في أسلوبه ومعالجته للموضوع ، فوجدنا في شعرهم المبالغة ووصف الألفاظ ، والإطالة التي تطفح بمشوي يخرجهم عن الموضوع الذي نظموا فيه فقد يدمون القصيدة بالغزل ، أو بمدح إنسان ، ويعبدون عن الموضوع كثيراً ، وعن أساسه، ومن أمثلة هذا الاتجاه حسن العذارى ، وصالح الحلي ، ويكاد ينضم تحت هذا أكثر شعراء النجف.

والاتجاه الثاني انبثقت تياراته من شعراء ابتعلوا عن أجواء المساجد والبيئات الدينية الصرفة ، وانضموا إلى ركب الحياة الواقعية ، وفي هذا الاتجاه وجدنا بنور التطور الحديث تنمو في أسلوب الشعر ومعانيه وأغراضه

وأهدافه . وقد كان هؤلاء من الشباب المندفع الذى أوقى حرارة الشباب ، وحماسة العمر فألبسوا الدستور باندفاع ، فقد أخذ الزهاوى والرصاصى مخبطان فى الناس ويشرحان لهم فوائد الدستور (١) ، وقد كان محمد رضا الشببى عضواً من أعضاء حزب الاتحاد والترقى العاملين (٢) ، كما انضم الأزرى إلى حزب الائتلاف (٣) والواقع أن الشعراء آزرُوا الدستور العثمانى آمليْن فيه المساواة مع الأمم الأخرى ، والحرية للتعبير عن آرائهم ، والعدالة التى يجب أن تشمل بلادهم (٤) ، فجاء شعرهم أناشيد تطفح بالحرية والتغنى بمحاسنها ومزاياها وما سطره على الناس من خير ، ثم تطرقوا فى شعرهم إلى مساوئ الاستبداد والطغيان والحكم المطلق ، الحكم الدكتاتورى الفردى ، الذى يؤدى دائماً إلى الانحلال والتفقر ونشر الفساد وهدر قيمة الشعب فى جميع الأمور ، والاعتداد بشخصية الحاكم مهما كانت تافهة جاهلة .

ومن أمثلة شعراء الاتجاه التقليدى السيد عبد المطلب الحللى ؛ فقد وجدت له قصيدة يندد فيها بالعهد الاستبدادى الذى كان غمياً على الشعب ، وماجره هذا العهد على البلد من فساد وفوضى ثم يشيد بالعهد الدستورى الجديد . والقصيدة تطفح بالمبالغة ويكثر فيها الحشو وتعتمد على المحسنات اللفظية ، فى الأبيات الثلاثة التالية يقول :

لك الأمر فاحكم بالذى أنت عالم فمن ذا يرد الحكم والله حاكم
عن القائم المهلى قمت بأمره أيا قائماً أنهى له الأمر قائم
عزمت فأغرمت المليك وقد نجما بحق المهلى والمتلف الشيء غارم

فى الأبيات جناس اشتقاق بين حاكم وحاكم ، وجناس تام بين القائم المهلى الإمام الثانى عشر والقائم المملوح ، وفى الفعلين عزم وأغرم جناس تصحييف فى حرفين ، ثم نجد الطباق والمقابلة فى المتلف والغارم ومثل ذلك .

(١) سحر الشعر ص ٥٢ مصر ١٩٢٢ .

(٢) معروف الرصاصى - طباعة - ص ٧ مصر ١٩٤٧ .

(٣) الأدب المصرى ج ٢ ص ٥١ .

(٤) ومن هؤلاء غيرى المتناوى فقد وقف قلمه على نظم القصائد وكتابة الفصول فى تجميع

الحرية والدعوة لها - الأدب المصرى ج ٢ ص ١٦٢ .

ويستمر في القصيدة على هذا النسق إلى أن يصل إلى القصد فيهاجم الجور ،
والظلم ، والاستبداد ، الذي يحطم المستبد كما حطم عبد الحميد الذي لو
عدل بين الرعية ، وساوى بينهم ، ونشر لواء الحرية والمساواة لما أصبح رهين
القيد كسيراً ذليلاً ، وبعد ذلك يتطرق إلى مدح أولئك الذين أفاعوا على الشعب
بالحرية والعزة ، وهم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي (٥) الذين زحفوا من
سلانيك بعزم وقوة وإيمان لإرغام الجبار على التسليم بحقوق الأمة فيقول :

فهبّت رجال من (سلانيك) أيقظت إلى العدل عين الحزم والحزم نائم
رجال هم الأسد الضراغم صولة لدى الروح لأسد العرين الضراغم
دعوا للتساوى دعوة وطنية أجاب لها منهم جهول وعالم (٦)

ويتمدح بعد ذلك الخليفة الجديد محمد رشاد آملاً في عصره الخير والرفاه
والسعادة ، ولا يخرج عن أسلوب القرن التاسع عشر من حيث العناية بالألفاظ
فيقول : إنه يبيض وجه الملك الذي سودته المظالم وأصبح ثغر الليالي مبتسماً .

أما الشاعر الآخر الذي نأخذ مثلاً لهذه الطبقة فهو الشيخ حسن العذارى
فقد بدأ قصيدته بغزل متكلف ليس فيه روح ، وتأبى الروح أن تسرى في
أوصاله ثم يتخلص منه إلى مدح السلطان محمد رشاد ، ويراه بذر الخلافة
ينير النولة العثمانية ، ويشر الأمة بأن عهده عهد العدالة وعحق الظلم ،
وقد تساوى في زمة الشعب أو الرعية ، ثم يطيل في قصيدته ، ويخلص إلى
مدح حزب الاتحاد والترقي الحزب القوى الأمين الوطني المخلص الذي
قضى على استبداد عبد الحميد وعلى أيامه فيقول :

ما الانتظار وما القعود ذوى النهى شرف (الترقي) بابه لا يوقب

(٥) بشأن حركة الاتحاد والترقي يراجع المقال : The Young Turk Movement

في كتاب صدر في نيويورك عام ١٩٢٤ اسمه : Modern Turkey

وقد ألف من قبل Eliot G. Mears الصفحات ما بين ٤٧٦ - ٤٩٠ .

(٦) شعراء الحلة الختاني - ٢٢٣ - ٢٢٦ ج ٣ نجف ١٩٥٢ وله قصيدة أخرى يلح

فيها الاتحاد والترقي ص ٢٠٩ ويراجع تفصيل طريف في الفصل الثاني عشر من كتاب (عبد الحميد
ظل الله على الأرض) .

لاتفعلوا متكاسلين عن العمل من شاء أن يصل الغزاة يتعب (٧)

أما الاتجاه الشعري الثاني الذي ناصر الدستور فهو اتجاه العصر الذي كان يعيش فيه هؤلاء الشعراء ، ومن هؤلاء معروف الرصافي الذي نظم كثيراً (٨) في الدستور ، وناصره مناصرة المؤمن به الحريص عليه ، فوصف يوم إعلانه ، وكيف استقبل الناس هذا الإعلان ، ووصف مشاعره وتطرق في شعره إلى مجلس « المبعوثان » وما يأمل على يد هذا المجلس من الخير للشعب ، ثم هاجم السلطان عبد الحميد ممثلاً للاستبداد والحكم المطلق ، والبحر ، والطغيان ، ثم ناصر الجيش الذي عزل هذا السلطان ، وقضى على حركة الرجعية التي أرادت بالبلاد الشر والفساد ، وأرادت القضاء على الدستور . وعندما لم يطبق الاتحاديون نصوص الدستور ، ولم يرفعوا حقوقه شكاً إليه بحرقه وألم مما حاق به وبالبلاد من عدم تطبيق أحكامه ، ولما سقطت وزارة الاتحاديين سجل هذا بقصيدة . ويكاد الرصافي أن يكون المؤرخ العراقي لهذه الفترة من حياة الأمة ، هذه الفترة الحافلة ، فترة نضال بين شعب يريد أن يسترد حريته ، وبين رجعية تريد أن تنقض عليه ، وتستعبده خادماً مطيعاً ذليلاً لذلك كانت أفراح الرصافي أفراح شعب ، أو أفراح شعوب في الشرق أو في الغرب عندما فرح بالدستور . وغنت الدنيا طرباً به عندما زف رجال الجيش هذا الدستور للشعب فأقبل الشعب شاكراً راضياً فقال :

سقتنا المعالي من سلافتها صرفاً وغنت لنا الدنيا تهنتاً عزفاً
وزفت لنا الدستور أحرار جيشنا فأهلاً بما زفت وشكراً لمن زفاً
فأصبح هذا الشعب للسيف شاكراً وقد كان قبل اليوم لا يشكر السيفاً

(٧) شعراء الحلة ٦١ - ٦٥ .

(٨) لاحظ ديوان الرصافي الصفحات ١١٣ ، ٣٨٠ ، ٣٨٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٣ .

ورحنا نشاوى العز يهتف بعضنا ببعض هتافاً يصعق الظلم والحيفاً
ولاحت لنا حرية العيش عندما أماطت لنا الأحرار عن وجهها السجفاً (٩)

وقد شارك عبد المحسن الكاظمى فى مهجره بالإشادة بالمستور بقصيدة طويلة جاوزت المائة بيت ، فقد رأى المستور خفاق اللواء ، وأن ذكره العاطر قد انتشر بين المحافل ، وتبرز لنا أشواق الكاظمى للمستور شعور الناس ، وما انتابهم من غبطة وسرور بهذا الإعلان ، وبذلك قد ثبت أن جميع أبناء الدولة العثمانية أوعاها قد فرحوا بهذا الإعلان أملين خيرهم وسعادتهم . وقد رسم الكاظمى صورة طريفة وصف فيها مشاعر الناس وحالمهم بعدما تخلصوا من العبودية وغدوا جميعاً إخواناً ، وصفهم وهم يتعاقبون ، ويصافح بعضهم البعض شأن كل عمل خير يعود على الأمة فيوحد بينها ، وتطفي على الشاعر الفرحه وموجة التفاؤل فيوجب إحياء الليل والنهار فى هذا العيد الذى لايدانيه عيد . إنه عيد الإنسانية جمعاء ، عيد الحرية وما أجمله من عيد فيقول :

هو العيد أحبوا ليله ونهاره وحيوه بالبشر الذى هو لائق
وما مثل هذا العيد عيد تجلج جميع الورى أعداؤه والأصادق (١٠)

فرح الكاظمى وهو فى مصر وكانت مصر منقطعة الصلة السياسية بالعاصمة إلا بالاسم ، فراح يهتف باسم الشعب ، ويهتف للحرية التى ستمتع العثمانيون وغير العثمانيين لأن الأقلام ستكون طليقة حرة تكتب ما تريد ، وتعبر عن الرغبات بصراحة وبأمانة لا تخاف من السلطان ، ولا من أعوانه ، وبذلك فقد دالت دولة الظلم بعد أن قامى الشعب من إرهابها ما قاساه من الآلام ، وعانى ما عاناه من تحمل الذل والهوان ، ثم يصف الثقة بالمصلحين ، وبما يحققه المستور للشعب بقوله :

ولما تبسدى لليمان تيقنوا بأن بروق المصلحين صوادق
إذا ما دعوا للحق صمت وجلجلت مسامع أخزأها الهوى ومناطق

(٩) ديوان الرصافى ص ١١٣ .

(١٠) مجموعة شعر الكاظمى ج ٢ ص ١٢٦ مصر ١٩٤٨ .

أجزاء نداء الشعب رغم أنوفهم وقالوا سلاماً والصلور حوانق (١١)
وقد مرت ثورة حزب الاتحاد والترقي على السلطان محمد رضا الشيعي
لأنه يرى أن الثورة تحقق مطالب الشعب بإعلان الدستور ، لأن الدستور
كانتور الذي ينبعث في الظلمة الخالكة فيحيلها عالماً واضحاً مشرقاً جميلاً
بعيداً عن الأشباح والخاوف ، فتعم الفرحة الشعب بهذه الإشارة الحسنية ،
وتخطر النجوم فرحاً وابتهاجاً بالدستور . وكيف لاتضحك البحار ، وتبتسم
النجوم ، وتشرق الدنيا وقد تحرر العبد ، وانتشرت الحرية بين الشعب .

طرقت وضاحية النهار دجسة والحر عيسد ، والذئق أملاك
فأضاء عنها البرق ينبض عرقه سلكاً . عليه حل السنا أسلاك
ضحك المحيط لوقعها وتبسمت عن ثغر أنجمها لما الأفلاك (١٢)

أما الزهاوي فيلتي خطبة طويلة بعد إعلان الدستور عندما تعقد جمعية
الاتحاد والترقي في بغداد اجتماعاً ويرى أن الدستور العثماني قد حقق العدالة ،
ثم يصف هذه العدالة بالفئة الجميلة وقد تجمع حولها الأحرار يحمونها من
المعتدين والمستبدين ، ثم يتطرق إلى فضل الحرية على الأمة التي تطلق الشعب
من إساوه فلا يعرف الذل الدائم عند ما تنشر ألويتها ويعرج على الظلم
يندبه ، ويهاجم الظالمين الذين يسوقون الشعب بالسوط ، ويحكمونه بقوة
الحديد ، ويسخرونه دون أن يراعوا له عاطفة أو إحساساً فيقول :

والظلم مفسدة ما حل في بلد إلا وأزعج فيه أي لأزعاج
قد أعلنت للورى حرية فمضى زمان سخرة ذى أمر وقرباج (١٣)
وأطلقت كل نفس من إسارتها هذا الذى كان يرجو نيله الراجي (١٤)
وللزهاوي قصيدة أخرى بلغت خمسين بيتاً نظمها بعد إعلان الدستور
وموت صديقه وزير الحرية رجب باشا ، وفيها تطرق إلى شعار الاتحاديين

(١١) المصدر السابق ص ١٢٩ .

(١٢) ديوان الشيعي ص ٥٢ طبع مصر سنة ١٩٤٠ .

(١٣) القرباج - السوط - تركية .

(١٤) الكلم المنظوم بيروت ١٣٢٨ ص ١٨٣ .

(الحرية والعدالة والمساواة) ، وأثر هذا الشعار في حالة الشعب ، ويقف عند العدل ويشبهه بالغانية الجميلة التي تحلت بالأحجار الكريمة فبدت زاهية حالية (١٥) .

ومن الذين عقلوا الآمال الجسام وطربوا طرباً شديداً عبدالرحمن البناء ، فقد رأى الحرية فتاة حلوة الشمائل ، رقيقة السجايا ، لطيفة المزاج ، وأنها ستغمر الشعب بهذه المحاسن ، وضمن شعره بكلمة مشروطة التي أخذها من المشروطة (١٦) التي يرى العدل بها متشراً ، والجور مولياً الأدبار ناجياً هارباً من العدل الساطع الأنوار .

أما إبراهيم منيب الباجه جى فقد نظر من زاوية أخرى زاوية الأحزاب ، فقد رأى الدستور يهدم بناء المفسدين بعد أن شاد الأحرار مجدهم شامخ اللرا سامقاً بين الشعوب ، وأن دولة الإسلام ارتفع نجمها بين الأمم لأن يوم الدستور هو عيد الشعب ، وهل غير الحرية والدستور من أمانى هذا الشعب حين قال :

يوم تهدم ركن المفسدين به وقد تشيد للأحرار صرح علا
يوم به خاب حزب المستبد وقسد ولى ونال بنو الشورى به الأمل (١٧)

هكذا كان حال الشعراء الذين عكسوا أفراح الشعب وأمانيه وأحلامه في الدستور ، وفرحوا بالانقلاب الجديد واصفين شعرهم ما كان للدستور من أثر في جميع الشعوب من مختلف الأجناس ومتنوع الأديان والقوميات ، لأن الدستور معناه المساواة بين الناس دون النظر إلى أى اعتبار إلا كونهم مواطنين ، بيد أن عبد الحميد نكث بهذه الذي قطعه في المحافظة على الدستور ، وأغرى الصحف بمهاجمته ، وتلمس الأسباب المتعلقة للقضاء عليه ، معتمداً على بعض رجال الدين للقيام بحركة رجعية مما دفع بالجيش إلى أن يستعمل القوة ويدخل الآستانة ويحاصر قصر عبد الحميد (يلنر) ويشبك مع رجاله

(١٥) الكلام المنظم ص ١٨٥ وديوان الزماوى ٢٧٤ و ٢٧٥ .

(١٦) صدى بابل المند ٥٥-١ شعبان ١٣٢٨ هـ .

(١٧) زنايق الحقل طبع بغداد ١٩٣٩ ص ١٢٠ .

عبد الحميد ، ويحمل السلطان على التسليم ، ويقبض على أنصاره ، ويعدم عدداً منهم ، وتجتمع الجمعية العمومية فتعزل عبد الحميد ، وتولى السلطة السلطان محمد رشاد في ٢٧ من نيسان ١٩٠٩ (١٩) .

هذه السياسة الرجعية للقضاء على حقوق الشعب التي حصل عليها تبدو واضحة في شعر هذه الفترة ، ويبرز اسم الجيش واضحاً ، وينظم الشعراء في تمجيده وتخليده ، ويهاجم الشعراء سياسة عبد الحميد التي انتهجها ، تلك السياسة الظالمة سياسة التفرد بالحكم ، وجر البلاد إلى الانحطاط ، والتدهور ، والتأخر ، وكبت حريات الشعب ، والتنعم بملذات الحياة ، يوقف الرصافي على رأس هؤلاء الشعراء العرب ، فيصف زحف الجيش الذي قدم من سلاطيك إلى الآستانة لقمع الحركة الرجعية التي تناصر حكم السلطان عبد الحميد ، وتؤيد سياسته (٢٠) . ويصف جنود هذا الجيش الذي وحد الهدف السامي بينهم برغم اختلاف أديانهم وقومياتهم ، وهل هناك هدف أسمى من الحرية والمساواة والعزة والكرامة يوحد الشعوب فتسير من أجله نحو المنية ؟ فيقول :

هكانوا الجيش ألف من جنود مجنودة ومن متطوعين
تراهم فيه متحدين عزمًا وماهم فيه متحدين دينًا
هي الأوطان تجعل من بنيتها إخاء في محبتها رصينا
وتتركهم أولى أنف كباراً يرون حياة ذى ذل جنونا
وأن الموت خير من حياة يظل المرء فيها مستكيناً
لقد رأى الرصافي أن ضياع البستور ، وكبت الحريات ، ونجاح الحركة الرجعية التي يقوم بها السلطان عبد الحميد ما هي إلا العودة بالشعب إلى عهد الاستبداد وتحكم الفرد بالجماعة لإثارة لذته وشهواته ورغبة في

(١٩) الاتجاهاات الوطنية للدكتور محمد حسين ، مصر ١٩٥٤ ص ٣٠ .

(٢٠) في ديوان الرصافي وصف لأحد المشنوقين الرجعيين ص ٢١ . انظر جريدة الرقيب للدهدين ١٥ و ١٧ من السنة الأولى سنة ١٣٢٧ هـ يصعد حركة بعض القبائل لمناصرة السلطان عبد الحميد ، وقمها من قبل يوسف باشا . وثمها شعر محمد طاهر السراي .

إعادة الظلم والجور والظلم إلى سابق عزه وضراوته على أبناء الشعب فقال :
 فقد هاجوا على الدستور شراً بدار الملك كى يستعبدونا
 هم الأشرار باسم الدين قاموا فعاتوا فى المواطن مفسدينا
 ولكى يضرب مثلاً حياً للطغاة ودرساً خالداً للظالمين استمر فى وصفه
 دخول الجيش إلى قصر « يلنز » والقبض على السلطان عبد الحميد وإرساله
 سجيناً إلى « سلاتيك » لأنه لم يرع حرمة الدستور واليمين التى حلفها من أجل
 صيانه فقال :

لقد نقض اليمين وخان فيها فذاق جزاء من نقض اليمين
 وقد كانت به البلدان تشقى شقاء من تجبّره مهيناً
 فكم أذكى بها نيران ظلم وكم من أهلها قتل المئينا (٢١)

والرصاصى شاعر الحرية لم يكتف بقصيدة واحدة للدفاع عن الشعب وعن
 حقوقه إنما كان مثلاً حياً ولساناً ناطقاً معبراً خير تعبير عن أمانى الشعوب ؛ فقد
 وقف نفسه فى سبيل اللود عن الشعب ، وعن حرته ، ومحاربة الجور والحكم
 الفردى ، وفى ديوانه الشعر الغزير ، نظمه فى مناسبات كثيرة ومن هذه
 القصائد ما كان منها قبل إعلان الدستور وبعده (٢٢) . وبذلك الدليل الواضح
 على أن الشعب كان له من شعور وإحساس بمرارة الظلم والاستبداد قبل أن
 يوقظ الدستور حماسة بعض الشعراء فيدفعها إلى النظم ، ومن هذه القصائد
 تلك التى نظمها بعد سقوط عبد الحميد خاطب فيها القصر (يلنز) الذى كان
 يطفح بالغبطة والسرور والصفاء ، وإلى جانب شعب يفيض بؤساً وشقاء
 وآلاماً ، فيخاطب ملوك العالم وطغاته جميعاً ، ويجعل من عبد الحميد مثلاً
 ودرساً يجب على الملوك اتخاذه عبرة حتى لاتسول لهم نفوسهم يوماً الاعتداء
 على حقوق الشعوب بنحت حرياتهم وإهمال مصالحها لأن عاقبة الظلم والظلمين

(٢١) ديوان الرصاصى القصيدة ص ٣٧٤ - ٣٧٧ .

(٢٢) لاحظ فى ديوان الرصاصى المصححات ٤٥ و ٦٣ ، ١١٦ ، ١٢٢ - ١٦٢ - ١٦٤

وخيمة تجر على صاحبها الويل ، وما تقييد الملوك لحرىات الشعب إلا لخوفهم
من ثورته التى تركتهم يعيشون فى رعب وجزع من هذه الحرية التى تجرهم
إلى مصيرهم المحتوم .

يا ملوك الأناسم هلا اعتبرتم بملوك تجبور فى الأفعال
ليس عبد الحميد فرداً ولكن كم لعبد الحميد من أمثال
فاتركوا الناس مطلقين وإلا عشم موقنين بالأحوال
هل جنيت من التجبر إلا كل إثم عليكم ووبال (٢٣)

وقد كان لأعمال عبد الحميد أثر كبير فى نفوس بعض الشعراء فقد لاحقوه
حتى فى سجنه وتصوره يلوم نفسه حسرة وألماً على ما قدمت يداه ، وما فرط فى
حقوق الشعوب التى كان يحكمها ذاكرأ تلك الأيام العذاب لائماً الدهر الذى
أنزله من عرشه بينما أصبح الذين كانوا رعاياه أسياده وحكامه والمتصرفين
فى أمره فيقول إبراهيم منيب الباجهجي على لسانه :

أرقت ومالى مؤنس غير وحشى وتسكاب دمع صاعد من حشاشى
أفكر فى ماض سعيد قضيتيه فأعقبه دهرى الخئون بشقوى (٢٤)
سقاك الحيا يا معهد الأئس والمى فبعلك شابت بالفراق شيبتى
ومخاطبه عبد العزيز الجواهرى بقوله :

أراك أسير أحزان وقيد وكنت أراك ترسف فى السرور
وقد كنت الأمير على السرايبا فكيف رسفت فى قيد الأسير
غريب لوجزيت الخير لكن جزيت الشر يا شر الدهور
لقد أوغرت صلر الجند حتى أراك الله عاقبة الغرور (٢٥)

وقد شارك عبد المحسن الكاظمى لإخوانه فى العراق فى لوم الاستبداد ،

(٢٣) ديوان الرصاق ٣٧٧ - ٣٨٠ .

(٢٤) زنايق الحقل ص ١٣٧ .

(٢٥) الأدب المصرى ج ٢ ص ١٦٦ .

دواعير عبد الحميد ممثلاً له وأن عهده عهد المآسى والأحزان التي انصبت على كل الشعوب التي كان يحكمها . وبعد ذلك يعرج في القصيدة إلى شكك عبد الحميد للعهد الذي أقسمه على حماية الدستور ، والحفاظة عليه ، بولايتكني بذلك ، إنما يتدد بعبد الحميد وبهجوه هو وأصحابه الذين شقهم الجليش ، ويقول لهم : إن المطامع الشخصية هي التي ساءت هؤلاء إلى حتوفهم ، وكم سقطت من أجل تلك المطامع رموس :

حسبت زمان سوء يخلد عمره فيمرح عات أو يتبه منافق
وفاتك أن الدهر يعطى ويتنى فيسلب والمغرور بالدهر واثق
ألا قاتل الله المطامع كم هوى بها من عل شيخ وضلّ مراهق (٢٦)

ليست العبرة بوضع الأنظمة والخطط والساتير؛ إنما العبرة في التطبيق . وفي مدى استجابة الشعوب للنظم الجديدة . ولكن المحتاج تطربه رؤية المال ، بوزيد من طربه أن يقال له : إن هذا المال معد لك ، فيبني الآمال العراض حتى يعتقد أن الأمر أصبح حقيقة . وهذا ما حدث في الدستور العثماني ؛ فقد كان الناس بحاجة إلى الحرية والمساواة والعدالة ، وبحاجة إلى ما يشبع نفوسهم وأجسامهم ؛ فعندما أعلن الدستور انبعثت هذه العواطف تهتف من أعماقها تحيي هذا المولود الحبيب الذي سيحقق لها ما تريده ، وقد شملت الفرحة كل فرد في أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، فكيف لا يشمل النواب الذين سيكونون حراساً لهذا الدستور . إن الفرح الواسع والأمل العريض المنحرج ربما للناس صوراً خيالية اعتقدوا بأنها هي الواقعة ؛ لأن أيام الطفيلان والاستبداد والسخرية وطولها أفقد الناس التمييز الذهني أو التوازن العقلي ، وكانت ثقلة الدستور ، وما أثير حوله من دعاية كافية لرسم للشعوب الخيال واقعاً ذهياً عذياً يفيض بالسعادة ويرفل بالهناءة ، وكأنهم يعيشون في جنات عدن التي وعد بها المتقون .

وهاهم نواب العراق يرون الإصلاح وشيكاً ، وهاهم يتصورون

العراق قطراً مزدهراً بالخصب والرخاء والزراعة ، في ظل العهد الجديد ،
عهد الحرية والمساواة والعدالة :

يخطب على علاء الدين في حفل تكريمي لتوذيعة قبل سفره إلى الأستانة فيقول :
« ..إننا - والثقة بعونه تعالى وتوفيقه - في عزم أكيد على محافظة حقوق القطر
العراق خاصة ، والممالك العثمانية عامة ، وبذل الجهد فيما يعود على صلاح
هذا الوطن العزيز الذي استحكمت فيه الرابطة بين أصناف جميع الرعية
كائناً من كان ، فإنهم - على اختلاف مذاهبهم ، وأديانهم ، وتشعب.
فرعهم ، وآرائهم - يرمون إلى غاية واحدة ، هي سلامة الوطن باستخلاصه
من حضيض التلف إلى أوج السعادة والشرف ، ولا يكتفي النائب بما ذهب إليه
من تفاؤل يرفع به العراق من الحضيض إلى الأوج ، وإنما يشرح الأعمال
التي يقوم بها فيقول : «علينا التوصل بكل وسيلة إلى ما يعود لسعادة الخطة
العراقية التي لها من عظيم الأهمية فوق ما يعلمه أهلها ، ونجهد كل الجهد في
حصول الأسباب الكامنة بترقي زراعتها وتجارتها وأمنيتها وانتظام إدارتها
من إعمارها وتسهيل طرقها والوسائط الثقيلة في أنهارها وداخلها وخارجها » (٢٧)
والرجل مخلص - كل الإخلاص - في قوله وصادق النية وهذا دليل واضح
على مدى تفاؤل الناس بالعهد المستورى الجديد ، ولكن هل فكر بكل
شيء قاله هذا النائب ، وهل له علم بمقدار الإصلاحات التي يجب أن تقوم
بها الدولة ، والمبالغ التي يجب أن تتوفر لإنجازها ؟ والإمبراطورية تركة
من فساد وانحطاط ولها مال في جميع المرافق ! ! إن ساعات انخيل حاوة ،
ولا تريد أن تهبط إلى الواقع ، ومتى اصطدمت به ردت قوية مثل اصطدامها ،
ولم يكن على علاء الدين وحده ، فهذا معروف الرصافي تذهله الفرصة فيرى
في المجلس النبأ الشمس التي تشرق لتبديد دياجير الظلمات الحالية ،
ويظن في إعلان الدستور إنذاراً : «والظلم ، وسريان الحق في مجراه
الطبيعي ، لأن المجلس كالسماء التي تظلل الشعوب العثمانية كلها ، ولأنه نادى ،

الحق والشورى والعدل ، ويظن ظهور الدستور في الدولة العثمانية بادرة
 أخير سوف تعم الشرق كله فيقول : **إني**
 يا شرق بشراك أبدى شمسك الفلكُ وزال عنك وعن آفاقك الخلك
 أضحي به القوم أحراراً قد اعتصموا **من** النجاة بحبل ليس يتبك
 ناديه القول عن أهليه مستمعٌ والحق متبع والأمر مشترك (٢٨)

هذه الفرحة ، وتلك السعادة ، والآمال العراض العذبة الجميلة التي
 عمّت النفوس كان من الصعب أن تترك بسهولة ، إن الخيال المنحج والآمال
 الواسعة التي رسمتها الأخيالة الجائعة صلمتها الحقيقة ، وكانت الصلابة
 قوية ، لذلك استحالت الفرحة إلى ألم دفين ومرارة لا تطاق لأن الشعوب
 أرادت المستحيل من الدستور الجليد فتصوروا أن إعلان الدستور - وحده -
 سوف يحل الأفكار إلى عسل ولبن ، فتغلو البلاد مزدهرة والنفوس متمدة
 متعلمة ، وسوف تنتشر المصانع والمعامل في طول البلاد وعرضها، وأن
 جميع الأوضاع الفاسدة ستصلح ، وفاتهم أهم مقوم وأساس كل إصلاح؛
 فاتهم ما تحتاجه هذه الإصلاحات من أموال ، ومن أيد فنية وخبرة طويلة ،
 بل فاتهم ما كان عليه القائمون على الانقلاب من أخلاق ، وأنهم لن يقبلوا
 ملائكة في ساعات معينة ، وأنهم بشر لهم مطاعمهم الخاصة ، ورغباتهم
 الفردية ، وقد عاشوا في عهد كله فساد وانحطاط ، ولا بد من أن يؤثر
 الفساد في نفوسهم وعقولهم وتصرفاتهم - إلا من عصم ربى - وهذا ما حدث
 في الدولة العثمانية عندما قامت جمعية الاتحاد والترقي بعملها وعزلت
 عبد الحميد ، فوجدت الخزينة قد أشرفت على الإفلاس ، وأجدبت الأراضي
 نتيجة لإهمال الرى المتوالى ، وانتشرت الأمراض لعدم وجود أطباء ،
 وعشعش الجهل لعدم الالتفات إلى العلم ، واختل النظام لحرمان الدولة

من أيد حازمة نظيفة أمينة ، ونفشت الفوضى (٢٩) . كل هذا مع عوامل كثيرة سيطرت على الدولة العثمانية والشعوب العثمانية ، جعل من المستحيل أن تم الإصلاحات في فترة قصيرة ، والدستور وحده لا فائدة منه إذا لم تعد له أسباب التقدم ، وما لم يكن الشعب نفسه مستعداً للسير في الحياة الدستورية وممارستها ، ولقد كان الصدى عميقاً في نفس الرصافي الشاعر النائب الذي ردّد أناشيد الغبطة والسرور بالأمس فقال اليوم :

شكاية قاب بالأمس نابض العرق إلى قائم الدستور والعدل والحق
أى شكاية أشد لإلاماً من قلب ينبض بالأمس والأحزان ! وما أشد وقع
الأم على غير استعداد له ! وما أصعب الانتقال من السرور إلى الحزن !
لذلك فهو لا يرى لغير الدستور والعدل والحق أى سلطان وبذلك يطلب
المستحيل في هذا العصر الذى ضاع فيه الدستور وأهين العدل وهدرت
كرامة الحق ، فيجأ شاكياً من كبد محترق قائلاً في تعجب غير مصدق
بما يراه :

فول أيها الدستور تسمع شاكياً بك اليوم يرجو أن يرى نهضة الشرق
لقد جئت من أفق الصواري طالعاً علينا طلوع الشمس من منتهى الأفق
فصادفت منا أمة قد تعشقت لقاءك حتى جاوزت مبلغ العشق
ولم تبد عتفاً حين جئت وإعما هتفتنا جميعاً بالوفاق وبالرفق
وظلنا نرجى منك للعرق راقعاً ولكن تراخى الأمر متسع الحرق
بك اليوم أشقانا الألى أنت مسعداً لديهم فيسا لله للمسعد المشقى

(٢٩) هناك كثير من الكتب التى تبحث في العصر العثماني التركي منها :

١ - The Caliphs, Last Heritage

وقد ألفه سيرمارك سايكس النائب في مجلس النواب البريطاني صاحب المباحثة المشهورة
من سياحة قام بها باحثاً فيه حياة الإسلام منذ تكوينه حتى العهد الذى ساج فيه . ومركز الخلافة
العثمانية . طبع في لندن سنة ١٩١٥ .

٢ - تركيا وقد ألفه Kirk Wood, Toynbee

طبع في لندن سنة ١٩٢٦ .

وبعد هذه الاستغاثة الواضحة بما حصل له في قوله (يا لله المسعد) يظهر
ما حاق بالشعب من جراء تحكم الاتحاديين في تأليف الوزارات حسبما
تشتهى مطامعهم وأغراضهم فيقول : هم الذين استأثروا بالخيرات ولم
يتركوا للأمة شيئاً عندما جعلوا الدستور الذي أرادته الأمة بكل قواها
أداة للرزق والإثراء وغدا آلة لمصالحهم على حساب الشعب :

تعد استأثروا بالحكم وارتزقوا به وسدوا على من حولهم طرق الرزق
كأننا لم شء فهم يحلوننا وكم مخضوا أوطاننا مخضمة الرزق
يوهم بأخزون الزبد من بعد مخضها ولم يتركوا للساكين سوى المذق (٣٠)
ويقف « على الشرق » وقفة الحائر في أمر العراق ؛ إذ أنه رأى إعلان
الدستور لم يغير شيئاً من حالة العراق العامة ، وكأن هذا الحدث الذي كان
مقدراً له أن يدر على العراق الخير الوفير لم ينله بشيء والعراق متأخر ،
وقد عبر عن حيرته بشعر غير واضح الهدف ولباً إلى اللف والدوران ولم
يقدر إلا أن يقول :

نفطت بمجتها الشعوب وأفصحت وأرى عراقى واجماً لا ينطق
هو كأن هذا الشرق سفر غرائب أضنى عليه الدارجون وعلقوا
خُتمت صحائفه وجثنا بعدها حتى كأننا فيه فصل ملحق
ماذا تغير والبلاد بأهلها بغداد بغداد وجلت جلتي (٣١)
أما « البناء » فقد كان أوضح قصداً وأفصح مراداً من « على الشرق » ؛

(٣٠) ديوان الرصافي ص ٣٨٩ و ٣٩٠ وله قصيدة لم تنشر في الديوان وقد نشرت في
جريدة الرقيب العدد ١٥٦ - ١ - سنة ١٣٢٧ مظهرها ؛
« أرى بغداد تسبح باللامى » قد أخبرني سيادة الأستاذ مصطفى علي : أن الرصافي لم يلحقها
بفي ديوانه عندما كان حياً . ولزهاوى قصيدة مظهرها ؛

لا تنتظر لصاية رشدا فيها تساوى الرأس والجنب
هاجم فيها جمعية الاتحاد والترك مهاجمة عنيفة ويدعو ل أنها نظمت بعد الحرب العالمية
الأولى : واجع الباب ص ٥٩ طبع بغداد ١٩٢٨ .
(٣١) حواطف وعواصف ص ١٩٨ بغداد ١٩٥٣ .

فند طالب بالإصلاح ، ولام نواب العراق الذين ذهبوا ليمثلوه في مجلس الأمة دون هراة فقال معتفاً :

فقولوا لنواب العراق أما لكم تغافلتمُ عنا بأعلى المراتب .
يشق علينا جنبكم وخمولكم ولو كنتمُ نسل الكرام الأطايب .
ويحثّ النواب على الدفاع عن حقوق الشعب والمطالبة بالإصلاح فيقول :
فليس انتخبناكم لإصلاح حالكم فنحن انتخبناكم لدفع النوائب .
فلا تجعلوا للصمت فيكم سجيّة فرب كلام فاق سيف المحارب .
ويضع حالة الأمة المتأخرة بين أيديهم وما حاق بها من انخراط حتى لا يبقى لهم علماً بقوله :

فما عذرکم في أمة قد تفهقرت ولم يبق فيها غير حيرة خائب (٢٢) وما زاد في هذا التشاؤم العنصرية التي انتهجها رجال الاتحاد والترقي ، وكان الألم مضاعفاً إذ وجدت الشعوب فراغاً في حياتها ، وكان هذا الفراغ واضحاً ؛ فقد كان يربطهم بالدولة الدافع الإسلامي ، ولم يكن هناك ما يركنون إليه بعد ذهاب هذا الرابط ، وفقدان شيء تعود عليه المرء يضاعف في نفسه الألم والحزن إذ اضمحلت الروح العثمانية التي كانت تتميز بالإسلامية ورعايتها للإسلام ، وأخذ تيار التريك الجديد يهدد العرب في لغتهم وقوميتهم وحياتهم .

لذلك اندفع العرب نحو جهة جديدة ليسلوا هذا الفراغ ، وليحافظوا على كياناتهم العربي ولغتهم ، فظهرت بوادر القومية ، ونمت ، وأخذ العرب ينظرون إلى أنفسهم عنصراً واحداً له مالا يترك من حق الحياة ، وله قوميتته كما أن للأتراك قوميتهم ، بل إن للعرب تاريخاً مجيداً حافلاً بالفخر لا يدانيه تاريخ الأتراك ، ولهذا طالبوا بالانفصال عن الأتراك ، وتأسيس دولة توحدهم ، وتجمع شتاتهم وتدافع عن مصالحهم المشتركة :

(٢٢) صلى بابل ٧٥ - ٢ سنة ١٩١١ . ويراجع ديوان الزهاوي ص ٨٠ وله تصديقة في الانبجاعات الأدبية يهاجم فيها قادة الاتحاد والترقي ص ٦٦ .

حروب الدولة وأثرها في الشعر

كان لحروب الدولة العثمانية أثر كبير في إثارة حماسة الشعراء فقد أبدعها الشعراء تأييداً مطلقاً يدفعهم الشعور الديني لأنهم كانوا يرون في حروب الدولة العثمانية دفاعاً عن الكيان العثماني الذي هم جزء منه ، ضد أطماع أوروبا (الكافرة) التي تريد القضاء على الدولة (المسلمة) وبذلك قضاء على العرب والشرق (١) فلا نعجب أن نرى لإجماع الشعراء على اللود عن الدولة العثمانية ضد أي عدوان عليها ، وقد كان من جراء هذا الشعور أن تطورت أساليب الشعر ، وتقدمت عما كانت عليه في القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، فقد أحس الشاعر أنه جزء من هذا الكيان العام ، وأن مصالحه الفردية غدت مهددة ، ورأى أنه مسئول عن كل شيء في هذه الدولة ، فقد هزته الحروب العامة ، كما هزته من قبل الحياة الدستورية ، ورأى شيئاً جديداً يسمى المساواة مع الأمم الأخرى ، فلم يعد يتمنى أن يقبل أذبال الوالي ، ويتوسل أن يقبل يديه (٢) كما تمنى التيمي ، كما أنه لم يسف في شعره ويهمل كرامته ليكون أداة تسلية وإضحاك للوالي (٣) ، بل فقد ظهرت على شعره سمة من الاعتزاز بالنفس وبالكرامة الإنسانية ، ورأينا الشعر يرتفع في موضوعه وأهدافه عن أهداف من سبقه ، ويتعد

(١) بلغ من تصبب أحد كتاب فرنسا أن اقترح - حلا لمساواة الإسلامية التي دوغتهم - القضاء على المسلمين ونقض قبر الرسول الكريم ونقل عظامه إلى متحف اللوفر بباريس (الانجاعات الوطنية ص ٢ من تاريخ الأستاذ الإلم ص ٨٠١ لمحمد رشيد رضا القاهرة ١٩٣١) .

(٢) ديوان التيمي ص ١٠٢ و ٤٠ .

(٣) الترياق الفاروق ص ٢٨٣ .

رويداً رويداً عن المبالغات ، وانسابت في الشعر روح في طياتها عاطفة الشعر وإحساس الشاعر ، ولم يكثر كثيراً برصف الألفاظ ، وانتقاء العبارات وبذل جهد كبير في المحسنات اللفظية ، وأخذ الشاعر يتناغم صادقاً عن أمته ووطنه .

وقد نعى الشعراء جميع مساوئ الدولة العثمانية ، وتناشوا آلام الماضي الذي هيمن على العراق حتى يؤازروا الدولة صفاً واحداً ملتفين حول راية واحدة هي راية المسلمين ، خوفاً من تفريق الشمل وبعمرة القوى ، يدفعهم الدافع الدنيى العميق ، والدافع الدائى الحساس ، وقد كانت كل الحروب التي يشنها الغرب ذات أثر واضح في عواطف المسلمين والعرب . ومن هذه الحروب التي ظهر أثرها في الشعر العراقي في هذه الفترة ، حرب اليونان ، سنة ١٨٩٧ ، وحرب طرابلس سنة ١٩١١ ، وحرب البلقان سنة ١٩١٢ ، والحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ (٤) .

حرب طرابلس :

وهي أول حرب تصادفنا في القرن العشرين (٥) أثرت في اتجاهات الشعر العربي عامة ، وفي العراق بصورة خاصة ، فقد شنت إيطاليا الحرب على طرابلس الغرب تريد امتلاكها واستعمارها ، ومضى كانت الشعوب ترضى

(٤) يراجع بشأن هذه الفترة Turkey مؤلفه Toynbee ص ٥٤ و ٥٨ و ٩٢ - ١٠٠ طبع لندن ١٩٢٦ والانتجاهات الوطنية ص ٣٩ عن مذكراتي في نصف قرن ٢ : ب ٢٨٨ وما بعدها ومذكرات العسكري عن الثورة العربية ١٨ - ٢٦ .

(٥) هاجمت إيطاليا طرابلس عندما سحبت الدولة العثمانية جل قواتها لمحاربة إمام اليمن والإديسي في عير قد دخلت إيطاليا طرابلس وقد حاولت الدولة العثمانية إعادة ما استولى عليه الباليان لذلك أعدت حملة اشترك فيها عزيز المصري القائد المعروف ، ومصطفى كمال باشا الذي أصبح زعيم تركيا الجديدة ، ولكن لعدم وجود وسائل نقل ، ولعدم تنظيم مسيرة هذه الحملة طال أمد الحرب ، وعند إعلان دول البلقان ، مثل الصرب وبلغاريا والجبل الأسود ، الحرب على الدولة العثمانية في تشرين الأول ١٩١٢ اضطرت الأخيرة إلى طلب الهدنة من إيطاليا إذ أن الخطر غدا يهددها في عقودارها وقد تم بعد الهدنة التنازل عن طرابلس لكن العرب لم يرضوا بالاستسلام فقد قاومت القوات الوطنية ثمانية عشر عاماً حتى نفذت جميع اللخائر والعتاد ولعل من الطريف أن نذكر أن من المطوعين كان ضابط نمساوى وآخر يريطاني .

بالاستعمار بدلاً عن الحرية ، والذل بدلاً عن الاستقلال ؟ لذلك أخذ أبناء البلاد بقيادة السنوسيين يدافعون عن أوطانهم بكل ما يملكون من قوة مضحين بالغالي والرخيص للمحافظة على الاستقلال ، بعد أن باءت الدولة بالفشل في المحافظة على بلدهم ، وقد كان يدفع الشاعر العراقي دواغين كثيرة لموازرة طرابلس ، منها حق الحياة والحرية ، وما له من صلات وثقى بينه وبين أبناء طرابلس من دين وعروبة وبغض الاستعمار ، فتارت كل هذه العوامل في نفوس الشعراء ، ودفعتهم نحو الانتصار لهذا القطر العربي المناضل في سبيل حريته وكرامته وحياته ، فثار على أوروبا المستعمرة ، وتطوع الكثيرون من جميع الأقطار - وخاصة أبناء مصر - (٦) لكي يدافعوا عن طرابلس الغرب ، ولكي يقفوا أمام المحتلين المعتدين ، وللدفاع عن الدين الإسلامي ، وقد ألقت كثير من اللجان لجمع التبرعات (٧) وإثارة الناس بإقامة الحفلات ، ومن تلك الحفلات حفلة النادي العربي في الآستانة (٨) التي ألقى فيها محمد حبيب العبيدي خطبة حث الناس فيها على مساعدة الإسلام في طرابلس ، ثم أعقبها بقصيدة تطفح بالحساسة الدينية والوطنية ، رأى أن الشرق مسئول كله عن النود عن حياض طرابلس ، لأن الغرب هو الذي يهاجم الشرق في مهاجمته لطرابلس ، ولا يقل الشرق قدرة وكفاية عن الغرب ، غير أن أبناء الشرق كسالى خاملون. ركنوا إلى الدعة والهدوء ، فلذلك اتخذ طريق شحذ هذه المهمة الخاملة ، والنفوس النائمة سبيلاً له فقال :

كيف ترضى يا شرق أن يكسب الغر ب فخاراً من دونك العلياء
كيف ترضى يا شرق أن يمشى الغر ب أماماً وأنت تمشي وراء

(٦) قال تحسين العسكري وقد كان من شباط الجيش العثماني الذين أرسلتهم الدولة لمحاربة الطليان : إن جمعية الحلال الأحمر أرشدتهم على الطريق المؤدى إلى طرابلس ثم زود بأربعة آلاف ليرة إنكليزية ذهبية إغاثة من الشعب المصري لمجاهدي طرابلس الغرب . وقال إن الحرب ضمت كثير من أبناء الأقطار المصرية من سوريين وعراقيين (مذكراتي عن الثورة العربية ص ١٤ ، ١٦) ..

(٧) الاجتماعات الوطنية ص ٣٥ لاحظ مصدره .

(٨) الأدب المصري ص ١٤٨ (مصر ١٩٢٣) وقد تجاوزت القصيدة الـ ٥٠٠ بيت ..

ويبرهن على ما للشرق من مكانة وقدرة بضرب الأمثلة من التاريخ
القديم الذى نشر فيه الشرق نوره ، وكان مهداً للمدنية والعلم ، وأن ربوعه
كانت منبع العرفان والرق والمفاخر فيقول :

من حمانا نور العلوم بدا فيسها وعت أقطارها الأضواء
نحن أحيينا مآلمات زمان السجھل بما قد أسس القدماء

ثم يحول الشاعر جولة طويلة في التاريخ الإسلامى والعربى مذكراً
الشعوب الإسلامية والعربية بما كانت عليه من عزة وكرامة وسؤدد ، ويخرج
بعدما من تلك الجولة إلى حرب الطليان ، واستعمارهم لقطر عربى مسلم ،
ويقف متسائلاً كيف برضى هؤلاء الأحرار أن يكونوا أذلة ، وكيف
يرضون للاستعمار الحكم والسيطرة وهم الذين ما عرفوا الاستعمار الذى هو
مرادف للموت فيقول :

أنسام الهوان دون المنايا إنما الموت والهوان سواء
ليس دار الهوان للحمر داراً إنما الحر داره الجوزاء
يا بنى الضباد إن للضباد حقاً ناطحت دون هضمه الآبساء
ليت شعرى ما ينقم القوم منا أم على أبصارهم هناك غشاء
ليت شعرى ما ينقم العمى منا رب قوم أرض ونحن سماء^(٩)

ولم يتخلف الكاظمى عن المشاركة في تأييد أحرار طرابلس - في وطنه
الثانى مصر - فقد هزه الاعتداء على طرابلس ، فنشر قصيدة في جريدة
المؤيد بحث فيها الشعب على إنجاد طرابلس بالأموال والأرواح والمسارة
في هذه النجدة إذ لم يعد الوقت كافياً للتأخير والتأجيل ، وقد صور الكاظمى
حال إخوانه العرب وهم صرعى على الثرى يتخبطون في دمائهم ، وقد
وقفت النسوة خائفات في العراء ، وليس لمن معين على هذه البلوى غير
الدموع الغزيرة والزفرات الحمر والوحدة والحزن والمهوم ، وقصيدة

(٩) الأدب المصرى ص ١٤٨ - ١٥٢ .

الكاظمى من روائع الأدب العربى ففيها طفحت العاطفة الكريمة المبدعة ،
وحدث من الشعور الإنسانى التبلل ، يرفعهما إلى مصاف الأدب العالمى .

وقى القصيدة وصف لطيف بلجن الطليان الذين اعتدلوا على الآمنين
والغزل ، فإنهم حين خافوا أن يحاربوا فى حومة الوضى رجال الحرب
هاجموا هؤلاء الغزل للانتقام من الأقرباء الذين دحروهم ، وأردوهم إلى
درك الهوان .

وفى هذه القصيدة يدافع الكاظمى عن الدين الإسلامى الذى يصفه
الغربيون بأنه دين متأخر دين الوحشية والعبودية ، ويضرب لهم مثلاً
ويتساءل فيقول :

أبعد هذا التناهى فى تعصبهم يعزى التعصب للإسلام والتهم

ويرد عليهم رداً مقنعاً بأنهم دعاة حرب لادعاة سلام ، وإلالمهاجموا
قطراً آمناً واحتلوا أراضيهم بالحديد والنار والدماء فيقول :

أين السلام الذى شادوا جوانبسه زعماً خلوباً فلا شادوا ولا زعموا
قالوا « السلام » فتمنا واقفين به أين السلام وأركان السلام دم
أبعد ما شنت الطليان غارتها وقام (مخلوعنا) بالسلم يتصم
قالوا الحياذ قلنا ليس ذا عجباً عن نصرة الحق كم حادوا وكم وجوا
ويصف لنا أخلاق الأوروبيين من نكث اليهود ، وحنث الإنجليز
والوعود ، واحتضام حقوق الشعوب الضعيفة فيقول :

إن عاهدوا نكثوا أو أقسموا حثوا أو عاملوا عبثوا بالحق واحتضموا

ولم يهاجم « المحسن » الدين المسيحى كما هاجم الغربيون الإسلام ، ولم
يعتد على قسمة دينه كما اعتدى الأوروبيون على الإسلام ، إنما قال : إن الدين
المسيحى هو الحق الذى يدعو إلى السلام والمحبة ، وأنه يضم
بين جوانحه التفضيلة والمعروف والبر والرحم ، وإنما الطليان المستعمرون
هم الذين ضربوا بتعاليم الدين المسيحى جانباً ، ولم يمتثلوا بتعاليمه السمحة

فاعتلوا على الشعوب الضعيفة الآمنة ، واقترفوا الآثام باسمه وهو برىء
مما يدعون .

وتبدو إنسانية الشاعر العربي بالدعاء لهم أن يأخذ الله بيدهم نحو الخير
والسداد لأنهم قوم جاهلون يفعلون ذلك جهلاً وحمقاً قال :

رحماك يا دين عيسى لا تؤاخذهم إذا جنوا باسمك الفياح أو ظلموا
أهلوك قد جهلوا الدين الذى اتبعوا فحملوك خطاياهم وما علموا
حاشاك أنت برىء من خلاقتهم ورب ذى كرم أتباعه تؤموا
وأنت يا أكل الأديان معنرة مما عزاه لك الباغون وأنهموا
أنت الفضيلة والمعروف أجمع أنت التقي والمهدي والبر والرحم (١٠)

وأبيات القصيدة جاوزت المائة وكلها على هذا النسق ، ولم يكف الكاظمي
بهذه القصيدة ؛ إنما عرج على ذكر طرابلس عندما نظم قصيدة أخرى في
حروب البلقان .

وإذا تصفحنا ديوان الرصافي نجد أنه قد نظم ثلاث (١١) قصائد حث فيها
المسلمين على الحرب والدفاع عن طرابلس ، وقد نظر الرصافي إلى هذه
الحرب نظرة أخرى لم يرها حرباً بين إيطاليا والدولة العثمانية للاستيلاء على
طرابلس ، إنما هي حرب الاستعمار الغربي الذى يريد أن يسيطر على الشرق ،
لكى يستغله ويعيث بمقتلرائه ، والاستعمار ضار ، ويبعد كل ما يقف أمام
مصلحته فيجب أن يحارب الاستعمار نفسه الممثل في إيطاليا الطامعة ، لذلك
كان اندفاع الرصافي رثماً في النود عن طرابلس ومثلاً حياً للحماس الدينى ،
ومع هذه الروح فقد ابتعد عن مدح رجال الدولة العثمانية في شعره ، وكأنى
به يلقى التبعة على هؤلاء الرجال الذين تخاذلوا عن نصرة طرابلس ، وتركوها
ضحية الاستعمار لذلك فقد صب كل شعره على الإشادة بالسنوسى ،
وشجعه بكل قواه لأنه كان وحده المصطفى بيران الحرب وبلاياها ، ويؤيد

(١٠) ديوان الكاظمي ج ١ دمشق ٩٩ - ١٠٩ ويلاحظ ص ١١٠ بصد قصيدة البلقان .

(١١) ديوان الرصافي ص ٤٧٠ و ٤٧٤ و ٤٨٤ .

رأى الرصافي في الاستعمار ضرارته ورغبته في السيطرة على الشرق ماحل
في مصر وتونس ، وكيف استباح الغربيون حمى هذه الأقطار المسلمة ،
لذلك فهو يخاطب أهل بنغازي والسنوسي مشيداً بشجاعتهم آملاً أن
يسير المسلمون جميعاً إلى نصرة طرابلس. ولكنه يعرف سلفاً أن آماله بعيدة
عن أن يحققها مسلمون ضعفاء متناحرون متأخرون ، فيشكو إلى الله ويقول
غناطياً السنوسي :

ومن مبلغ عنا السنوسي إنه بعد لهذا الصديق منه يد الزأب
فلما لئرجو أن يقود إلى الوغى طلائع من خيل ومن ليل نجب
فيحمي بلاد المسلمين من العدا وينهض كشافاً لهم غمة الخطب
فلان حشا الإسلام أصبح دامياً إلى الله يشكو قلبه شدة الكرب
فقم أيها الشيخ السنوسي مدركاً : جنود بني عثمان في الجبل الغربي
ومع ذلك فإن قلب الرصافي مملوء بالأمل والقوز ، وإنه يأمل أن يؤازر
المسلمون طرابلس في حربها ، وأن يفتكوا بالجموع المعتدية ، ويبعدوا جيوش
الاستعمار ، وليس من السهل على الغرب استعمار المسلمين ، وسوف
يرد الاستعمار خاسراً حسيماً ، لأن المستعمر كاذب خداع يقتصب دون
حق ، وسيطر بالباطل على أرض المسلمين ، فيلتفت الرصافي - ساخراً -
إلى هؤلاء فيقول لهم :

أيا زعماء الغرب هل من دلالة لديكم على غير الخديعة والكذب
تقولون إن العصر عصر تمدن أمن ذلكم قتل النفوس بلا ذنب
ألم تبصروا القتلى تجم دماهم على الأرض والجرحى يتنون في الحرب
أنى الحق أم في العلم ألا يسوءكم ويحجلكم شن الإغارة للغصب (١٢)

ويؤكد سخريته في قصيدة أخرى من التمدن الذي يدعيه الغرب ، وتكذبه
وقائعهم وأعمالهم العلوانية ، وما ينشرونه على الشعوب الآمنة من الولايات
والمصائب ، معدداً مصائب الشرق التي جاءت من الفرنسيين في تونس

ومراكش ، وما جتته يد الطليان في طرابلس ، وعبث الإنكليز بحقوق مصر واحتلالها فيقول :

يقولون إن العصر عصر تمدن فما باله أمسى عن الحق مزوراً
إلى الله أشكو في الوري جاهلية يعدون فيها من تمدنهم عصراً
أتنا بثوب العلم تمشى تبخراً إلى الخير ، لكن قد تأبطت الشرا
ودليل الرصافي واضح في قوله :

أقد ملك الإفرنج أرض مراكش . وقد ملكوا من قبلها تونس الخضراء
فجأنا الطليان من بعد ملكهم لكي يسلبونا من طرابلس الأمراء
وقالوا ألم تأت الفرنجة تونساً وهنئ جيوش الإنكليز أنت مصر (١٢)

وقد كانت حرب طرابلس - شأن كل الحروب في هذا العصر - سبباً عاطفياً هز المسلمين جميعاً ، ولم يتخلف عن مساعدتها شاعر ، فقد اشترك الجميع مخلصين في الدفاع عن حقوق طرابلس الغرب العربية المسلمة ، وكانت هذه القصائد صدى عميق الأثر عكس وعي الرأي العام في الشرق العربي المسلم ، إذ كانت هذه العواطف صادقة بعيدة عن الترفل والمدح والثناء ، فهم ذادوا بشعرهم عن طرابلس وسواها ، أملين بالثواب الآجل ، لا راغبين في الأجر العاجل من أمير أو سلطان ، فهم زاهدون في عطف الوالي ورضاء الحاكم ، ويسمو الشاعر بعواطفه الكريمة يدفعه دافعان : الدافع الديني العميق الذي يربطه بهؤلاء العرب الذين تطحنهم رحي الاستعمار بدون رحمة ، والدافع الإنساني الذي يرى أخاه الإنسان يفقد حريته واستقلاله ، غير أن الدافع الديني كان أمتن وأقوى من غيره من روابط الشعر بطرابلس . لذلك فقد أكثر الشعراء من النظم في هذا المضمار ، غير أن بعض الشعراء لم يكونوا واضحين القصد صريحين صراحة الرصافي ، فلم يكونوا يبنون القصد والغاية في شعرهم كالشيبني (محمد رضا) فقد تحدث بصورة عامة عن الحروب ، وعن الغريين دون أن يتطرق إلى

الحادث نفسه ، فالقصيدة بحذاءها لا تنطبق على حادثة طرابلس ، إنما هي تنطبق على كل الحروب التي يشنها الغريون ، ولولا ذكر (برقة) ووجود المقدمة الإيضاحية للقصيدة لما عرفنا أنها نظمت في حرب طرابلس ؛ فهي قصيدة شاعر عربي أثارته حروب الأجنبي على بلده ، فسقط منهم صرعى في سبيل الوطن ، فثار عندما رأى إخوانه العرب صرعى ، وهزته الروح العربية والنخوة القومية لتأييدهم ، والفخر بمجاهدهم وحروبهم فقال :

عرب على قسيات وجه وليدهم متبين عنوان طيب المولد
لا يطر-قون الماء شيب نميره وغدا نخاضة رائج أومغندي
وإذا الذئاب وردن ماء حرمت أسد الشرى غشيان ذاك المورد
وإذا اعتدى الباغي على أوطانهم بطشوا به وأروه عقي المعتدى
أوما أذاك يبرقة نبدأ التي رمت البلاد بمبرق وبمرعد(١٤)

وتطفح القصيدة بالتهديد والوعيد وتفيض بالآلم . أما أسلوبه الجزل فإنه يعيدك إلى العصور العربية ، عصور العناية بالسبك الجيد الرصين وعلى الرغم من أن أسلوب القصيدة جزل قوى ، فقد بدأت صرخات الآلم تن في ألبانها ، وقد تطرق الشببي إلى الموضوع الذي يتمشك به الغريون بأنهم أصحاب حضارة ومدنية ، وأنهم أصحاب التجديد والإبداع فيرد عليهم متهماً بقوله :

إنا دعوتنا العصر عصر تفهقر فليدع عصر تقدم وتجدد
ماذا يرجى من وراء حضارة عمى البصير بها وضل المهتدى
وجدت فأعلمت النفوس فضائلاً خلقت لها فكأنها لم توجد(١٥)

وهذه الروح العربية أثارها شاعر آخر هو على الشرقى ، وقصيدته تصلح أن تكون لأى موضوع عام في الحرب التي تثار بين العرب وبين أى فريق آخر من أعدائهم ، فلو حذفنا بيتين اثنين منها ضاع علينا المطلوب من القصيدة ،

(١٤) الديوان ص ١٩

(١٥) الديوان ص ٢٠

هذا إلى أنه ليس في القصيدة دعوة صريحة للقتال لمساعدة أهل طرابلس ، ولم يخص الشاعر الحادث الذي حاق بطرابلس إلا بخمسة أبيات ختم بها قصيدته ، شبه فيها روما بالكلبة ، ثم جعل الكلبة حيواناً ناطحاً له قرون فقال :

ماروما فلا استوى عرش روما فلت ذيلها وعجت نباحا
جنت عن نضال بكل قوى فأغارت على الزوايا اكتساحا
نطحت برقة وبرقة واحا ت من النخل ما عرفن التطاحا
أبني العرب لابراح عن الحر ب وإلا عن الفخار براحا (١٦)

وكان الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء أوضح أسلوباً وأسطع قصداً من الشيبى والشرق فقد تجلت في قصيدته روح العالم القائد الذي يشعر بالمسؤولية الملقاة على كاهله ، وتجلت روح إسلامية أصيلة عميقة تطالب بالكفاح والنضال والمساعدة السريعة للمسلمين ، وصور الحادث تصويراً يدفع كل مسلم إلى المشاركة العاجلة ، لما فيها من تأنيب واستفزاز ونداء لإغاثة الإسلام الذي صم المسلمون آذانهم عن سماعه فقال :

أيها المسلمون هبوا فليس ال موت إلا حياتكم بهوان
قد دهاكم ويل فماذا التهادى وأتاكم سيل فماذا التواني
جاءكم جارف من الغرب تيار ر يهد البنا وأس الباني
يستغيث الإسلام فيكم فيلقى عنه منكم تصامم الأذان
صارخاً فيكم فهل من سميع صرخات الإسلام والقرآن

ولا يكتفى كاشف الغطاء بهذا بل يخرج المسلمين لإحراجاً ليستثير همتهم وصمتهم ونحوتهم في سبيل مساعدة إخوانهم حيناً بمن بقوله :

إن يبيض الوجه سود إذا لم تغد حمراً من النجيع القاني
إن لبس الثياب خزي إذا لم تجعلوها لكم من الأكفان
إنكم والنساء - ما لم تلودوا عن حماها علوكم - سيان

ولا يختلف الشعراء في أن هذه الحرب القريية إنما هي لإبادة المسلمين في الشرق ، ولتهديم الدين وتقويض دعائمه في كل مكان ؛ لأنهم يرون الجامعة الإسلامية صخرة قوية تقف أمام مطامعهم وغاياتهم ، فما على الغرب إلا أن يحطم هذه العقبة ليتمكن من استعمار الشرق . وقد بدأ - في حرب طرابلس والحروب الأخرى التي شنها - هذا المطمع الاستعماري واضحاً :

أظهر الغرب ما أجن من الغد ر وأبدى كوامن الأصفهان
وأحاطت بالمسلمين علوج الـ بغى من كل جانب ومكانه
يتشكى (المراكشى) اعتصاباً وكشكواه يشتكى (العثماني)
وإذا ولولت (طرابلس) في الغرب ب أنها العويل من (إيران)

وقد بذل قصارى الجهد في التأثير في نفوس المسلمين، وأراد أن يحفزهم لقتال فتن في صوره ، ثم التجأ إلى الصور الإنسانية النبيلة ، ليهز هذه المشاعر صور الأيامي المشرذات ، والأطفال اليتامى الباكين حسرة على آبائهم فقال :

كم نساء أضحت أيامي تعاني من يتامى قييدها ما تعاني
تعقد الراحتين بالقلب مهما نثرت بالدموع عقد جمان
كم نكول تُشجى الحمايم بالنو ح فتبدى غرائب الألحان
ولكم أم واحد ذات رزق^١ ما لها عن عويلها من ثناء

ويسخر سخريه لازعة من مدعى السلام الذين يسلبون دماء الضعفاء على الأرض باسم المحافظة على السلام ، وباسم المدنية والحضارة فيقول :

أهكذا وضع السلام على الأر ض وهذا تمدن الإنسان
ولا بد من الإشارة هنا إلى ما احتوت عليه القصيدة من مسخط واضح المعالم على السلطان ، وعلى حاشية السلطان ؛ فقد قال صراحة : إن الملوك يجب أن يحمو البلاد لا أن يحمو عروشهم وتيجانهم بقوله :

إن عز الملوك في حفظها الأملاك لا في العروش والسياسات

وصور هؤلاء الحاشية الذين غرتهم نعمة العيش وركنوا إلى الدعة ناسين
للشعب الذي يعيش في الفقر والفاقة ؛ لأنهم غلف القلوب إلا عن ترفهم
وملذاتهم ، عى العيون إلا عن مصالحهم الشخصية ، وإلا فإن الضمير الحى
الذى يدفعهم إلى أن يدرعوا الضمير عن أوطانهم :

بصرع البغى أهله مستيراً وعلى نفسه سيجنى الجاني
غير أن الإسلام ضلوا عن الحق وناموا على غرور الأمانى
لنذرهم وقائع الدهر فيهم ناطقات لهم بكل لسان
فتعاموا عن العظات وهاموا بزخارف نعمة ولسان
بستلوا نعمة الغرب حتى راعهم منه نهشة الأفقوان
تركوا دينهم للناس سواهم رب ربح يكون من خسران
وإذا القلب كان أعمى عن الرشد فماذا تفيد العيان
وإذا ما اليدان لا تدفع الضيق فأولى بالقطع تلك اليدان
ليت من لا يكون كما حر دين في البرايا يكون ذا وجدان (١٧)

ولم تكن هذه الروح الدينية مختصة ببلدة عراقية دون بلدة ؛ ففي بغداد
وجدنا الرصافي والزاهاوى ، ومن النجف كاشف الغطاء ، وها هو ذا شاعر آخر
من الحلقة هو السيد عبدالمطلب الحلبي ، وقد كان الحلبي من الداعين إلى العروبة
والقومية العربية ، والداعين إلى الانفصال عن الدولة (١٨) ، ولكن الروح
للإسلامية العربية استأثرت بجانب كبير من قصيدة له نظمها في مناسبة
الاعتداء على طرابلس واحتلالها ، والقصيدة سفر من التاريخ مما لم نجده في
شعر غيره من الشعراء المعاصرين ؛ فقد تتبع نزول قوات إيطاليا في الساحل ،

(١٧) الأدب المصري ج ٢ ص ٨٨ .

(١٨) شعره المجلد ٢ ص ١٩٦ والقصيدة ص ٢٣٠ ولم يختلف البناء عن هذا المضمار
فظم في (ديوان البناء بغداد ١٩٣١ ص ٨) في أثر الحروب لاحظ الصفحات ٩٨ - ١١٥ و ١٢١

ع ١٢٥ و ١٢٩ و ١٤١ .

وذكر بعض وقائع هذه القوات مع السكان المناضلين ، ووقف موقفاً نبيلاً ،
 إذ رأى الصلح ذلة واستكانة ، وامتناً لكرامة الدولة العثمانية أولاً ، وللشعب
 العربي ثانياً ، لذلك خاطب « فكتور عمانوئيل » مباشرة وأخبره أن الشعب لن
 يرضى بهذا الصلح ، ولن يكون صلح ما دامت أقدامه تطل الديار العربية ،
 وقال صراحة بأن الصلح عار لحق بالإسلام والمسلمين ، ويجب أن يمحى ،
 ورجا السلطان العثماني الذي عقد الصلح برفض هذا الصلح الذي جلب العار
 على الأوطان ، واستئناف القتال لتطهير أرض العرب من الاستعمار ، والقصيدة
 طويلة حوت ضروباً متفرعة من الأغراض العامة ، لكنها امتازت بشيء بارز
 سيطر عليها ، هو الروح العربية والافتخار بالعرب ، وبالقومية العربية فقال :

أجهلهم بأننا - مذ خلقنا - عربٌ ليس يتزل الضيم فينا
 ولنا نبعة من العز يأبى سودها أن يلين للغامزينا
 قد قفونا آباءنا بالمعالى وإليها أبناءنا تقضيئنا
 نحن قوم إذا الوغى ضررستنا لم نبدل بشلة البأس لينا

ويزهو والفخر يملأ أعطافه بقوميته وعرويته ؛ فيمدح العرب ، ويعدد
 شمائلهم الكريمة ، وفضائلهم السامية ، وأخلاقهم النبيلة ، ومحاربتهم
 للأعداء الذين يريدون أن يذلّوهم ، ويستعبلوهم ، والعرب لا يرضون
 الذل ، وهم أبطال كرماء مغاوير ، فيهم من الصفات الإنسانية الكريمة
 ما تجعل العربي يفخر بها وبهم . وبعد ذلك يؤله ما أنزل الطليان بهم فقد قتلوا
 الأطفال ، وذبحوا النسوة دون رحمة ، أو أن تردهم الإنسانية عندما أبادوا
 حتى الجنين في بطن أمه ، ويعدمهم باليوم الذي سيأخذون حقهم كاملاً من
 هؤلاء المستعمرين بقوله :

كم لنا بالواحات عندهم ثار عليها الضبب دماً قد بكينا
 تركوها مجازراً قد بكها أعين الكائنات دمعاً هتونا
 كم نساء صبرا بها قتلوها وأبادوا طفلاً لها وجنينها
 ويتهدد الملك « فكتور عمانوئيل » على ما اقترفت يده ، وجنت جنوده

في الأرض العربية بأن هذا الدين يجب أن يؤخذ بالجلالة عن أرض إفريقيا
لأن إفريقيا لأهلها ، وليست للمستعمر فقال :

قل لعمانوييل لا صلح حتى ترجعوا عن بلادنا خامسينا
قل لعمانوييل لا صلح حتى تدعنا تحت أمرنا طائعيننا
قل لعمانوييل لا صلح حتى تقتضيك بالمرهفات الديونا
قل لعمانوييل لا صلح حتى من دماكم ظما لقنا يرتونا
قل لعمانوييل لا صلح حتى تصبحوا عن إفريقيا مختلينا

هذا التأكيد الخطابي في الشطر الأول يدل دلالة واضحة على عزم الشاعر
— عن رغبة صادقة — على القتال لتسل العار الذي لحق بالمسلمين ، ولم يملك
نفسه حتى ينادى بأعلى صوته :

يا رسول للمسلمين تحمل صرخة تملأ الوجود رنيننا
وتعمد بطحاء مكة واهتف بيني فاطم ركيناً ركيننا
ويجز في قلبه الرقيق ذى المشاعر المرفقة ، هجود العرب والمسلمين
فيصرخ بهم :

فالحرارك الحراك يا فتة الله إلى الحرب لا السكون السكونا
ولما كان الصلح عاراً وأن السلطان العثماني قد قبله مضطراً مكرهاً ؛
فجاء وفي أثره الهوان لم يصدق هذا القول ، فأخذ يتساءل عن حقيقة هذا
الأمر :

أبلغا عنى الخليفة قولاً غشه في المقال كان سميننا
أيجداً بالصلح ترضى اقتساراً هل كذا شأن إمرة المسلميننا
كيف ترضى بالصلح والصلح عار ذلك ياباه سيد المرسليننا
وكانت للشاعر جرأة لم نجد لها إلا لدى قليل من شعراء هذا العصر ،
ودافع هذه الجرأة الإخلاص والحب والضاني في سبيل الأمة والشعب ، وإلا
لما كان الشاعر بقادر أن يقول (هل كذا شأن إمرة المسلميننا) ، والشاعر موزع

العاطفة الصادقة تارة بين العرب ، وطوراً بين المسلمين ؛ فقد رأى الذين تربطهم روابط الدين والقربى يستعمرون . ولا بد من الإشارة هنا بأن « الحلى » من الشعراء الذين جددوا كثيراً في أسلوب الشعر وأخرجوه من قيود القرن التاسع عشر ، متخلصاً من جميع الاستعارات الجاهلية ، والصيغ المتكسدة التي كان يستعملها شعراء القرن التاسع عشر ؛ فقد اعتنى بالمعاني أكثر من عنايته بالألفاظ في قصيدته هذه (١٩) .

حرب البلقان :

والحرب الثانية التي هزت مشاعر الشعراء الإسلامية كانت حرب البلقان ؛ ففي عام ١٩١٢ عم الاضطراب البلقان ، وطالبت بلغاريا والصرب والجبل الأسود بالاستقلال الإدارى عن الدولة العثمانية وكان عزيزاً على الدولة ، وعلى أبناء الإمبراطورية أن تنسلخ منها بعض أجزائها ، ومعنى هذا ضعف في كيان الإمبراطورية الإسلامية . وزاد الطين بلة أن تقف اليونان مطالبة بجزر الأرخبيل ، وبرغم التسويات السلمية التي أراحتها للدولة العثمانية ، فقد بادت بالفشل ؛ فالشعوب بدأت تحس بأن حريتها واستقلالها آثمن من أية تسوية ، فأعلنت الحرب ، وعقد مؤتمر لندن لتسوية هذه المشكلة خوفاً من جر البلاد إلى حرب عالمية فيضطر المؤتمر العثماني إلى التخلي عن أدنة والأرخبيل وجزره ، لكن ما كادت الوزارة توافق على هذا حتى ثار حزب الاتحاد والترقى عليها ، وأسقط الوزارة واستأنف القتال (٢٠) ، وقد كسبت الحكومة العثمانية بادية الأمر نصراً على هذه الدول ، فعمّ الفرح والسرور جميع سكان البلاد الإسلامية لأنهم شاعروا بأن دول الغرب وراء هذه المطالب تريد أن يوهن من قوى دولتهم ، بيد أن هذا النصر بدأ يتحول إلى خسارة فتتقهقر الجيوش العثمانية ، وتسقط أدنة ثم أخذت جيوش البلقان تقدم نحو الأستانة عاصمة الدولة العثمانية ، وفي الطريق ترتكب جرائم انتقامية من المسلمين ، مما يزيد في الأسى والحسرة عليهم (٢١) .

(١٩) يمكن ملاحظة قصيدة يقر الشيبى في شعراء النثرى ج ١ ص ٤٣٠ وقصيدة عبد العزيز

الجواهري في الأدب المصري ج ٢ ص ١٧١ و ١٧٢ .

(٢٠) مذكراتى في نصف قرن ٢ - ب ٢٨٨ وما بعدها .

(٢١) التجمعات الوطنية ص ٣٩ و ٤٠ . يلاحظ المصادر .

وقد واكب الرصافي هذا الحادث منذ بدايته عندما أراد السلطان رشاد أن يهدي الخواطر بزيارته إلى مقلونيا وبلاد الألبان ، راجياً أن تستقر الأمور العامة ، وحسب الرصافي أن زيارة السلطان رشاد تكفي لكي ينسى للشعب مطالبه ، لذلك خاطب حكومات البلقان قائلاً :

قل للحكومات في البلقان هل علقت آمالكم من مواعيد إنجاز
 إن الذي تضمرون اليوم من طمع أمسى لأشعب يعزوه مثله العازي
 لم تعرفوا مد لمستم عرق نخوتنا إذ قد لمستم بكف ذات قفاز
 إننا لنعرف لغزاً في سياستكم وما السياسة إلا بيت ألغاز

ووصف زيارة السلطان بأنها زيارة عفو وإحسان ، لأن العفو أقرب للتقوى وإلى جلب القلوب المتنافرة . وقد كان الرصافي حريصاً كل الحرص على الوحدة العثمانية وقوتها مهما تباينت هذه الأقوام والأمم التي يحكمها ، فقال :

يأبها الملك السامي بحكمته والمبدل الناس من ذل بإعزاز
 قد عي في وصف ما أوتيت من حكم كلا كلامي لإطناب وإيجاز
 غزوت غزو سلام دون غايته غزو الحروب فأنت الفاتح الغازي
 ملكت بالعفو والإحسان أفئدة كانت إلى السيف فيها بعض إعواز
 وأنت لو شئت لإرهاباً لجنتهم بصرام لنواصي القوم جزاز
 لكنما جنتهم بالعفو تأخذهم والعفو أفضل ما يجزى به الجازي
 قاعمد سيوفك إن العفو منصلت واهناً بشعب محب غير منحاز
 بالترك بالروم بالألبان قاطبة بالأرمنيين بالبلغار باللاز
 أما بنو العرب فالإخلاص يرفعهم إلى مقام على الأقوام ممتاز (٢٢)

وعندما يستعد الجانيان للحرب ينظم الرصافي قصيدة يهدد فيها الصرب والبلغار ، ويهجوهم هجاء مرأ لأنه لا يراهم أهلاً للقتال ، وأن جيش

المسلمين سوف يبدد شملهم ويمرر قواهم . وبعد ذلك يمتدح الجيش العثماني ،
وأنة جيشٌ خلق للقتال والنضال ، وجبل على البطولة والقداء ، ويهجو
الصرب والبلغار فيقول :

يا علوج الصرب والبلد خمار أولاد الزواني
لم يكن إيمانكم بالـ حـرب غير المهنيان
إنما الحرب لدينا من تمام الحيوان
ودعوا الحرب فليس الـ حرب من شأن الجبان
وترزوا يا غنائـ ث بأزياء الغواني (٢٣)

ثم يتوعدهم بالذلة والانكسار والخسران في الحرب ، وليست هذه
القصيدة من عيون الشعر العربي ؛ فلم يأت الرصافي بشيء جديد في هجائه
يخلد هذا المهجاء سوى الكلمات القاسية اللاذعة التي لا تليق به . ولكن الرصافي
يسف دائماً في هجائه ، ويتزل إلى مستوى لا يتناسب وما عرف عن شعره
من رصانة وقوة سبك وأسلوب ضخم ، ويبدو هذا واضحاً عندما تتردد
انكسارات الجيش التركي ، ويصاب الرصافي بهزة عنيفة من خيبة الأمل
فينظم قصيدتين يندب فيهما ما ضاع من الدولة العثمانية من أجزاء فيعود
إلى أسلوبه المحكم الرصين ، ويجمع شتات ذهنه ، وكأنني بالحزن يسبغ عليه
وقاراً وهيبة ؛ ففي القصيدة التي نظمها بعد هزيمة (لولابوغاز) وقد كان
القائد ناظم باشا (٢٤) بصرف أمور الجيش إثر الهم العميق والحزن الدفين ؛
فقد خسر الجيش . وخسارة الجيش كانت من خيانة القائد نفسه ، لذلك كان
الألم يصرخ في نفسه عندما أقسم :

تالله لم ينكسر في الحرب عسكرنا من أجل قلته أو من جبانته
وكيف وهو تفوق الطيس كثرته وتستعبر الرواسي من رزائنه (٢٥)

(٢٣) الديوان ٤٨٧ .

(٢٤) قتله الاتحاديون في الأستانة .

(٢٥) الطيس الشيء الكثير من رمل وتراب . أراد الشاعر التكثير .

لكن قائده ما كان يمانه ولا يبالي بأمر من معانته (٢٦)
 حتى لقد نفذت في الحرب عيسته بحيث لم يبق سهم من كنانته
 كان الرصاص شديداً التفاوض والأمل في انتصار الجيش ورد الأعداء إلى
 دورهم ، وأنه سوف يكسب فخراً ونصراً وطنياً ، ولكنه انكسر فجاءنا
 بتعليق جميل فقال :

فظل يرسف في النيران مرتبكاً مستغرقاً كل جهد من ممانته
 حتى غدا جله للنار مأكلة وما ترحح شيراً عن مكانته
 ولا استكان هول الحرب من فرق بل كان يفرق من هول استكانته
 فخاص عمر المنايا صابراً وأبي على القرار انغماراً في مهانته
 ليس القرار لجند المسلمين ألا إن القرار لكفر في ديانته
 وكيف يغلب جيش كان قائده يحضه يمحوش من خيائنه
 فالجيش تلتهم النيران أنفسه وقائد الجيش لاه في مجانته
 أقام في القصف والأجناد طالوية معاقراً بهناء بنت حانته (٢٧)

وتبدو آثار اليأس والألم الجريح في القصيدة الثانية ؛ فقد استولى البلغار
 على أدرنة فأبدى التوجع والاستغاثة ، إذ لم يجد غير السلوى والعزاء في بعث
 الأمل في نفسه ، ولكن هذا الأمل كان مظهراً لحسرة تفيض باللوعة وإلا
 لما ودعها وداعاً يائساً ، وودع الجامع الذي لن يرتفع لصوت المؤذن فيه
 نداء ولو كان له بعض الأمل في عودة أدرنة لما رثاها للنبي وأصحاب النبي
 فقال :

أدرنة مهلاً فإن الظبي سترعى لك العهد والموتق
 وداعاً لمنزلك زاهي الربا وداعاً إلى الملتقى



(٢٦) يمان أن إذا تحمل مشورتهم وقوتهم ، والمائة : المعونة المساعدة .

(٢٧) الديوان ٤٨٠ .

عزاء لمسجدك الجامع أفارق محرابه المنبرا
وهل في مصلاه من راح يحجب المؤذن إن كبرا
فيالسقوطك من قاجج به فجع الدهر أم القري
وقبر النبوة في يثربا ومثوى ضجيعه مثوى التقى
ومن في البقيع ومن في قبا ومن شهدوا الفتح والخذقا

ويحيل الألم الشاعر إلى حكيم يردد الحكمة ، فيبصر حال المسلمين المتأخرة
عن ركب الحضارة ، والعدو يوالى الضربات وهم لا يحركون ساكناً . إنه
شاعر يريد لقومه ، ويريد لأبناء دينه ويريد للشرق كله أن يثور على الاستعباد
وعلى الهوان ، ولكنه لا يجد من يلي هذا النداء ، ومن يبلغه الأمانى ؛
فالقوم متخاذلون يفعل الغرب بهم ما يريد ؛ فهو يصب عليهم الكروب ،
ويجر عليهم الآلام والحسرات . كل ذلك لأنهم متفرقون يعث بهم الجهل
فهييب بهم قائلا :

لقد أن يا قوم ترك الوفى وترك الشقاق وترك الدد (٢٨)
إلى كم نكابد هذا العنا ونخط في جهلنا الأسود
وبالعلم من قبل نلنا المي وفزنا من العيش بالأرغد
ولكنما العلم قد غربا فلا عيش إلا إذا شرقا
فهبوا إليه هبوب الصبا عسى أن يسحّ ويفلودقا (٢٩)

ومع ما حاق بالدولة من تأخر واضمحلال ، فإن الشعراء كانوا يأملون
أن ترفع الدولة العثمانية من مستوى الشعب ، وتنظر إليه بما يستحق من عناية
ورعاية خاصة ، والأوروبيون يهددونهم في أملاكهم ، بل يهددونهم في
العاصمة نفسها ، وكانوا يرون ما يصيب الدولة جزءاً مما يصيب الشرق
أجمعه ، ولذلك كان الشعراء يثيرون النخوة الإسلامية والشرقية ، ويحاولون
استنهاض الهمم الراكدة في نفوس الضعاف ؛ لذلك وجدنا الروح الشرقية

(٢٨) الدد : الحب اللبث .

(٢٩) الديوان ص ٤٧٩ .

تسير مع الروح الإسلامية ، أو الروح القومية العربية في كثير من قريض شعراء هذه الفترة .

وقد كانت الحروب المتتالية التي تشن على الدولة سبباً قوياً وباعثاً من بواعث استفزازهم إلى طلب النجدة لإنقاذ الدولة من التأخر والانحطاط الذي يهدد كيانها ؛ فقال الكاظمي معاتباً أولى الأمر في الدولة العثمانية خلال حروب البلقان :

حماة العلا ! ضاق الزمان بحلمكم ألا غضبةً تأقى بعذر الخوالم
سكنم ففر الطامعين سكوتمكم ألا كلمة من ذى هزاهز كالم
وداويتم بالحلم داء غرورهم ورب جروح أفسدت بالمراهم
تقوم على طيب الورود قلوبكم وعند الظبي رى القلوب الخوالم (٢٠)

أراد الشاعر أن يثير الحمية في نفوس العرب ، والنخوة الإسلامية في قلوب المسلمين بذكر ما حاق بالنساء من انتهاك لحرمتهم ، ووصفهن يستصرخن - ولامن مغيث لمن - من سطو المعتدين على حرمتهم فيقول :

ومستصرخات بالحلم تستفزكم لصون الحمى من عاديات المظالم
مخافة أن يسطو على حرمتها وهتك الهواذى دون هتك المحارم
إذا ما تشكت قلت في الخلد نائح يشاركه في الدوح نوح الحمام

أراد الكاظمي أن يثير النخوة الإسلامية في هذه النفوس النائمة ؛ نفوس أبناء دينه وقومه ، وهددهم بما سوف يكون مصيرهم من استعباد ، وما سيكون عليه مصير النسوة وهن بناتهم وزوجاتهم وأخواتهم . والكاظمي طويل النفس جال جولة تتناسب وما عرف عنه من الإكثار ذهب فيه إلى حال العالم العربي كله . وقد كان الشاعر مخلصاً كل الإخلاص في روحه الإسلامية ، والخوف الشديد من الفريقين وما يحملون معهم ، وقد كان شديد الرغبة في أن يرى الشرق كله زاهراً زاهى المعالم لاسيما وقد رأى

الحكومات التي انفصلت عن جسم الدولة العثمانية قد ازدهرت ، وكونت حكومات لا تقل عمراً ونهضة وتقلماً عن الأمم الأوروبية التي تقدمتها في الاستقلال ؛ فكيف لا تتقدم الدولة التي انفصلت عنها هذه الدول !! وصور لنا شعر الكاظمي الرائع في أسلوبه المخلص في النداء هذا التأخر الذي هيمن على الشرق . فما على الشرق إلا أن يهب من هذا الرقاد والسكون :

حماة العلا ! طال السكوت فعاذر إذا انطلقت أسيافكم في الجماجم
خصومكم ضلوا وطاشت سهامهم وما وسموا إلا بشر المياهم
إلى أن يقول :

أرى دول البلقان طالت أنوفها على دولة آثارها في المخاطم
يلعناتها جاءت لثل عروشها ودك مباني عزها والمعالم

وكل قصيدة من قصائد الكاظمي تصلح لأن تكون سجلاً حافلاً بالقديم والحديث من مصر ، فهو يخاطب آل عثمان ، وكيف أصبحت رعاياهم ملوك بنى قبلوا لهم ظهر المجن ، ويمتدح أعمال آل عثمان ، وكيف شادوا المجد بالقتال ، وهدموا تيجان المتجبرين الفاشمين ، كل ذلك لأن أعمالهم كانت جهاداً في سبيل الله والحق والكارم ، ويخلص من ذلك إلى نداء عثمان الذي أصبح ملكه بيد المغيرين ، ويريده أن يتيقظ من رقاده ليرد الباغيين والظالمين من دول البلقان . والكاظمي يعكس لنا ما كان عصره يفكر فيه . فيجب ألا ننهم الكاظمي بأنه كان لا يريد الحرية والاستقلال ؛ وإنما كان يخشى على قومه وعلى أمته من أن تستولى عليها جموع الكافرين .

ويعتبر خصوم الدولة العثمانية خصوم المسلمين جميعاً بقوله :

حماة حمى الإسلام إن خصومكم خصوم جميع المسلمين الأكارم
فلم يعدهم صدق الأحاديث عنكم يلفك وشايات العسدى والنمام
ويخاطب دول البلقان أن ترعوى عن غيها وغلرها من أن تشنها حرباً
صلبية ضد المسلمين فقال :

أفي أي حق غدركم* يجواركم وفي أي دين حريككم للمسلم
 جنايته إحسانه بلجواره وأثامه رعى البغاة الأوثام
 فما أنتم إلا جناة تعودوا ركوب الدنيا وار تكاب الجرائم
 تخيفوننا بالحرب ، والحرب عندنا لمن ألف العدوان أشهى المطاعم
 ويتهددهم قائلاً :

صلبية تدعونها ، ونعددها هلاية والسيف أحمل حاكم
 وسوف ترى سود القلائس ما الذي ستلقاه من كرات يبيض العمام
 ويخاطب أبناء الشرق الذين عليهم الموعول في الحروب ويحذرهم بقوله :

بني الشرق هبوا إن في الغرب هبة تعد عليكم كل بار وحاطم
 تسير إلى إيمانكم بنلائل وتمشى إلى أفواهكم بكمام
 أعدت عليكم منكم كل غافل وعدت لها أوطانكم غم غام
 فهل وثبة ضارية بعد وثبة تقاوم دون المجد كل مقاوم
 أيا أمم البلقان فيشوا لرشدكم ولا تراموا في حضون الجواحم (٣١)

وقد اتخذ خيرى الهنداوى صورة جديدة في تأنيب العثمانيين ؛ فقد تصور
 حادثة مجين كانا يعيشان في سعادة وهناءة ، وقد خيم الحب عليهما ، وسقاها
 من كتوم اللقاء مترعة في نشوة وجلل ؛ إذ هاجمت قوات البلغار المعتدية
 الدولة التركية فما كان من الشاب (نجيب) إلا أن يلجى داعى الجهاد للود
 عن حمى دولته ، والدفاع عنها ، وفي سلايك يلاقى مصيره المحتوم ، فتتكب
 عليه حبيته (أسماء) ملهه جزعة ؛ فقد اختطف العدو حبيها الغالى ، وأحاطوا
 بها من كل جانب ، وليس لها من معين غير حشرات حرار ، ودموع
 غزار ، والأسر الذى يوصلها ذليلة حسرى إلى أمير جيش الأعداء ،
 فتصرخ الفتاة مستغيثة تطلب النجدة والعون . فيجيب الهنداوى الحسنة
 بقوله :

يا هذه كفى الدعاء قومنا لو تعلمين عن الدعاء نيام
ما القوم إلا سحب صيف أرعدت ثم انجلت بالريح وهى جهام
لا تستغنى ليس معتصم بنا كلا ولا فينا بعد همام
ماتت عواطفنا بموت رجالنا فجميعنا بماتها أيتام (٢٢)

هذا هو العهد العثماني وأثره في الشعر العراقي حتى نشوب الحرب العظمى
الأولى ، وقد رأينا ما كان عليه العراقي من تأخر شامل في جميع نواحي حياته
الاقتصادية والسياسية ، وبرغم أن الدستور أحيى موات الآمال في نفوس
العراقيين ، إلا أنهم لم يروا ظلاً للإصلاح الذى انتظروه طويلاً ، فقد تعذر
الإصلاح ، وبقي الدستور حبراً على ورق ، وما فائدة الدستور - وإن ضم
خير المواد التى تعود على أبناء الشعب بالسعادة - إذا لم تخرج هذه المواد
إلى حيز العمل .

لم يكن في طاقة الدولة القيام بالإصلاحات المنشودة لظروف أحاطت
بالاتحاديين أنفسهم ، ولم تكن هناك أسس يتفق عليها الحكام ، لذلك ضاعت
الدولة بأجمعها .

وقد كان الشعراء يؤازرون الدولة ، ويسرون في ركايبها عندما كان الشعور
الإسلامي هو المسيطر ، والخوف من الاستعمار الأجنبي يرعب المسلمين ،
ولكن هذا الشعور ضعف عندما نادى الاتحاديون بالطورانية .

وقد أرجأت البحث في الحرب العالمية إلى فصل قائم بذاته ، لأنها اشتملت
على معارك وأحداث متنوعة ، وقد كان لأثر الحرب العظمى نصيب كبير
في حياة العراق السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

ولابد من الإشارة هنا بأن العثور على شعر هذه الفترة كان صعباً ، ولم
يتسن لى العثور على أكثر ما قيل فيه لأسباب منها :

١ - زوال العهد الذى نظم فيه هذا الشعر ، وحلول عهد آخر مناقض له ؛
هو العهد الذى حكم فيه الإنكليز وكانوا أعداء للأثراك .

٢ - إن النظم في بعض المناسبات ، أو في بعض فترات من العمر تغير رأى الشاعر في المناسبة وفي شعر الشباب ، لذلك ألفت عدد من الشعراء هذا الشعر لتقدمهم في معارج الحياة الاجتماعية ، والفوز بالمكانة السياسية التي لا تتلاءم مع ما نظموه .

٣ - أهمل بعض الشعراء تلوين الشعر ، والإهمال طبيعة في كثير من الشعراء . فضاغ ب نتیجه الإهمال الشيء الكثير . ومع كل ذلك فالشيء الباقي يعد قليلاً وما نشر في الجرائد يعطى فكرة واضحة عن هذا العصر وإن لم يعط فكرة عن أجواء بعض الشعراء أنفسهم . ونحن نؤرخ العصر ونعنى به أكثر من عنايتنا بالأفراد .

أثر الحرب العظمى الأولى

- ١ - أهم معارك الحرب العظمى
- ٢ - معارك المراق
- ٣ - الاحتلال البريطاني
- ٤ - الحرب والمسلم

أهم معارك الحرب العظمى

كان للحرب العظمى أثر ظاهر في حياة العراق ؛ فقد غيرت مجرى حياته السياسية والاجتماعية ، فقد دبت فيه حياة جديدة أيقظته من سباته العميق الذي كان يعيش فيه في عهد الدولة العثمانية ، إذ هزت الحرب بمجاداتها وأجواثها العراقيين هزاً عنيفاً ، واستيقظت الأذهان على صيحات القومية ، وشعارات الوطنية ، ورغبات الشعب في الحرية ، والاستقلال ، فأخذ بعض الشعراء يفكرون تفكيراً جديداً يخالف التفكير الإسلامي الذي ساد العراق طويلاً ، والذي كانت أهم أسسه الجامعة الإسلامية ، فقد بدأت المطالبة بالكيان الذاتي ، والحكم المنفصل عن الدولة الحاكمة ، وأهم حافز دعاهم إلى ذلك ، هو الاحتلال البريطاني المباشر ، وتقسيم البلاد العربية إلى أجزاء متباعدة ، وشدد هذه الرغبة في النفوس رؤية الجنود البريطانيين والهنود يحكمون بلادهم حكماً مباشراً ، وغدت قضاياهم تدار من المنسوب السامي ، والحكام السياسيين الذين لا تربطهم صلة بالعراقيين غير صلة القوة والاستعمار ، والقوانين التي فرضتها قوات الاحتلال^(١) ، والتشدد في تطبيق نصوصها بوساطة قوات الشرطة المحلية التي أطلقت عليها لفظ (الشبانة) ^(٢) ولو قورن هذا العهد بالعهد العثماني فلن يجد العراقي مظاهر الاحتلال المادية التي يراها اليوم ؛ فقد كانت قوات الدرك محلية ، وكان بعض ضباط الجيش من أبناء

(١) لاحظ بشأن نهاية القوات المحتلة الأولى بالجيش والشرطة

Loyalties Mesopotamia by A. T. Wilson, p. 66 London, 1936 .

بقيت الإدارة حتى تشرين الثاني سنة ١٩٢٠ عسكرية على الرغم من تسميتها بالإدارة المدنية فقد فرضت من قبل السلطات العسكرية لظروف الحرب .

(٢) الشبانة : كلمة فارسية معناها حراس الليل .

العراق ، ولم تكن لمظاهر الحكم العثماني غير وجود حفنة من الموظفين الذين يوفدون من الآستانة ، تربطهم مع الشعب رابطة الدين ، والجوار والتأريخ ، مع أن الوالي والقائد وبقية الموظفين كانوا يعينون من الآستانة ، إلا أنهم لم يكونوا دائماً من دم تركي ، وقد شارك بعض العرب من السوريين ، وبعض الأكراد في مسئولية الحكم في إدارة إقليم العراق ، يضاف إلى ذلك أن هناك طبقة من الموظفين العرب ، كانوا قد تلقوا دروسهم في المدارس التركية جنبا إلى جنب مع الأتراك ، وكانوا يرسلون معاً إلى ألمانيا للدراسة الأركان ، فلم يكن التمييز واضحاً ، وغالباً ما حدث التزاوج بينهم . وعندما اندلعت الحرب كان العراقيون يحاربون في صفوف الأتراك في كثير من ساحات المعارك ، بينما كان الإنكليز يختلفون اختلافاً ظاهراً ويتعلون عن العراقيين في كثير من هذه الصلات (٣) . وشعر هذه الفترة السياسي كان متأثراً بعاملين مهمين :

الأول : العامل الديني : وهو الشعور الذي كان قد تربى عليه الشعراء ، فقد كان يهز مشاعرهم ويربطهم بالدولة العثمانية ، كما تجلى ذلك في الفصل الماضي ، وهذا الشعور دفعهم إلى مساعدة الدولة ، والمبادرة إلى نجدها متى ألم بها خطب ، أو اعتراها أمر ، وقد كان من هؤلاء الشعراء المخلص العميق الإخلاص في اعتقاده ، وكان شعره يصلر بدافع ذاتي محض ، ومنهم الشاعر الحجامل الذي لا قدرة له على الوقوف أمام الوازع الديني الذي كان يسيطر على الشعر آنذاك ، فيضطر لظروف متنوعة للنظم ، مجازاة أو لحب المشاركة والظهور :

الثاني : العامل الخارجي ، وهو الرغبة في المنفعة الذاتية ، بغية التقرب من الحكومة ، وطمعاً فيما لها من قوة ، ودافعه الخوف من السيطرة والحكم ؛ فقد كانت تركيا تحارب الحلفاء مع الألمان ؛ أي أنها متفقة مع جماعة غير

(٣) النظام السياسي في العراق : محمد عزيز ص ٥١ قال جمال السقاح الذي شق أحرار العرب « أما الترب اللين تألفت منهم الفرقة الخامسة والشرور فقد أدوا واجهم - فرقة دمشق - بمنتهى الشجاعة والإخلاص » لاحظ الثورة العربية الكبرى لأمين سعيد ص ٩٧ مصر ١٩٣٤ يصلد لإخلاص العرب .

مسلمة ، بل إنها أسلمت لها القيادة في العراق ؛ فقد كان قائد الجيش التركي السادس ألمانيا (٤) وقف يجيشه للدفاع عن العراق ضد الإنكليز ، فكيف يلائم الشاعر المسلم بين شعوره مسلماً وبين شعوره موالياً للدولة بعدها : كافوة !! إن المصلحة هي العامل الخارجى الجديد الذى ألبأ الشاعر لمسيرة ركب الدولة العثمانية المسلمة .

وعندما أعلنت الحرب العظمى ، بعد مقتل ولي عهد النمسا من قبل الصرب ، كانت هذه الطلقة عود الكبريت الذى أشعل البارود في العالم ، والطريف أن يتنازع شاعران عراقيان في صدى هذه الطلقة ؛ فقد رأها أحدهما (٥) قد أثارت الفوضى والاضطراب في أنحاء العالم ، وقلبت السلام رأساً على عقب ، والصربى رجل فوضى يستحق كل عقاب ولعنة ؛ بإثارته الحرب حتى فسد النظام فقال :

وما هي لو أمعنت إلا رصاصة فكم خربت ملكاً وكم أهلكت رهطه
أشاط بها الرامى ولو خال أنها مستخرق الأرض العريضة ما اشتطا
رمى الطلقة الأولى فكان يجرباً وعاد إلى الأخرى فأحكمها ضبطه
رماها وما أدراك أى رماية أصاب بها قلب النظام وما أخطا:
فوسطها قلباً ، شظاياه ، لو درى من الدول الكبرى ، هي الدول الوسطى
رصاصة ذلك القوضوى هي التي أرتك النظام الاجتماعى منقطعاً (٦) :

وأما عبد الرحمن البناء ، فقد انبرى له قائلاً : إن هذه الرصاصة ستكون السبب في استتباب الأمن والنظام ، وعودة الأمور إلى مجاريها ، هذه الظاهرة تدل دلالة واضحة على أن الموضوعات العامة لم تكن تعالج معالجة جدية منبعثة من نفس الشاعر ومشكلات المجتمع ، وكان الشعر وسيلة من وسائل لإزجاء

(٤) كان القائد الألماني الفلد مارشال فون دركولتز .

Field Marschall Von der Goltz : My Campaign in Mesopotamia : Sir Ch. O. F. Townshend p. 11, London 1920.

(٥) لم يذكر الشاعر اسمه وإنما وقع (شاعر) .

(٦) دار السلام ١٥ - ١ - ١٩١٨ .

الوقت كما كان في القرن التاسع عشر ، وإلا فهذا موضوع جديد طريف أتيج
للشعراء ولم يستفيدوا منه في بحث مشكلات الحرب ، وما تجره الحرب على
الناس من ويلات ؛ فلم يتناول هذان الشاعران المصائب الإنسانية التي تجرّها
الحرب . وكل ما كان من أمرهما أن يتنازعا في الصربي الذي قتل ولي عهد
النمسا : أهو فوضوى أم أنه أراد الخير ! وهذا ما يقوله الشاعر عبد الرحمن
البناء :

لقد أكبرت نفس الأبى رصاصة قد استعرت ملكاً وقد حررت حرّاً
رمى كبد الفوضى بها وأصابها فأصمت وفي حسن النظام لها مجرى
وألمها روح العلاء - وقد درى - من اللول الوسطى ستنتقم الكبرى
رصاصة ذاك الاجتماعى مذ دوت أرتك الخطا الفوضوى مما قلوا
درى أن في قتل الخصم حياته فأقصد منه قبل إطلاقها الصلدا (٧)

والحقيقة التي لامناص منها أن اللول كانت تبحث عن سبب لإشعال
الحرب لأنها كانت على أهبة القتال ، ولم يكن مقتل ولي العهد إلا سبباً تافهاً
اتخذته هؤلاء لإيقادها . وقد عالج هذا الأمر محمد رضا الشبيبي بقصيدة
قال فيها :

وما حربنا المشبوية ابنة آتتها ولا نشأت عن قتل من ولي العهدا
وما حمل الدولات أن تلج الوغى تعاهدها بل لأنها اختلفت قصدا
فناشدة ثأراً لتسدرك ثأرها وطالبة فتحاً وحارسة مجدا (٨)

واقعة الدردنيل :

لعل أول معركة حربية أثرت في الشعر العراقي خلال الحرب العالمية
الأولى كانت معركة الدردنيل ، فلما أعلنت تركيا الحرب في الخامس من
تشرين سنة ١٩١٤ ، ضد الحلفاء - تلك الحرب التي لم تكن تريدها - لما أصاب

(٧) نشرت في دار السلام العدد ١٧ السنة الأولى ١٩١٨ بتوقيع « شاعر » وقد نشرته
في النور العدد ١٢٧ سنة ١٩٢٩ بتوقيع البناء الصريح وهي كأغلب شعر البناء ضميعة البناء والتركيب .
(٨) الديوان ص ١٧ .

جميع مرافقها العامة من ومن ، سواء العسكرية منها أو الاقتصادية .
أبادت من إعلانها أن تتعلق بسبيل لخلاصها ، فقد رأى القادة ، أنور ،
وطلعت ، وجمال ، أن انتصار الحلفاء معناه استيلاء روسيا على الآستانة
والمضائق ، فيجب مساعدة ألمانيا للمحافظة على تركيا نفسها ، وإبعاد فرنسا
عن سوريا وإنكلترا عن العراق (٩) فأراحوا عاربة الحلفاء بغلق المضائق
في وجه سفنهم الحربية لمؤازرة ألمانيا التي خسرت إحدى المواقع الحربية (١٠)
خاصة أن جرجل أراد أن يهاجم المضائق ومحالفة اليونان ، ويوضح قصده
الاستعدادات التي أقامها في مصر وقبرص ، ثم الإنزال الذي أنزله الحلفاء
لفتح طريق المواصلات بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود ، لمساعدة
روسيا ، وقد بدأ الإنزال في شباط ١٩١٥ كتدبير حربي ، ولكن القائد
هاملتون لم يقدر على إتمام عملياته الحربية ، فقد حصن الأتراك المواقع
الحربية في المضائق (١١) ، وفشل الإنزال ، وكان لفشل الإنزال أثر كبير ،
ورثة فرح في نفوس الشعراء ؛ فقد نشرت مجلة العالم الإسلامي - التي
تصدر في الآستانة - قصيدة باللغة التركية ترجمها معروف الرصافي شعراً
سجل فيها انتصار الأتراك ، وردهم المعتدين على أعقابهم ، منها :

تقحم ثغر الدردنيل مهاجماً علوان للإسلام ، في البر والبحر (١٢)
ولكن أمد الله - بالنصر - جيشنا فكان من القول أنحصناً على الثغر (١٣)
وقد هاجم كاظم آل نوح هاتين الدولتين ، وقال : إن حصن الدردنيل
حصن مكن قوى تحرسه الأسود ، وعندما أنزل العدو جيوشه ، كانت قوى
الجيش تقف لهم بالرصاد فأذهلتهم وأدهشتهم بعددها وعديدها :

(٩) عل طريق الهند بغداد ١٩٣٥ ص ٢٢٢ .

(١٠)

W. Churchill, The World Crisis (1910-1915) p. 229-235.

وعلى طريق الهند ص ٢٢٣ .

(١١) لتفصيل عن واقعة الدردنيل يقرأ المقال للشور في ص ٥٢ وما بعدها في

Encyclopaedia Britannica Vol. 7. London.

وقد كتب العسكري شيئاً عن هذا المعركة في مذكراته ص ٤٦ ، ٤٧ .

(١٢) العنوان : فرنسا وإنكلترا .

(١٣) مجلة العالم الإسلامي ، الآستانة ، ٩ نوفمبر ١٩١٦ .

حصن الله حوزة الدردنيل بكماة غلب ، وآساد غيغل
 طهر الله ، إن تتجس منها — باحتلال الأعداء بعض الطلول
 يوم سالت — إنكثرا وفرنسا بالأساطيل — مثل جرى السيول
 وجموع ضاقت رحاب الفيافي فيهمو ، والرعيلا لائر الرعيلا
 جهلت للإسلام حصناً منيعاً عنه عادت ، بدهشة المذهول (١٤)

وقد بلغ من إعجاب البناء بالمحاربين ، أن تمنى أن يفد بهم بنفسه لأنهم
 حفظوا الآسنة نفسها ، من علوان الحلفاء وكبلوا الحلفاء الكثير فقال :

يا بنفسى من حفظوا الدردنيل وعلى الائتلاف ، سلوا السيللا
 حفظوا مركز الخلافة ، حتى عا ما حاول العدى المستحيلا
 حصنوا ثغر بحرهم بدفعا كم وكم أغرقوا به أسطولا (١٥)

أما موقف محمد عليّ يعقوبى فكان موقف المتهكم على هذه القوات
 التي هاجمت البسفور ، ولكنها لم تزل منه شيئاً ، إنما أكسبت الجيش العثماني
 فخرأً جديداً ، وعزاًً جديداً . ولم ينس يعقوبى يوماً للألمان من يد في
 مساعدة الجيش التركي في طرد المهاجمين ، الذين أراخوا احتلال الدردنيل
 عنوة فقال :

سلها غداة ازدلفت للبوغاز إذ خاب من خاب ، وفاز من فاز
 قلنا بها مكرمة وإعزاز والقوز أحرزناه ، أى إحراز
 وانكفأت أعداؤنا بالحرمان

قد أقبلت تطفو بها الأساطيل فتنازلتها صيدنا البهاليل
 نحسبها — يوم سنطت — أباييل ترمى العدى حجارة من سجيل
 حتى انجلى النصر لآل عثمان (١٦)

(١٤) صلى الإسلام العدد ١٥٨ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ .

(١٥) صلى الإسلام العدد ٢١٥ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ .

(١٦) صلى الإسلام ١٧٢ السنة الأولى ١٣٣٤ هـ وقد نشرت القصيدة باسم محمد علي

يعقوب التبريزي .

وقد نشرت جل القصائد في جريدة « صدى الإسلام » ، في بغداد ،
ومن هذه القصائد قصيدة لمحمد مهدي البصير ، عنوانها إلى بطل العثمانيين
« أنور باشا » ، يحكي فيها الوزير العثماني ، ثم يصف مشهد الحرب ، فيقول :
لئن أنت للدردنيل فحاولت أمراً ، به عنه ثقل وتصغر
فلقد درى الأسطول كيف تلوده عنه ، المدافع بالصواعق تمطر
فكأنها كانت بأعلى جوها سحباً ، عليه بالعذاب تسخر
ما أن تقابله برمي شواظها إلا ورد مخافة يتقهقر
ومنها :

فعلى ضفاف البحر تلك تلوده ووراء بلجة الفناء المضمّر
خبأت له الأمواج نار وغيّ سوى ما فيه أفواه المدافع فتفر
فهناك قر إلى قرارة بلجة والنار في حافاته تتسعر (١٧)

وأطرف قصيدة نشرت في هذا الحادث ، قصيدة محمد حسن أبي
الحامس ، الذي أصبح فيما بعد وزيراً للمعارف ، فقد جمع فيها بين الغزل
والتهكم ، على قوات الحلفاء التي هاجمت المضائق فقد قال :

وشادن أورثني حبه كالانقلابين ، حزناً طويلاً
عز على الوصل ، منه كما عز عليهم موقف الدردنيل
والكل منا لم ينل قصده وهكذا من طلب المستحيل
قد همت بالفر هماموا به والتفرّاء ما إليه سبيل
وقفحه كان لهم منية ومنيتي أن أرد السلسيل
أشكو ويشكوني الهدى ، والوغي فكلنا يصلّي بنار العليل
يا دولاً فرت أساطيلها فرار سلواني وصبري الجميل
كانت غاليبولى لهم مصرعاً ومصرعى خد المليح الأميل

(١٧) صدى الإسلام العدد ١٨٣ السنة الأولى ١٩٢٥ وقد تطرق الزهاوى إلى حرب
الدردنيل في قصيدة له في صدى الإسلام العدد ٢٦٤ .

دماؤهم مثل دم سوس النوى
 قد صادنى الظى ولست كما
 أودت بهم يفض حداد ، كما
 ضيعت قلبى يوم ترحاله
 ولست مستولاً بشرع المسوى
 قد رجوا بالعار ، لكننى
 وجدت للحب بنفى ، وهم
 إن ندموا اليوم على ما مضى
 قد نزلوا بالحرب أوطاننا
 على الظبا والحد سالت مسيل
 صادتهمو من تركيا أسد غيل
 بالصب. أودى سيف لحظ كليل
 وضيعوا الشوكة يوم الرحيل
 إن سألوا (كجنز) أو (جورجيل)
 رجعت فى العشق بمجد أثيل
 قد آثروا جنباً حياة الدليل
 فلا أقبلت عثرة المستقبل
 ونحن عجلنا القرى للنزىل (١٨)

وأصبح الخوف من الاستعمار الغربي يروعهم ، ويدفعهم القتال أكثر من القتاي المحدودة الأكثر بأبناء القرى والعشائر ، فوعى ابن المدينة ، والرغبة في الحرية والاستقلال لم يتسرب بين العشائر ، فقد ظهر أثر هذا الوعي في الشعر بارزاً واضحاً ؛ فقد نظم الزهاوى قصيدة طويلة هاجم فيها الإنكليز المعتدين مهاجمة عنيفة نشرها في أعداد متسلسلة من جريدة (صدى الإسلام) خاطب فيها الجيش العثماني الذي ذهب لقتال الإنكليز ، والقادم من قفقاسيا قائلاً :

ألا أيها الجيش اللهم المسكر تقدم ، فأنت المستطيع المظفر
ويجي فيها القائد أنور باشا ، ويذكر بلاءه في الحروب ، ثم يمتدح الجيش الذي يفدى نفسه في سبيل الدين والوطن ، ثم يهاجم الإنكليز فيقول :
وما هذه في الدهر أول مرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكروا
بغوا مرة ، من بعد أخرى ، فتألم . أذى البغي ، والتأريخ أمر مكرر
ويصف أعماله في جهات مختلفة ، ويمتدح الألمان وأعمالهم وانتصاراتهم ، بقوله :

بل الألمان اليوم من كل دولة أشد مراساً للحروب وأقـلـر
فكم غاص في أرض الفرنسيين جيشهم كما غاص في صلدطوى الحقد خنجر
وينظر إلى الشرق وما حاق به من تهديد الأجني ، فيثير الغرائم بذكر أمجاد العرب ودفاعهم عن ديارهم وأوطانهم . وبعد أن يعدد أعمال الإنكليز يعرج على مهاجمتهم أرض العراق فيقول : إن مهاجمة العراق عار يصيب العرب أجمع ، فيجب أن يقاتلوا حتى يخرجوهم من أرض الوطن ، وإلا فسوف يتوارى قحطان خجلاً . وما يذهب الخجل عنه إلا القتال :
إذا داس رجل الإنكليز ربوعها فلا (خندف) ترضى ولا (الأوس) تعذر
ليخجل قحطاناً - وينكسر رأسه - قعود بنيه عن عدو يسيطر
أعيدوا بني عمي إلى العرب صيتهم ومجداً قديماً ذكره يتكسر

= لاحظ (المهرجان الخالد للكرى آل حيدر) قامت بشره لجنة الاحتفال طبع في النجف . ١٩٥٣ ، المجلد ١ .

وفي القصيدة تصميم على مهاجمة العدو والاستماتة في اللود عن الوطن
المستباح منها :

سأغسل غنى العار بالسيف ، إنه ليصلق عند الضرب ، أو يتكسر
فوالله لا أثني جوادى عن العدى غداة غسد ، حتى يولوا ويدبروا
ويرى أن الحرب لن تضع أوزارها إلا باعتراف الإنكليز بأخطائهم ،
وأن السلم لن يظهر ما دامو مصممين على الحرب :

نحارب حتى نأمن الغدر ، إنهم متى يصبروا وهنأ من الشعب يغلدوا
إلى أن يقول الإنكليز بنفسهم نعم ، نحن أخطأنا السياسة ، فاعلدوا
هناك فأمل أن يزول دجى الوغى وينشق فجر الصلح ، والسلم ينشر (٤)
وللشبي قصيدة نظمها في واقعة سلمان باك بعد أن فقد المحاربون
كثيراً من القتلى ، قال فيها :

أستبج الحمى قوم أمامهمو . ومن وراء الحمى غلب مساعير
يامن أحبوا على الدنيا شهادتهم تزينت لكم الولدان والخور (٥)

وله قصيدة أخرى نظمها بعد واقعة (الشعبية) استنفر فيها العراقيين ،
والشعبية من المواقع المهمة الأولى في حياة الحرب ، فقد جاء القائد سلمان
العسكري بك ، ومعه فريق من الجنود الأتراك ، متجهين نحو البصرة ،
وهناك حدثت معركة كبيرة جرح فيها القائد التركي سلمان ، وعلى الرغم
من أنه أعيد إلى بغداد وقضى شهرين في المستشفى إلا أنه أبى إلا مواصلة
القتال ، فقاد الجيش التركي بنفسه وما زالت الجراح لم تتعلم فأعدت له
حفرة تحمله ، وهاجم الإنكليز هجوماً عنيفاً استمر يومين لم يصب فيه القائد
أى نصر ، ثم انتصر الجيش الإنكليزى في موقعه حاسمة ، وانلحر الجيش
التركي بين أسير وقتيل ، فما كان من القائد إلا الانتحار ألاً وحسرة

(٤) صدق الإسلام ، الأعداد ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، من سنة ١٣٣٢ وله
قصيدة أخرى في ديوانه المطبوع سنة ١٩٣٤ ص ١١٤ .

(٥) ديوان الشبي ص ٣٢ .

بعد أن أبدى من الإخلاص والوفاء والإيثار ما استحق به أن يخلد مع الأبطال ، وقد نظم محمد رضا الشيبى في هذه الموقعة ، وأتى على كثير من تفاصيلها ، ثم وصف القائد التركى بقوله :

وقائد حملوه في محفته
إلى (الشعبية) من زوراء (بغداد)
أفانتك بالعدى جيش مدبره
معطل الجسم ، ملقى فوق أعواد
جرى (سليمان) في استعجال مصرعه
مجرى كفاة بأمر الحرب قواد
قاد الألوف فأرداها وأتبعها
في الحال نفس أبى غير متقاد
مخاطراً عاش أعماراً لأن له
في إثر كل نجاة يوم ميلاد^(١)

أما عبد الرحمن البناء ، فقد دعا الناس إلى القتال ، وترك الكسل والتخاذل ، لأن العدو قادم من مكان بعيد ، وأى ذل أكبر من هذا اللذ . وأى جبن أخطر من هذا الجبن وهذه معاول الشرك الإنكليزية تهدم صرح المجد الإسلامى في الشرق فقال :

بنى العراقين لا تنحط همتكم
فرب بارقة تجلى بها الظلم
بنى العراقين ! حل الخصم ساحتمكم
وفى حماكم له مرعى ومغتم
قد جاءكم من وراء البحر معترماً
وذاك عار عليكم ليس ينحسم
أجدادكم تحت طي التراب تندبكم
أين الجلالة أين البأس والمهم
فكيف يهنا لكم عيش بأرضكم
والإنكليز بها يرمى لهم قدم
لمن تشاد مباينكم ومجدكم
بمعل البنى والإشراك منهم
أنتم بنو الشرف الأعلى وعترته
تمسكوا بعرى الإيمان واعتصموا^(٢)

وقد تهكم « البناء » من أبناء العراق الذين يتركون العدو المغرور يحتل بلادهم ، ويتحكم في مصائرهم ، ومستقبلهم ، وحياتهم ، ولن يعيش الإنسان إلا مرة واحدة ، فيجب أن يعيش كريماً عزيزاً ، كما

(١) الديوان ص ٤٩ للشيبى غير هذه القصيدة في الحرب العظمى قصائد في ديوانه لاحظ

ص ١٢ ، ١٥ ، ٣٠ ، ٤٧ .

(٢) صدى الإسلام ، المجلد ١١ سنة ١٣٣٣ .

عاش أسلافه العرب ، سادة الدنيا ، وإلا فالملوت خير من حياة الذل
 والمهوان . وللبناء قصيدتان أخريان ، الأولى عنوانها (العيد والحرب)
 وفيها رسم صورة النسوة وقد ارتدين الحداد ، ولكن في أعيادهن السالفة
 يرقطن بملابس زاهية لطيفة ، رسم هذه الصورة ليثير نخوة المسلمين
 لمهاجمة الجيش الفاتح بلادهم ، ثم تصور فتاة حرة أبية ، وقد غدت
 سبية بيد العدو ، وقد استاقها الملعج أمامه ، وهى تصرخ وتولول ناذبة
 أهلها وحماها ، وقد حملت ولدها الصغير . رسم هذه الصورة الحزينة
 ليستنفر هذه المهم الميثة ، وليثير الشعب على المهاجمين ، ولترك القارئ
 يتبع هذه الصورة :

رب ، فى الروح ، حرة قد سباهها عالج كفر ، فلا يخاف الوعيدا
 ساقها عنوة بسوط وجيمع غل منها سواعداً وزنودا
 وهى تبكى أهلاً ، وتندب بعلاً وتكفى آباءها والجلودا
 وعلى صدرها هنالك طفل قلنته من النموع عقودا
 فاجأته رصاصه بحشاة فهوى صارخاً يكد الصعيدا

ولو عوحت هذه الصورة بشعر شاعر ذى أسلوب متين لخلد هذه
 الصورة ، ومع ذلك كانت الفكرة بحد ذاتها فكرة رائعة ، ويستمر البناء
 فى إتمام رسم هذه الصورة بإضافة صورة الأم التى قتل ولدها وهى تحمله
 والدماء تسيل على جسمها ، وقد ذهبت منه حرارة الحياة ، وبقيت برودة
 الموت ، وحيرة الأم بين ترك ولدها الذى كان حياً يملأ قلبها ، وبين
 تركه على الأرض بعد أن مات فيه رجاء الحياة ، وصف الأم الولهى الحبرى
 المستاقفة عنوة بقوله :

تركته رغباً عليها وسيقت وهى تلوى إليه عيناً وجيدا
 تنق ستر وجهها ويلدها فى قيود ، من ذا يفك القيودا
 وبعد أن اطمأن إلى رسم هذه الصورة المثيرة للفرقة ، التى أثارت
 الغضب والألم والانتقام فى النفوس ، دعا إلى محاربة الأعداء وإجلالهم
 عن الديار والمواطن ليتم فخر المسلمين بإخراج الكافرين .

أيها المسلمون ! لا فخر إلا نجعل الخصم في القفار طريدا
ثم يصرخ في وجه المسلمين داعياً إلى الحرب مادام الموت نهاية كل
إنسان فخير له أن يموت شهيداً :

فهلّمسوا إلى الفخير سراخاً لا تهابوا مدافعاً وجنوداً
كل نفس مصيرها الموت ، لكن من يمت بالدفاع مات شهيداً (٨)
وفي القصيدة الثانية ، ظهرت الروح الإسلامية جلية ؛ فقد صور
احتلال الإنكليز للعراق الذي سيحول الجوامع إلى كنائس ، يرسم الصليب
على كل محراب ، وقد عد المسيحيين من أهل الكفر ، الذين تجب محاربتهم ،
وهذا انعكاس لصدى أفكار العصر البعيدة عن روح الإسلام ، فقد كانوا
يعتبرون غير المسلمين كفاراً مع أن الإسلام صريح في عدهم من أهل
الكتاب ، وأنهم أقرب مودة للمسلمين . غير أن الروح السياسية هي التي
فرضت على الشاعر هذا الرأي ، ولعل مرد هذا الحروب الصليبية ،
لأن العراقيين لا يسمون المسيحي بالكافر ، وأن العرب الأقدمين كانوا
يسمونهم بأهل النمة أو أهل الكتاب ، ولقطة كافر كانت تطلق على
الأوربيين بصورة عامة ، وقد يكون للحروب التي كانت تشنها الدولة
أثر في إطلاق لقطة كافر على أعدائها ، فقد وجدت هذا التعت يطلق على
الأوربيين فقال البناء :

جوامعكم غدت بيعاً ، وفيها سما فخراً ، على الحق الضلال
أبرم فوق محراب صليب وفي أفق الهدى يزهر الهلال
ويؤكد ذلك قوله :

كأن بالليوث الصبيد صالت على الكفار فانفرج المجال (٩)
وقد قيل الكثير من الشعر في هذه الفترة ، ويمكن مراجعة دواوين
بعض الشعراء الذين أثبتوا هذا الشعر في دواوينهم ، وفي جريدة (صدى
الإسلام) كفاية للباحثين فمن ذلك قول رشيد الهاشمي :

(٨) صدى الإسلام ، العدد ٢٢ سنة ١٣٣٣ .

(٩) صدى الإسلام ، العدد ٤٨ سنة ١٣٣٣ .

إلى الوغى هبوا لحمل السلاح واسترجعوا ما فات قبل الصباح
من نام عن أوطانه غافلاً يصبح في عرض ومال مباح (١٠)
وقد كانت الحرب مستعرة الأتون لصالح الألمان أكثر من فائدها
للأتراك ؛ فقد أجبروا تركيا على خوضها (١١) ، وقد ظهر ذلك في شعر
بعض الشعراء وانجاساتهم ، ولم تكن الفكرة صريحة ؛ فقد عرضت بتحفظ
زائد فقد أبدى شكرى الفضلى رأيه فقال : إننا في حربنا هذه ندافع عن
الألمان ، وفاءً منا للصدقة ، وحفظاً للوداد ، مع ما في الحروب من
أهوال :

لندفع عن خيل من آل جرمن على حين قد خان الخليل خليل
وكان الرصافي وقت إعلان الحرب ودخول الإنكليز العراق في
الآستانة ، فدعا المسلمين إلى الجهاد والود عن الوطن الإسلامي ،
وقد اعتمد في الدعوة إلى الحرب على الناحية الدينية ، ولم يكن مندفعاً
متهوراً يرسل القول على عواهنه ؛ إنما نظم القصيدة بروح المتحمس العاقل
الرزين ؛ فلم يقل : إن الإنكليز كفار ، يجب أن يحاربوا لكفرهم ،
ولم يهاجم الصليب أو يتطرق إلى الحلال ومكانتهما ؛ فشأنه شأن المسلم
المتقف ، الذي يعرف ما له وما عليه من أمور الدين ، هاجم الإنكليز
لأنهم شعب يريد أن يستعمر أوطانه ، ويهدم الدولة العثمانية ، التي بدين
لها بالولاء ، والأبى الكريم لا يرضيه إذلال بلاده وامتهان حرمتها ، فهو
يحارب لأن العدو قد دخل بلاده ، وعليه أن يحفظ بلاده ويحمي شعبه ؛
فهو يستنفر المسلمين قاطبة ، ويدعو كل قادر على حمل السلاح أن يلود
عن هذا الوطن ، لأن الواجب الوطني والديني يحتم عليه ذلك فقال :

يا قوم إن العدى قد هاجم الوطناً فانضوا الصوارم واحموا الأهل والسكنا
واستنفروا لعلو الله كل قتي ممن نأى في أقاصى أرضكم ودنا
واستهضوا من بني الإسلام قاطبة من يسكن البدو والأرياف والمدنا
واستقتلوا في سبيل الذود عن وطن به تقيمون دين الله والسنا

(١٠) صلى الإسلام العدد ٤٧ .

(١١) على طريق الهند ص ٢٣٢ .

ولم يكتف الرصافي بمهاجمة الإنكليز ، وحدهم ؛ إنما تطرق إلى موضوع آخر ، هو مهاجمة الذين ساعدوا الإنكليز من العرب ، وشايعوهم في الصداقة فأصلاهم حرباً شعواء من الهجاء ، لأنه يرى مساعدة الإنكليز الخيانة المتجسمة ، وسخر من الذين شايعوا الإنكليز سخرية لازعة ؛ فهاجم حسين كامل خديوى مصر ، ووزيره حسين رشدى قائلاً :

قل للحسين في مصر رويدكما قد خضنا الله والإسلام والوطنا
شايعنا الإنكليز اليوم عن صفه تالله ما كان هذا منكما حسنا
قد بعنا الدين بالدنيا مجازفة فكنتما في البرايا شر من غبنا
ويتطرق إلى مزايا الدين الإسلامى ، ويفخر بأنه لا بد أن يسود وترفع كلمة التوحيد ، ويخلق الرصافي في مدح الدين الإسلامى ، ويذكر ما فيه من شرف ومجد ، وأن الرصافي يفديه بالأرواح ، ومن ثم يتطرق إلى ما حدث لوطنه العراق من احتلال فيقول :

إن السرراق لعمر الله مسبعة توابب الأسد فيه من هنا وهنا
دون الوصول إليه كل مشعلة شعواء ترك وجه الشمس مكتما
فإن فيه رجالاً من بنى مضر إذا تحارب لا تستشفع الهدنا (١٢)

وله قصيدة أخرى نظمها عندما دخلت إيطاليا الحرب ، وفيها فكرة خيالية ؛ إذ رأى الطالبان جماعة اقترفوا العار ، وزلوا زلة شنعاء ، فهاجمهم هجوماً أخرجه عن طوره الهادئ الوقور الرزين (١٣) ، وقد اشترك بعض الشعراء في التضال والحرب ، كالشيبى ، ومحمد سعيد الجبوى ، وعبد المطلب الحلبي ، فقد استنهض الجبوى فيه القبائل للقتال والجهاد ، ويمتاز الجبوى بالمكانة الدينية السامية المرموقة ، ومن المؤسف أنني لم أحرر له على قصيدة في هذه المناسبة ، ولعله انشغل بكل جوارحه ، وبكل ما يملك

(١٢) ديوان الرصافي ص ٤٨١ ، المشعلة : غارة متفرقة تتأجج من كل جانب .
مكنن : مخفف .

(١٣) الديوان ص ٤٨٩ .

من قوة في أتون المعركة الفعلية عن نظم الشعر ، وإلجهاؤهم بالنفس أغلى
وأثنى من الجهاد بالشعر^(١٤) .

وقد شارك علماء الدين بالفتاوى التي حثت المسلمين على الحرب^(١٥) ،
ووزعت بين القبائل لموازرة الدولة العثمانية التي تدافع عن الدين الإسلامي ،
وقد لبى الكثير نداء الفتاوى على اختلاف مذاهبهم وقومياتهم ، مفضلين
أهون العلويين الذي تربطهم به الرابطة الإسلامية . ولم يكن العلماء
بالفتاوى ، وإنما شاركوا مشاركة فعالة في الحرب ، فقد حارب قسم
منهم مع العشائر ، كما ذهب صالح الحلبي من النجف إلى بغداد لكي يحرض
الناس على الجهاد بخطبه وبيانه ، وقد بقي الحلبي في بغداد حتى سقوطها
بيد الإنكليز ، لا يكل ولا يهدأ^(١٦) ، وقد كان عبد المطلب الحلبي يزور^(١٧)
جهات القتال ، ويستنفر القبائل وزعماءها لمناصرة الأتراك ، يدفعه الشعور
الديني المخلص^(١٨) ، ولم يكن بالزيارة وتحريض القبائل ، وإنما نظم
قصيدة ، دعا فيها لإخوانه العرب إلى مشاركة الأتراك في القتال ، لا لأنهم
يقاتلون عن بلادهم ، وإنما لأنهم لإخوانهم ، ويجب حبهم ومودتهم ،
وأخذ يدير الأعمال التي اقترفها الأتراك في العراق من قبل بقوله :

رقصاً بلإخوانكم يا عرب لأنهم لم يغصبوا قبلها حقاً لكم وجبا
ويؤنب العرب ، لأنهم لم يسارعوا في ضرب الإنكليز ، ويدافعوا
عن العراق عندما دخل الإنكليز البصرة ، وقد سره أن يستمر خيون العبيد
في حرب الإنكليز ، فقد أعطي مثلاً حياً للمواطنين ، ونموذجاً ناطقاً
للبطولة والكرامة ، فقال :

بني العرب العرياء من نومكم هبوا ونهضاً إلى الحلبي ، فقد عظم الخطب

(١٤) ترجمته في الحقائق الناصبة بغداد ١٩٥٣ لاحظ ج ١ ص ٣٦ .

(١٥) تراجع جريدة صدق بابل يصدر الفتاوى والتبرعات والاحتفالات بشأن مشاركة
رجال الدين في القتال .

(١٦) شعراء الحلة ج ٣ ص ١٦٣ .

(١٧) السيد عبد المطلب الحلبي دعوة للجهاد نشرت في العدد ١٣٩ . ١٤٠ من صدق الإسلام .

(١٨) شعراء الحلة ج ٣ ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٤ .

نكصتم و حرب الإنكليز لحربكم
وأرسي على الثغر العراقى بغتة
فما صمدت منكم لدى العز كرة
فمن مبلغ العرب الكرام رسالة
أبثهم من مؤلم العتب نفثة
سأندبكم عرباً ، أقاموا بخطرة
يسومهم الغدار خطرة نازل
تقدم لا يثنيه طعن ولا ضربه
بعادية ، أضحى يضيق بها الرحبه
تعود لجيش الكفر وهو لكم نهب
وإن كان لا تجدى المراسيل والكعب
بهاضاق رحب الصدر واعتاج الكرب
من الضيم لا يرضى بها الرجل الندب
على حكمه قسراً لها ذلت التجبه

هذا عتاب مؤنب عميق أثره فى نفس للشاعر ، سجل فيه الشاعر
انهزام القبائل ، وتفرق جموعهم بعد موقعة حربية ، غير أن خيون العبيد
وقبائله ، أبدوا من ضروب البسالة والإقدام ، ما أثار فى قلب الشاعر المشاعر
بالفخر والمباهاة فقال :

ولولا رجال قد تمام إلى العلا
فوارس من عليا ربيعة أحرزوا
جزى الله (عبدالقيس) أفضل ما جزى
لقد فعلوا فعلاً حوى المجد كله
نزار ، لغنى فى هجائكم الركب
حديث علا ، فى نشره ازدانت الكعب
به عاملاً عن فعله رضى الرب
وفازوا بأجر ليس يحبطه ذنب
وبعد ذلك يذكر المواقع الحربية التى انتصر فيها العرب على الجيش
البريطانى فيقول :

هو ممنوا يوم (السويج) حريمهم
وفى يوم (أم الملح) أبقوا مائراً
غداة البريطانى قد قاد جحشلاً
فردوه للأعقاب خزيان ناكصاً
بيض الظبا من أن يراع لهم سرب
من المجد فيها لم تزل تفخر العرب
لهاماً ، به نار المدافع لا تحبو
فولى وفيه القتل والأسر والسلب

ويبدو إعجابه الشديد بالشيخ خيون العبيد ، الذى حمى الإسلام
من الأعداء ، وأعاد للعرب كرامتهم ، وعزتهم ، ويصف هجماته ،
على العدو الزاحف دون أن تخيفه الأهوال ، أو ترعبه المعامع ، والمعارك ؛

لأنه كالسيف عزيمة ومضاء وقوة ، ويستثير همته بما فكر فيه العرب من ترك دينهم والدفاع عن وطنهم فقال :

أخيون إن العرب قد ألفت العصا
وهان عليها دينها وديارها
وليس في إلاك تعلق به العرب
فشمز إلى الحرب العوان بهمة
إذا صممت أمراً لها سهل الصعب (١٩)

وقد سارع محمد حبيب العبيدي ، فألف كتابين : الأول أسماه (حبل الاعتصام) (٢٠) والثاني (جنائيات الإنكليز) (٢١) وفي الكتابين يعرض الناس على حرب بريطانيا فقد قال : ما كان عرش بريطانيا لتكلمه الحشمة ، وتظلل العظمة ، لولا أن دعائمه هم المسلمون ، فمن صالح بريطانيا ألا يكون على وجه البسيطة دولة إسلامية ، ذات حول وطول ، تستطيع أن تكون سنداً للذين يحملون عرشها ، ويتخطون في أغلال أسرها من أولئك البائسين . ولا ريب أن مناط تعزيز الدولة ، وكونها قوية الشكيمة ، ذات حول وطول ، إنما هو اتحاد الكلمة ، وجمع الشتات . والخلافة هي كعبة السياسة للمسلمين ، تتوجه شطرها وجوهم أيها كانوا ، وتهوى إليها أفتلتهم في كل مكان . وهي الرابطة الكبرى للشعوب الإسلامية ، والوسيلة العظمى للم شعث ، وجمع الشمل ، فهي أجدر من أن تكون تلك الدولة التي لا تستطيع أن تكون سنداً للبؤساء الذين يثنون تحت أفعال الحكم البريطاني من إخواننا المسلمين .

ثم يصل إلى قوله :

و من أجل ذلك كان الإنكليز أكثر الأمم ضرراً للمسلمين ، وأشد الأتوام عداوة لهم ولخلافتهم المقدسة ، ولدينهم المبين ، ثم لملأهم الممثل لعظمة هاتيك المقدسات (٢٢) . فالعبيدي يرى الإنكليز أشد الناس عداوة

(١٩) شعراء الحلة ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ ، راجع العدد ١٦٤ من جريدة صدى الإسلام السنة الأولى ، لاحظ قصيدة أخرى له .

(٢٠) حبل الاعتصام ووجوب الخلافة في دين الإسلام ، طبع في بيروت سنة ١٩١٦ .

(٢١) جنائيات الإنكليز عن البشر وعمل المسلمين خاصة طبع في بيروت سنة ١٩١٦ .

(٢٢) حبل الاعتصام ص ١٢٠ .

للإسلام ، وأكثرهم ضرراً ، وبذلك يحلر المسلمين من الاستسلام لهم . أما الكتاب الثاني ، فقد رأى أن جنایات الإنكليز عمت البشر كلهم ، ثم يعدد مثالب الإنكليز الذين يريدون أن يصيبوا كبداً لللال العثماني ، والقرآن المجيد ، وأن الإنكليز ليسوا أعداء العثمانيّة ، لأنها السبب في حياة المسلمين ، ومن ألقى نظرة على عناوين الكتاب يتضح له مقدار هذه الكراهية ، ومن هذه العناوين : عاصمة الإنكليز وهيكلا الظلم المشنوم ص ١٢ ، كيف يسعد الإنكليز بشقاء من تحت يدهم من الأمم والشعوب ، ص ٣٤ ، إن الإنكليز أكبر الجناة على المسلمين ص ٦٠ ، الجنایات المتسلسلة والجرائم المركبة من الإنكليز لزاء المسلمين ص ١٠٨ ، ويضرب أمثلة على جور الإنكليز في آسيا وإفريقيا ثم يلخص هدفه في بيتين كتبهما على غلاف كتابه هما :

يا أسارى الهوان قوماً فقوماً قد عرفتم جرائم الإنكليز
فمنى نمطمون للذل قيلاً مستعنين بالقوى العزيز

معركة الكوت :

والحادثة الثانية التي أثرت في الشعر العراقي كانت معركة الكوت ، وهي المعركة التي حصل فيها الأتراك على نصر ساحق ، فبعد أن أخذ الجيش الإنكليزي في احتلال أجزاء العراق الجنوبية سار بقيادة «تاونزند» لايقف أمامه شيء في اتجاه بغداد . ولكن الجيش التركي صعد له قبل أن يصلها واضطره إلى الانسحاب ، وعقبه حتى وصل مدينة الكوت ، فتحصن فيها ، فأمرع الجيش التركي وحاصر المدينة . وقد طال أمد الحصار إلى خمسة أشهر حاول قائد الإنكليز - بكل مالدیه من قوة - الخروج من هذا الحصار ولكنه لم يفلح ، كما حاولت السلطات البريطانية إمداد الجيش بالموّن والذخائر لرفع معنوية هذا الجيش المحاصر . لكن المحاولات ذهبت أدراج الرياح ، فقد نفذت الميرة التي بين أيديهم حتى اضطر المحاصرون إلى أكل لحوم البغال والحمبر والخيل ، وبدأت معنويات المحاصرين تنحط يوماً بعد يوم ، حتى اضطر القائد الإنكليزي إلى مفاوضة القائد التركي

خليل باشا ، ولما لم يقدر على النجاة بشيء حطم معداته الحربية ، ومدافعه واستسلم للجيش التركي (٢٣) .

كلف هذا الاستسلام الإنكليز حوالى ثلاثة عشر ألف مقاتل ما بين ضابط وجندى (٢٤) ، وقد جاء هذا الاستسلام عقب انكسارات متوالية منى بها الأتراك وقوات العشائر التى ساندتهم ، وبعد أن هدد الإنكليز بغداد نفسها ، لذلك كان أثر هذا الانتصار عميقاً أخرج النفوس عن طورها ، أخرجها من القنخ والمباهاة بالنصر ، والتفتى بالموقعة إلى الزهو والغرور ، وزاد معنويات الشعب والدولة العثمانية فسرت موجة الغبطة والسرور فى كل مكان :

إن دوى المدافع الذى كان يفزعهم ابتعد عن أسماعهم ، فبعد معركة سلمان باك أو المدائن (٢٥) التى دامت أربعة أيام بلياليها ، واستعمل فيها السلاح الأبيض تفهقر الإنكليز أمام ضغط القوات التركية الجديدة بقيادة خليل باشا ومحمد على بك .

وقد أجمع هذا النصر فى قلوبهم الحماسة ، فسارعوا إلى تخليد هذا النصر الذى حازه المسلمون على المستعمرين فقال أبو المحاسن :

سرت نفحة الظفر العاطره بأرجاء أوطاننا الزاهره
ثم ذكر معركة سلمان باك التى أقرت عيون المسلمين ، الذين أحلوا
حفهم من الأعداء ، وأدركوا ثأرهم منهم فقال :

(٢٣) تفصيل يراجع الفصل السابع ص ٩١ - ١٠٠ من كتاب ولبن ومذكرات تاونزند

My Campaign in Mesopotamia, by : Ch V. F. Townshend.

ككتبت مجلة (السام الإسلامى) التى تصدر فى الآستانة مقالاً عن تاريخ حملة العراق بعنوان
(النصر المبين فى العراق) فى عدد مايو ١٩١٦ .

(٢٤) يذكر ويلسن تفاصيل عن الجنود والضباط ص ٩٩ ويمكن ملاحظة الصفحات

١٥٧ - ١٨٣ - ٢٤ من كتاب :

The Campaign in Mesopotamia 1914-1918, by : F. T. Moberly,
London 1930.

(٢٥) كان قائد الجيش العثمانى فى واقعة سلمان باك أو « تل السور » نور الدين باشا ثم بقيادة

خليل باشا ومحمد على بك .

فيايوم سلمان أنت الذى جعلت وجوه الهدى ناضره
وقد أدركت ثارها المسلمون فىك من الفئسة الدائر
ويتحدث عن أعمال القائد التركى الذى نظم خطة الانسحاب من
أمام الجيش الإنكليزى ليضربه ويفقده المبادأة التى اضطرتهم إلى الالتجاء
إلى الكوت :

وخادعت إنكلترا فى القتال فانخدعت وهى الساحره
ويسائل الإنكليز علام جاءوا إلى العراق ؟ ألم يعرفوا المصير الذى
ينتظرهم فيه ؟! وخاطب لندن قائلاً :

أتيت العراق لتبيل المني وعدت على خيبة صاغره (٢٦)
وقد وصف محمد رضا الشيبى المعركة فقال :

تجاه إخوان كبرى مأزق ضنك أودى الرجال به والخيل والعير
كادت تميز ذباً عن حقائقها فيه النفوس وتستقرى التصاوير
شأو تعاطت سباقاً دون غايته جرد البصائر والجرد المحاضير
إن كان للخيل مضمار ومضطرب فكم خلت ثم للرأى المضامير
قتلى « بدجلة » منها « دجلة » امتلأت و « النهر وانا » والأفقاظ والدور

ثم يصف خاتمة هذا النصر الذى حققه الجيش بقوله :

يوم أغر من الأيام منبجج وموقف فى سبيل الحق مأثور (٢٧)

كان سيد الموقف فى المعركة خليل باشا ؛ لذلك اتجه الشعراء إليه
ريزجون عبارات الحمد والثناء ، وكيف لا يكون سيد الموقف وها هو قد
أسر جيشاً بكامله ، ورفع معنويات الحكومة التركية بأسرها !! ومن

(٢٦) صدق الإسلام ، ١٣١ - ١٣٥ ، وفى العدد ١٣٢ مقال نور الدين باشا وبسالته
وما أحرزه من انتصار فى واقعة سلمان باك .

(٢٧) الديوان ص ٣٠ ويلاحظ قصيدة حسن التلى الدورى فى جريدة صدق الإسلام العدد
١٤٦ يحمي فيها انتصار الجيش ، وقصيدة البعوي فى العدد ١٧١ يتطرق إلى واقعة سلمان ، وقصيدة
الزماوى العدد ٢٦٢ صدق الإسلام والعدد ٢٦٣ يتخاطب سلمان باك .

هؤلاء كاظم آل نوح ؛ فقد قال يحيى القائد خليل باشا الذى كان محاصر الإنكليز الذين يلاقون ما لاقاه فى حرب الدردنيل ، ويدعو الله أن يتم النصر للجيش المسلم على الجيش الكافر المحاصر (٢٨) ، وفى قصيدة أخرى يحفز الجيش على الهجوم ، ويخوف الإنكليز من بلايا وقماته ، ثم يخاطب القائد قائلاً :

يأيتها القائد المحفوف فى أسد تغدو لها الأسد إما تلقها بهما
لاهدأ العين منا أو نراك به قد رحت من جاحدى الإسلام منتقما
شدد عليهم ولا ترعى (٢٩) لهم ذمماً فهم لنا لم يراعوا فى الوغى ذمماً (٣٠)
ثم يدعو للمسلمين بالنصر ، ولخليل بالفوز ، وللخليفة بطول العمر .
وفى قصيدة أخرى يرى العدو قد دنس أرض العراق ، فيجب أن تطهر
منه بالجلاء العاجل ، ولا تطهر إلا بالدماء ؛ لأن الجيش التركي لابد أن
يفوز فى الحرب ، وكيف لا ينصر وهذا قائده خليل باشا الذى يسيطر على
جيش الإنكليز ، وغدا تحت رحمته :

أسبيل إلى الفرار لمن أمسى محاطاً بمحضل جرار
هو تحت الحصار مثل بنات ترمى الصقر وهى فى الأوكار
أفينجو من النية من قد بات تحت الأهوال والأخطار
إن نجا من جيوشنا كيف ينجو من شبا عزم فحلها المذار
صاحب الحزم والثبات « خليل » يوم حرب والقارس المغوار
ومادام الجيش الإنكليزى فى الحصار لا يقدر على أن يفك نفسه برغم
قوته وعديده ، وقد أسلم نفسه للحصار ، ولم يقاتل فى الصحراء ؛ فقد
لطح نفسه بالذل والعار ، لأن معارك الرجال تكون فى خارج المدن
لا داخلها فقال :

(٢٨) جريدة صدى الإسلام العدد ١٥٧ .

(٢٩) كلما .. بالأصل .

(٣٠) صدى الإسلام ١٦٤ السنة الأولى .

ما لجيش العدو في الكوت أضحي فرقا جائسا خلال الديار
 إن يكن مصحرا فما من عسار إنما العار وهو تحت الحصار (٢١)
 وأخيرا استسلم الجيش الإنكليزي بعد أن فقد أمه ، وبعد أن انتظر
 طويلا مؤملا النجاة ، وبعد الاستسلام أخذ الأسرى سيرا على الأقدام إلى
 الأناضول ، فمات في الطريق من مات مرضا أوجوعا (٢٢) .

وعند ما استسلم الجيش الإنكليزي بعد حصاره الطويل ، أقيمت
 الاحتفالات في كل مكان ؛ في المدارس والسرديات والشوارع ، وكانت
 مجالا لإلقاء القصائد والمقالات والخطب ، وقد سجلت بعضها جريدة
 (صدى الإسلام) ؛ ومن هذه القصائد قصيدة لعبد الرحمن البناء يقول
 فيها : إن استسلام الإنكليز هو غاية كل مسلم لأن الملك لا يكون إلا
 للمسلمين وللخليفة ، وقد رفع خليل باشا رأس أهل العراق بهذا النصر
 وخطب القائد فقال عنه إنه (مقدس القدر) له (رأس كالبهر لا يرقى إليه)
 وإن الإنكليز جاءوا لاستعمار العراق ، ولكنهم باعوا بالخيبة والخذلان ؛
 فهذا قائدهم أصبح طائعا ذليلا صاغرا هصره الألم والهلم ، وهاضت جناحه
 الذلة والمسكنة :

أطاعك جيش الإنكليز وهذه هي الغاية العظمى إلى كل مسلم
 أتى طائعا بعد الحصار مسلما إليك بوجه حالك اللون مظلم
 يقاسي الأسى بل كاد يخنقه الأسى ويغضى على أنف من الذل مرغم
 لقد ظن أن الكوت يحمي جنوده وينجيهم من بأس الخميس الحرم (٢٣)

وظهرت في شعر عطاء الله الخطيب باذرة جديدة ، يجلر بنا التنويه
 بها ، هي الاعتماد بالعرب وبالشعور القومي ؛ فرأى أن للعرب حقا في
 هذا النصر ، لأنهم شاركوا الأتراك في هذا الحصار وكان لهم دور فعال ،
 ولم يخص العرب بمثل هذه الالتفاتة غيره ، فبعد أن افتخر بانتصار الهلال

(٢١) صدى الإسلام ١٧٣ السنة الأولى .

(٢٢) ولسن ص ١٠٠ .

(٢٣) صدى الإسلام العدد ٢٤١ السنة الأولى .

قال : إن حزب محمد هو الذى انتصر ، وأن الهلال كالتنجر الذى طعن
الخصم ، ثم عبر الإنكليز بنحسران معركتهم فى الدردنيل والكوت فقال :
أسود من الأتراك والعرب مالمهم سوى السيف من خيل وفى مواصل
فكم طوقوا جيد الزمان بعزمهم وكم أطلقوا كفاً يبذل ونائل
كفاً إذا استافوا الطلا فشرابهم عصير نفوس الشوس لآخمر بابل

إن قوله « أسود من الأتراك والعرب » شئ جديد بالنسبة للشعراء
الذين يذكرون أبناء عثمان وآل عثمان والدولة العثمانية والدين الإسلامى
فى شعرهم وهذا دليل على تسرب بوادر الروح القومية فى النفوس ، وأن
العرب بدءوا يفكرون تفكيراً خاصاً بهم ، ويوضح ذلك قوله :

أتونا وقد ظنوا العراق وأهله رقوداً كما الأموات رقدة غافل (٢٤)

ولم يكتف الشعراء بمهاجمة الجيش الإنكليزى الذى دخل العراق ،
ولما طرّقوا شأن الشعر العربى عامة إلى مواضيع مختلفة ، منها مدح القادة
الذين تولوا هذه الحروب ، وقد مدحوا السلطان رشاد بهذه المناسبة ،
لأنه القائد الأعل ، ولأنه حامى المسلمين ، متخذين من الروح الإسلامية
سبيلاً لهذا المديح ، ولعل القائد خليل باشا الذى كان رجل الساعة قد ظفر
أكثر من غيره بالثناء ، لأنه كان قرب سمعهم وبصرهم ، فمن هؤلاء
الشعراء كاظم آل نوح ، فبعد أن هاجم الإنكليز الكافرين الذين جامعوا
لمهاجمة المسلمين مدح السلطان الذى أرسل خليل إلى العراق قال :

دام سلطاننا الذى فيه تحمى بيضة الدين صاحب الإكليسل
دام للمسلمين حصناً منيعاً إذ به أصبحوا بظل ظليل (٢٥)

أما السيد عبدالمطلب الحلى فقد كان فى ساحة القتال ، فأخذ يستنفر
شعور المجاهدين ضد الإنكليز الذين وطئوا أرض العراق ، وقد ظهرت
آثار الفرحة واضحة على شعره ، فقد أرسل البشرى إلى جميع أبناء الشرق

(٢٤) صدى الإسلام العدد ٢٤٥ السنة الأولى .

(٢٥) صدى الإسلام ١٥٧ السنة الأولى .

دون تفریق، وثم هنا خليل باشا بفتح الكوت ، وأخذ يذكر المجاهدين
بالانتصارات التي حازها الجيش العثماني فقال :

بنى الشرق طراً من سباتكمو هبوا هفت لكم البشرى فقد فشل الغرب
بفتح به قرت من الدين عينه وسرت به الأثرالك والعجم والعرب
وامتدح خليل باشا قائلاً :

« خليل » العلاتر بظي أنور الحجي وحلف الوغى إن أحجم البطل الندب
له راحة يوم الوغى تمطر الدما ويوم لقاء الركب نائلها سكب
هو الأمد العادى إذا صرت الوغى بأنياها والضرب يتبعه الضرب

ثم تحدث عن القائد الإنكليزي الذي أجبره القائد التركي على الاستسلام
جوعاً ، وإن حرب الجوع أقوى من حرب السيوف ، وعلى الرغم من
أنني لا أتفق معه على هذه الفكرة فأنا لا أناقشها لأنها فكرة آتية اضطر إلى
تبريرها الشاعر بقوله :

فحاربهم بالجوع حتى تساقطوا ألا إن حرب الجوع حقاً هي الحرب (٣٦)

ومن رجال الدين الشعراء الذين هاجموا الجيش الإنكليزي محمد علي
اليقوي ، فقد كانت دولة إنكلترا دولة عظمى كبيرة العدد والعتاد ،
والاستيلاء على جيشها وحصاره كان شيئاً كبيراً مهماً ، لذلك كان الانتصار
عليها انتصاراً يتمشى مع هذه العظمة ، فلاعجب أن يخلد حصار الكوت
فقال من موضح له :

لله جيش المسلمين المنعوت كل حجي قد عاد منه مبهوت
صال على إنكلترا وهي الحوت ولم يزل يطردها حتى الكوت

من بعد ما جاسست خلال سلمان

ويسخر من بريطانيا التي رامت فتح العراق ، وكان الأولى بها حماية

(٣٦) شراء الحلة ج ٣ ص ٢٠٦ ، وله قصيدة أخرى في العدد ١٨٠ وقصيدة أخرى
لكاظم آل نوح يمتدح خليل باشا ، صدى الإسلام العدد ١٦٤ ، وله أيضاً في العدد ١٧٥ مؤرخاً ،
وله قصيدة يخاطب الجيش العدد ١٩٠ .

عاصمتها لندن التي هاجمها الألمان بالمتطاد زبلن وقلفها بالقنابل والنيران فأحرقها ! ولا أظن أن لهذا الخبر من صحة ، لأن المتطاد سريع العطب إذا ما أصيب بطلقة ، فكيف يقذف النيران والقنابل ، ولكن الشاعر أراد أن يأتي بكلمة زبلن لضرورة القافية وأراد الطيارة ، والمعنى يكاد يكون مبهماً في البيت الأول :

قد عز يا انكلترا ما تبغين ورامك اليوم عن المعصومين
ليس العراق مثلما نظنتين فلندن حمام عليها زبلن
يقذفها قنابلًا ونيران (٣٧)

وقد نظم على البناء قصيدة يمتدح بها خليل باشا وفيها مدح السلطان رشاد ذاكراً أعمال خليل باشا في سلمان باك وفي الكوت ومن ثم يقدم التهانى للمسلمين جميعاً منها :

لتهنأ بهذا ملة الدين إنه سرور بني الإسلام في كل ذى قطر
وتكسى فخار آل عثمان سمرداً بما فيهم قد شد للدين من أثر
وسلطانها الغازى (رشاد) عمادها وفخر بني الإسلام لابل مفخر القصر (٣٨)

وقد امتدح محمد مهدي البصير وزير الدفاع أنور باشا بقصيدة - بعد معركة الدردنيل - قال فيها : إنه صان تاج الخلافة ، وأمن الخائف من أبناء الأمة ، وبذل جهده في سبيل الإصلاح ، ورفع الظلم عن أبناء الشعب فقال :

عقد الإله لوائك فهو مظفر بالتصير ما بين الممالك ينشر
وأطال عتق الدين سيفك إذ غدا في حده باع العدو يقصر
يا صائناً تاج الخلافة والذي فيه أقيم سريرها والمنير

(٣٧) صلى الإسلام ١٧١ السنة الأولى . لعله أراد من (ورامك) أرجى من المعصومين
بناية الله ، والبناء قصيدة هبته بركة القراء العدد ٢١٥ وقصيدة لإسماعيل رئيس بلدية البغلة
العدد ٢٦٩ .

(٣٨) صلى الإسلام العدد ٢٦٦ السنة الأولى .

مثل الخليفة من يكون محكماً بين العباد ومثلك المستورز مهنت هذا الشعب ماثماً له إصلاحه فيما تسر وتجهز أمنت خائفة ورعت مخيفه تنهى به عما تشاء وتأمّر كم من يد أسديتها لك أوجبت شكر الأتنام ونعمة لا تكفر كم ظلمة للظلم أنت جلوتها وبنور عدلك أشرقت يا (أنور) كم وقفة لك دون ملة أحمد فيها برأيك بل بسيفك تنصر وتطرق إلى سهره على راحة الشعب وأمنه فقال :

كم ليلة لبلاء أنت سهرتها لتنام حولك أعين لا تسهر (٣٩) ولما وصل أنور باشا بغداد ، وامتلحه ذاكرآ نصر المسلمين ، ومعتبرآ زيارته جهادآ في سبيل الله والمسلمين ، وأشرق بقدمه النصر الذي يرافقه أين ارتحل فأصاب الإنكليز الخزي ، وأضر بهم الحصار والأمر ، وغدت وجوه المسلمين مشرقة المحيا ناضرة غبطة وسرورآ فقال :

أنار حمى بغداد مذ جاء (أنور) بوجهٍ عن الأعمار أبهى وأنور أتى وهلاك النصر وسط لوائه يهمل بالبشرى له ويكبر ووصف حال الإنكليز وحال المسلمين بقوله :

أبيت وعيش الإنكليز مكدر وعيش بني الإسلام ريان أخضر ثم قال له : إنك جئت إلى بغداد لكي تروغ الإنكليز والروس ، ولكن الجيش الإنكليزي جاءك أسيراً ذليلاً طائعاً :

أبيت لردع الإنكليز وروسها فوافاك جنده الإنكليزي يؤمر (٤٠) أما جميل صدق الزهاوي فقد نظم قصيدة طويلة لم تتمكن الجريدة من نشرها إلا في أعداد متتالية (٤١) خاطب بها الجيش العثماني ، ثم قال : إن أنور

(٣٩) صدى الإسلام العدد ١٨٣ وذكرت صدى الإسلام في عددها ٢٢١ السنة الأولى أن العرب في أمريكا اكتتبوا بمبلغ كبير لشراء سيف ثمين يقدم هدية لأنور باشا .

(٤٠) صدى الإسلام ، العدد ٢٥٥ ، السنة الأولى .

(٤١) صدى الإسلام ، الأعداد ٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، وقد سبق الإشارة إلى هذه القصيدة في معركة الدردنيل .

باشا ما اختار خليل باشا إلا بعد أن عجم حيلان قواده فوجده أشدهم وقوة ومراساً ، ثم خاطب أنور باشا قائلاً :

أنور أنت اليوم درع لأمة يحاربها ثلثا الأنام وأكثر
وانك سيف الله يحو به العدى ويخلم حتى يموت التجير
قدمت على رجب لبغداد إنها لفضلك في هذى الزيارة تشكر
ليهنك أن الفوز في الكوت شامل [وأن فريق البغى أصبح يؤسر
ويقدم التهانى للجيش الذى ضحى بنفسه في سبيل الوطن ، ثم بهجو
الإنكليز بقوله :

وما هذه في الدهر أول مرة رأى الحق فيها الإنكليز فأنكروا
بغوا مرة من بعد أخرى فنالهم أذى البغى والتاريخ أمر مكرّر
ويعدد أعمال الإنكليز في كل مكان ، ويمتدح الجيش الألماني ، ويحى
الموتى من المسلمين ، ويتطرق إلى واقعة سلمان باك ، وكيف تم النصر للمسلمين
بعد معركة حامية ، والطريف منها وصفه للطائرة في قوله :

وقالوا : بدت طيارة ستصيها قلائف من صهواتها تنفجر
أقلب طرفي في ثلثاء فلا أرى سوى نقطة سوداء تحق وتظهر
دنت فإذاها كالعقاب تقلها بحركة بالنار تغلي وترفر
فصبنا إليها مدفعاً فأصابها وخرت على آلائها تنكسر (٤٢)

ومن الطريف أن تختم هذا الفصل بقصيدة نظمت على لسان أنور باشا
بعد أن خسرت الدولة العثمانية الحرب ، واحتل الإنكليز العراق ، يتهمك
الشاعر ويسخر بها من أنور باشا ، والقصيدة صورت نفس أنور بأسلوب
لطيف ، صورت جشعه ، ورغبته في جمع المال على حساب الأمة التركية
ليرضى قيصر ألمانيا دون الاهتمام بيجوع الأمة وأوجاعها ، ويزيد الموضوع
طرافة أن ناظمها هو محمد مهدي البصير الذى مدح أنور باشا إبان الحكم
التركي قال فيها :

رجوت بموقفى فوزاً ميينسا فسقت لك العذاب به مهيتا
 ربحت بك المواهب والعطايا فبت مع الشعوب الأخرى بنا
 إذا الدينار أسمعنى رنيناً فديت لصوته منك الأئينا
 أصبت رضاء قصيرى المفلى فأهون بالرجال الساخطينا (٤٣)
 ويصف ما أصاب غليوم من الرعب غداة الانكسار ، فقال إن تركيا
 قد بيعت للألمان ولكن بأرخص الأثمان ، وإن الخطوة التى اتبعها كانت خطوة
 خاسرة كاسدة (٤٤) .

والويل المغلوب ، إذ تنقلب جميع أعماله إلى سيئات ، ولا تظهر حسناته
 التى أبرزها الشعراء أنفسهم فى حياته ، وقد تكررت ظاهرة مدح البارزين
 ومهجاتهم فى الشعر العراقى الحديث ، ولا لوم على الشعراء فى ذلك ؛ فهذه
 طبيعة الشاعر التى تهزه الأحداث فيندفع معها خاصة إذا كان الحديث بمس
 مصالحه الفردية ؛ كالخوف من أذى السلطان أو الرغبة فى الجاه والمال ،
 ويظهر إبداع الشاعر متى اتصلت القضايا العامة بمصلحته الشخصية ، ويشجع
 الشعراء على التغلب التخلخل العام فى المثل الأخلاقية ، ومنى جاءت رغبة
 الشاعر متسقة مع رغبات الجمهور معبرة عن أكثرية ساحقة اشتهر الشاعر
 وارتفع صيته .

فتح بشلاد :

بعد أن حاصر الأتراك الإنكليز فى الكوت ، وبعد استسلام القوات
 الإنكليزية للجيش العثمانى تبدلت معنويات الجيش العثمانى ، وارتفعت ارتفاعاً
 خرج عن حده ، وخاصة القائد التركى (خليل باشا) ، فعلى الرغم من

(٤٣) دار السلام العدد (١٨) السنة الأولى ١٩٢٨ وقد قالت المجلة فى عددها الصادر
 المجلد الرابع سنة ١٩٢١ إن أنور باشا كان راكباً طائرة تشق به عياب القضاة فى ديار رومية
 فسقطت به الطائرة فمات . ولاحظ العدد الرابع من المجلد الثالث سنة ١٩٢٠ بأن طلعت
 وجمال ذهباً راكبين بطائرة إثر أنور فسقطت هما الطائرة وأسرا فى بولونيا .

(٤٤) البشير قصيدة عن حياة غليوم فى العدد الخامس المجلد الثالث من دار السلام
 سنة ١٩٢٠ تطرق فيها إلى أحوال غليوم واحتلاله الدول المختلفة .

وجوده في ساحة القتال ، وكانت قوات العدو تحتل جزءاً من العراق لم يتابع القتال لإخراجهم نهائياً منه ؛ وإنما ملأت الغبطة أعطافه وأخرجته إلى الغرور ، فرفض كل المساعدات التي كانت تريد أن تقدمها له الجبهات العليا في الآستانة معتقداً أنه سوف يبحر كل القوات الإنكليزية الجديدة التي تحاول التقدم إلى داخل العراق ، ولم يكن أنور باشا (القائد الأعلى) يطمئن إلى هذا القرار ، لذلك أكد له وجوب المساعدة إلا أنه سخر من الإنكليز واستخف بهم ، وترك الأمور تجري دون استعداد ، أما الجيش الإنكليزي فكان يعزز قواته خلال ثلاثة أشهر بالمدد والذخيرة مستفيداً من الأغلاط التي ارتكبها في حصار الكوت حساباً حساباً دقيقاً لكل المفاجئات ، وعندما استكملت القوات الإنكليزية عدتها بدأت بالزحف فاندحرت القوات التركية أمامها متكبدة الحسائر القادحة حتى اضطر خليل باشا إلى ترك بغداد ، لأنه لم يستطع الدفاع عنها فدخلها (مود) دون مقاومة في ١١ مارت سنة ١٩١١ . ثم أخذت القوات الإنكليزية تتبع فلول الجيش التركي لإتمام احتلال العراق كله ، ولم تجد المحاولات التي بلغها خليل باشا لإيقاف الجيش الإنكليزي ، كما أن القوات التركية لم يتمكن من الوصول (٤٥) إلى العراق لإنجاده (٤٦) وبعد احتلال بغداد توفي الجنرال مود (٤٧) فأخذ القيادة القائد مارشال ، وأخذ يتقدم حتى أعلنت الهدنة ، وكانت الموصل تحت سيطرة الجيش التركي . هذا موجز سريع لحركات الجيش الإنكليزي في العراق ، وسنرى أثرها واضحاً في الشعر العراقي الحديث ؛ فمن أهم آثارها بعد حصار الكوت ،

(٤٥) ألف الأتراك جيشاً أحمر جيش الساعة لاسترجاع بغداد . وكان يؤمل أن يكون أحد قواده مصطفى كمال باشا وأن تكون القيادة الجنرال ألماني أعطيت له رتبة (مشير) . مذكرات العسكري من ١٦٨ كما يلاحظ ١٥٤ - ١٥٧ ولاحظ بهذا الشأن الفصل ٣٧ مجلد ٤ ص ٩ من

The Campaign in Mesopotamia 1914-1918.

(٤٦)

Loyalties Mesopotamia p. 228 Vol. 4.

ويلاحظ الجزء ١٥ من الملحة البريطانية ص (١٠١) ولعله خير مرجع للحرب في العراق .

Mesopotamia Campaign 1914-1918 p. p. 212-250 Vol. 3.

(٤٧) يلاحظ ويلسون ص ٢٦٠ - ٢٦٤ ويلاحظ ٢٧٥ ما أشار إليه المؤلف .

كان فتح بغداد ، فقد وقف الشعراء من احتلال بغداد مواقف مختلفة ، فمنهم من نذب الأتراك ، وبكى أمامهم ، وآله فراقهم ، مدفوعين بدافع الدين والوفاء العربي الإسلامي ، وقسم آخر من الشعراء أذهله هذا الفتح فخار في أمره ، فلم ينظم شيئاً من الشعر ، أى أنه وقف موقف المحاييد ، ولعله خشى عودة الأتراك ، أو أن الاحتلال الإنكليزي لم يكن مرغوباً فيه لأنه احتلال أجنبي ، ولأنه مستعمر لا تربطه أية رابطة بالعراقيين ، دخل البلاد بالحديد والنار والدم ، وقلب الحياة العامة رأساً على عقب ، وقد وصف بعض هؤلاء الشعراء العراق وما حاق به ، وبغداد وسقوطها بصورة خاصة ، ومنهم من هاجم الأتراك مهاجمة عنيفة ، وسخر من قواتهم ، ومن هزيمتهم من بغداد وتبعثر جيوشهم .

وما يؤسف له أن كثيراً من شعر هذه الفترة قد ضاع أو أُلّف عمداً ، ولكن الأثر الباقي يعطينا صورة واضحة عن حالة الاضطراب والحيرة والقلق النفسى لشعراء هذه الفترة كما عكست لنا النفسية البشرية ، في وفائها وتملقها ونفاقها وخضوعها للقوة ومداهنتها للمستعمر البغيض ، متتاسية كيف كانت بالأمس تسبح بحمد الأتراك ، وتعلن الإنكليز على محاولتهم احتلال العراق .

وقد مثل الرصافي الوفاء الإسلامي نحو لإخوانه العثمانيين المسلمين ، ولم يتلف قصيدته أو يحذفها من الديوان مع أنه لم يسمح بنشر قصائد له في الديوان سبق أن نشرت أو نظمت في مناسبات مختلفة ، ورجا الأستاذ مصطفى على أن يدونها في الديوان الذى طبع في بيروت ، فأعطانا الرصافي مثلاً في الوفاء والشجاعة ، فلم يجبن عن نشر قصيدته في ديوانه خشية أن يعاقب من الحاكمين ، أو أنه كان يطمع في عمل يتكلف به لهم .

وقصيدة الرصافي ، نظمها يرد بها على سليمان نظيف الذى كان والياً في العراق وقد أحبه العراق لأنه قضى جزءاً من حياته فيه ، وقد لام العراقيين لأنهم لم يساعدوا الجيش العثماني في الدفاع عن العراق ، فأجابه الرصافي على لسان دجلة قائلاً :

هي عيني ودمعها نضاح كل حزن لائلها يمتاح
 كيف لا أنرف الدموع وعزى بيد الذل هالك يمتاح
 وقد آلتى تبعه ترك بغداد على الأتراك الذين تركوها بيد العدو ،
 وخرجوا بسرعة ، وفي هذا إشارة لطيفة مؤدبة من الشاعر الرصافي ،
 على علم استبسال الأتراك في الدفاع عن العراق فقال :

أين أهل الحفاظ هل تركوني نهية ، في يد العدو وراحوا
 برحوا وادى السلام عجلاً أفجد يراحهم أو مزاح
 ما لهم يعلون غنى انتراحاً وعزيز منهم على انتزاح
 ثم يصور الرصافي ألم دجلة لفراق الدولة العثمانية ، وكيف يتهدد هذا
 النهر ألماً وحسرة لهذا الفراق ، وكيف تنساب دموعه غزراً فقال :

فبما هي هي انسكاب دموعي وخريرى هو البكا والنواح
 لو ما تبصر اضطرابي إذا ما خفقت في جوانبي الأرواح
 ليس ذا الموج في موجاً ولكن هو منى تنهد وصباح
 ويختتم قصيدته بيتين جميلين فيهما النجوى والحنين إلى الأتراك بقوله :
 أنا باق على الوفاء وإن كما | نت بقلبي ممن أحب جراح
 فإليهم ومنهم اليوم أشكو بغيهم شكائي يا رياح (٤٨)

أما المواليون للسلطات المحتلة ، فلم يكن ليحروا أحدهم على نشر اسمه
 الصريح في الجريدة التي أنشئت في بغداد لنشر الدعوة لهم والتغني بأجسادهم ،
 ففي عددها الأول زعمت أن إنكلترا محررة العرب (٤٩) بل كانوا ينشرون
 قصائدهم بتواضع مستعارة لينستروا على السير في ركب الاستعمار الجديد
 خوفاً من القول بأنهم مواليون للمستعمرين ، وأنهم خونة يمجنون الاستعمار
 والاحتلال الأجنبي ، وقد تجرأ الزهاوي وحده على نشر اسمه صريحاً ،
 إذ أراد أن يرد الأمن لقلبه ، والطمأنينة إلى روحه ، بعد أن هجاهم بقصيدة

(٤٨) الميزان ص ٤١٠ .

(٤٩) عددها الأول الصادر في ٤ تموز ١٩١٧ .

زمن العثمانيين ، فأراد أن يكفر عن سيئته لكنه أمن في إذلال نفسه في امتدادهم والتقرب إليهم .

وقد نشرت قصيدة بتوقيع « ابن ماء السماء » نظمت إثر سقوط بغداد بيد الإنكليز ، حاول الشاعر أن يكون مؤرخاً ومصوراً ، فقد وصف ساعات الاضطراب والفوضى التي حلت ببغداد بعد انسحاب الأتراك فأعيا عليهم أيام حكمهم فقال :

ما بال بغداد قد ضاقت بها الحالُ وخف بالأهل منها اليوم ترحال
بالأوس كانت بقايا الجند رابضة ^{في} فيها وللناس أشغال وأعمال
وكان للترك فوضى من تجبرهم واليوم للترك لا قيل ولا قال
كانت بها غرفات الظلم شاذغة ما أصبح الصبح إلا وهى أطلال

وقد وصف الشاعر ليلة سقوط بغداد وما اعترى الناس من خوف وهلع ومشاركة الطبيعة في زيادة هذا الخوف بهبوب عاصفة ترابية ، ووصف اللصوص وهم ينهبون ويسلبون ، وقد تفردت القصيدة بناحية طريفة هي تصويرها التفسى لمشاعر الناس الخائفين واضطرابهم ، بعد أن فقد الأمن والنظام في البلدة ، ورسم الحيرة التي كانت تلو وجوه الناس في هذه الليلة ، فهم لا يعرفون أين يذهبون وأين سيكون الملجأ ، بعد أن خرج الأتراك من بغداد ، واعتزم الإنكليز دخولها ، وهم كافرون مستعمرون ، أسيا منون على أرواحهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم ؟! . هل سيفتك بهم هذا الجيش الداخل بلدهم ؟. فالهروب من الموت والخوف على الأطفال والجزع من القضيحة ، كلها أمور أخذت تتاب هذا الشعب الذي ابتلى بالاستعمار . وساعد على هذا الملح جماعة من أبنائه الذين اغتتموا هذه الفرص لإشباع رغباتهم في السلب والنهب فقال :

ليل السقوط بدا بالنحس طالعهم تصادمت فيه بالأهوال أهوال
دريخٌ ورعد وبرق واصطدام وغى كأنما ازدحمت في الأفق آجال
للسلب والنهب بين الناس معترك لكن قتلاهم في السوق أموال

من فوقهم صاعقات الحرب نازلة وهـد بنيانهم من تحت زلزال
وللمدافع رعد في سمائهم تكاد منه عقود النجم تتشال
وللرصاص صفير في مسامعهم وللخيالات في الأفكار أشغال
وللرجال من الإرهاب زجـرة وللنساء ابتهالات وإسـوال

وقد ظهرت الصور الإنسانية والعواطف المضطربة ، في وصف الشاعر
للسيدة تقود طفلها وهي تركض في الشوارع جـرى ، تبحث عن ملجأ
تقر فيه ، وتسكن إليه ، وهي وحيدة ليس لها من تلوذ به ، فأخذ يواسيها
في محبتها وبلواها لأن الجميع مشغولون بأنفسهم يريدون الفرار بأنفسهم
وبأرواحهم راكضين ذاهلين بلا وعى ولا شعور ولا إرادة ، لأن نيران
الحرائق التي تلتهم الأبنية والبيوت تزيد في الملح والخوف فقال :

لاحت لي امرأة في السوق ماشية ودمعها فوق صحن الخلد هطال
تقود طفلاً صغيراً وهي صارخة رحماك رباه قد ضاقت بي الحال
وقد غلوت عن الدنيا مجردة لا والد لي ولا عم ولا خال
ولا شقيق ولا زوج ولا صـلة ترجى ولا لي بها دار ولا مال

ثم يحدثنا الشاعر ويسليها ويعزها ويشيرها بتحرر العرب من الأمر
التركي ونيلهم مطالبهم ، لأن الإنكليز يعرفون للعرب حقوقهم ، لأنهم
يحترمون أصدقاءهم ، ويبدو أثر الاقتتال على القصيدة والتظاهر بالقوة
والرجولة ، فبعد أن وصف البناء ليلة سقوط بغداد ، وشغل الناس بأنفسهم ،
أراد إثارة العاطفة الإنسانية في النفوس ، فوفق إلى هذا لكنه هبط هبوطاً
واضحاً عندما أدعى أنه وقف وأخذ يحادثها ويبعث الثقة في نفسها، ولو
قال إنه أخذ يركض معها لينقذها من النيران ومن القنابل ومن أرجل
الهاربين لكان في ذلك بعض الصلق وكان تمثيلاً للواقع إذ أن موقف الرعب
الذي وصفه في مطلع قصيدته لا يتفق وهذا المشهد لأن الإنسان عند اندلاع
النيران ومهاجمة الموت لا يقف ويتحدث ، وإنما يتبع عقله اللاواعي
فيركض لينجو بنفسه من الموت ، بيد أن البناء بجانبه الواقع ولم يقدر

آن يلائم بين أجزاء القصيدة وقد جره إلى ذلك رغبته في التلخص إلى مدح الإنكليز حيناً سارع إلى التزلف إليهم وإسباغ الثناء عليهم قبل أن يثق بهم ويجريهم . فقد نشر قصيدته في جريدتهم بتوقيع مستعار ، وأراد أن يمتدح العرب فأساء إليهم لأنه قال : إن إسهامهم فك يبعد الأثر عن العراق ، وأن العرب قد حصلوا على مطالبهم بفضل الإنكليز ، ومساعدتهم للعرب ، كما شوه الصورة الإنسانية التي رسمها للسيدة ولطفها لأنه حشر مدح الإنكليز حشراً فقال :

ألست من أمة العرب الألى نجحوا وفك عنهم يبعد الترك أغلال
عابري أنهم نالوا مطالبهم بفضل قوم لهم فضل وأفضال
الإنكليز هم ما خاب صاحبهم ولا هم بحقوق العرب حماء
ثم يصف الشاعر هزيمة الأتراك إلى جبل حميرين ، وفضل هذا الجبل عليهم إذ لولاه لأفنى الإنكليز جمعهم وأبادوهم ، ثم يهاجم الأتراك الذين جحدوا النعمة وابتعلوا عن الهدى راكنين إلى الظلام مبتعدين عن الحق فقال :

الترك قد تركوا بغداد وانهمزوا من بعد حرب لها قد شيب أطفال
ثم يقول :

لولا الموانع من « حميرين » تمنعهم ثم يبق منهم بهذا القطر خيال
أهلهم موقف ضاق الزمان بسد ذراعاً وليس له في الدهر أمثال
لأنهم جعلوا النعمى وما شكروا وعن طريق الهدى في غيهم مالوا
عالموا على العرب في تبعيدهم فغادوا كأنهم فوق رعن الطود أوعال
أسلوب الشاعر ليس من الأساليب العالية ولا شعره من المثانة ما يصل
به إلى الشعر المقبول ؛ وإنما نستشهد به لأنه سجل لنا هذه الفترة تسجيلاً
واضحاً (٥٠) وقد تطرق في القصيدة إلى حوادث معينة مثل نصف باب

(٥٠) جريدة العرب الأعداد ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، من شهر أيلول ١٩١٧ م وفي
خبرتها الجريدة في الصفحات الأولى وأعيد نشرها مع بعض التغيير في (ذكرى استقلال العراق)
ص ٦٣ - ص ٦٨ المطبوع في بغداد ١٩٢٧ م .

الطلمس - أحد أبواب بغداد القديمة - إذ اتخذ مخزناً للبارود فلما أراد الإنكليز دخول بغداد نسفه الأتراك قبل الانسحاب منها ، وتحدث عن تاريخ بناء الباب الذي كان جزءاً من سور بغداد ، فهاجم الأتراك الذين نسفوا هذا البناء التاريخي .

ومن القصائد التي نشرت في جريدة العرب قصيدة ابن القراتين التي وصف فيها رحي المعركة التي دارت بين الأتراك والإنكليز ، والتي أدت إلى استعمال السلاح الأبيض ، والقصيدة بعيدة عن روح الحقيقة ولم تدر مثل هذه المعركة بين الإنكليز والأتراك ؛ إنما أخلاها الأتراك دون مقاومة (٥١) ولكنه شاء أن يخلق بخياله الشرى فاختلق هذه المعركة ، وتصح القصيدة أن تكون لمعركة من معارك الحرب العظمى ، فقد حدثت مثل هذه الالتحامات بين الجيوش ، ولعله أراد رسم صورة لإحدى هذه المعارك ، أو أنه وصف معركة رآها بنفسه ، وبقي أثرها في اللاشعور ، وظهرت بهذه المناسبة مع إضافة شيء يناسب الحادثة التي حدثت في بغداد ، أو أنه نظم القصيدة قبل سقوط بغداد فليس في القصيدة من حادث معين يشير إلى سقوط بغداد سوى العنوان وهي تصلح أن تكون لأي معركة قال :

تقلصت شوكة الأتراك في أفق دامي اللببول صريع الرجم ملتهب
تضمه الزرعزاع النكباء مشفقة تكاد تحطفه من موقف العطية
وعندما اتصل الجيشان والتحما بكل أشعث خواض الوغى دربه
ثم وصف المعركة المستعرة بقوله :

وأوغل الطعن في جذر النفوس وقد تسمرت ناره في النبع والغرب
واصفى ثم أكف البهم صائلة واحمر حنا السلاح الأبيض اللرب (٥٢)
ويتحدث عن انسحاب الأتراك بعد أن حامت الطيارات فوق جيوشهم مضطرين متقهقرين ، ثم يدخل الموضوع بعد جولة طويلة ويصف نسف بابه

(٥١) العسكري في مذكراته ص ١٥٠ - ١٥١ .

(٥٢) جريدة العرب العدد ١١ ، وفي العدد ١٠ ما يؤيد بأن القصيدة نظمت لغير هذه المناسبة وقد تحدث فيها عن مشائخ الشام ومن شق من أحرار العرب .

بغداد ، وأثر النصف في الناس ، وما حاق بهم ووصف اللصوص وهم
يسرقون وينهبون ويهرولون نحو السوق يملوهم الجشع والطمع والشراسة
فقال :

فأضرمو النار في بغداد من حنق كأن بغداد ردتهم على العقب
وفرقوا مؤناً للحرب فافججرت تواصل النصف في الأبراج والقيب
فهزت الأرض زلزلاً صواعقها كأنما الأرض مهد الحطب والغضب
فالتاس أمسا سكارى حيث ليس لهم إلا الجنون وليس العقل من زقب
خارت قوى الحس فيهم حيث لم يجلوا لا للحياة ولا للموت من مرب (٥٣)

ولم يكتف الشاعر بمهاجمة الأتراك وتعنيفهم ، بل أخذ يتهمهم بالكفر
والشرك ويعيرهم بأجدادهم الذين يعبدون الثور ، ويذكر ما صنعه المغول
وجنكيز خان من القضايع مذكراً الأتراك بدعوتهم الطورانية التي مزقت
المسلمين شرمزق ففقدوا عطف الأمم الإسلامية والعربية معاً ، وقال متهمكاً :

رب المغول هو الثور الذي انتظمت جماجم الصيد قهراً منه باللب
أيديه تربو على العشرين حاملسة أعضاء إنسان أو آلات محترب
هو الذي أرشد الأتراك منظره الـ قاسى الأليم إلى التدمير والحرب
أحرقم الحرث والتسل ابتغاء هوى ورحمة منه فوزوا اليوم بالأوب (٥٤)

قد يقف الباحث في حيرة من حالة الشعراء ، ويتساءل متعجباً عن
سبب هذا التقلب من مدح الأتراك إلى هجائهم . فلو أخذنا « صدى الإسلام »
وجريدة « العرب » لوجدنا شيئين متناقضين ؛ فقد مجد الشعراء رجال الدولة
العثمانية وأعمالها في العراق ونظروا إليهم نظرة الأخ لأخيه ، ثم انقلب
هؤلاء الشعراء إلى هجومهم وحربهم ولصق كل تهمة بهم وكل بلية جاءت

(٥٣) جريدة العرب العدد ١٥ السنة الأولى ، والعدد ٢٠ سنة ١٩١٧ م ذكر لمروجهم
إلى سامراء .

(٥٤) جريدة العرب العدد ٢٠ السنة الأولى ١٩١٧ والقصيدة تقليد فاضل لقصيدة أبي تمام
المشهورة :

السيف أصلق أنباء من الكتب في حله الحد بين الجد والعب

العراق ، فاتهموا بالزمنة طوراً وبالكفر والشرك مرة وتصلوا عن أخطائهم وصلاتهم بهم آونة أخرى . وليس هناك أى تناقض فى الأمر ، إنما هى حقيقة النفس الإنسانية فى أجلى صورها ؛ فقد كان العصر عصر اضطراب وبلبله فكرية وقلق نفسى من جراء الحرب أعقبتها انتصار جيش على جيش وهزيمة .

والمتنصر الذى يريد أن يطمس ما للناس من فضائل وميزات ، ويريد أن يكون هو وحده صاحب كل فضيلة أو رأس كل خير ، وأن عهده هو عهد الرخاء وعهد الأمن ، وعهد الهناء والعيش الرغيد ، ويصم العهد السابق بأنه عهد الجوع والاستبداد والظلم والطغيان لكى يثبت أركان ملكه وحكمه ، والحقيقة أن ليس هناك من فرق من حيث الاستعمار فهو احتلال فى جميع صوره .

إن كثيراً من الذين مدحوا الأتراك ، وساروا معهم شوطاً بعيداً ، كانت تدفعهم الحمية الإسلامية والحمية العربية ، دفاعاً عن أوطانهم ضد الاستعمار الإنكليزى الجليد ، ومنهم جماعة كانت مخلصه كل الإخلاص لدينها وعقيدتها ، فقد اشتركوا بأنفسهم فى حرب الإنكليز ومات الحبيبى كذا لما خسرت الجيوش التركية الحرب ، واحتل الإنكليز جزءاً من العراق (٥٥) .

وقد ثبت منهم فى عقيدتهم فى تفضيل الحاكم المسلم على غيره ، إذا كان هناك تفضيل بين احتلالين ، وقد نشروا قصائدهم بتوقعات صريحة ، فما يجد الباحث قصيدة نشرت إلا باسم صاحبها لأن العمل فى سبيل نصرته دينته جهاد ، أما الذين مدحوا الإنكليز فقد كانوا خائفين وجلين مضطربين ، صوروا الحالة النفسية المضطربة التى تعقب الحروب ورسوموا لنا المثل العليا والأهداف الاجتماعية السامية التى تختلف باختلاف الحاكم واضطراب هذه المثل شئ حتمى فى مثل هذه الظروف والتقاليد ، والمثل صوراً صادقة لكل مجتمع . تعكس التيارات الفكرية والنفسية فهو الذى يصنعها وهو الذى يفرضها ويحميها ، ومن المثل العليا التى سادت هذا العصر

الامتناع عن الاتصال بالإنكليز ، واعتبار كل مآدح لهم من المشركين والكافرين لذلك اختفى المادحون وراء أسماء مستعارة تخلصاً مما يصبه عليهم المجتمع من قذمة ، والسبب واضح لأن الإنكليز يختلفون عن العراقيين في الدين والتاريخ والدم والعادات ، وليست هناك أية رابطة تربطهم معاً سوى الاستعمار والقوة والحديد . وهناك سبب آخر منع العراقيين من مدح الإنكليز هو الخوف من عودة الأتراك والتتكيل بهم كما صنعوا بعد حصار الكوت ، فقد نكلوا بالذين تعاونوا مع الجيش البريطاني .

وملاحظة جديرة بالاهتمام أن شعر الذين مدحوا الإنكليز لا يرق إلى مستوى الطبقة الأولى من الشعر العراقي ، فقد كان مبعث النظم الخوف من المستعمر أو الرغبة في الأموال السخية التي كان يصرفها لكتاب جريدته .

والانتهازيون في كل عصر وفي كل زمان يحتفلون بالقادم الجديد ويمجدونه حباً في مناصبه وماله ، ولا يهمهم غير أنفسهم وجيوبهم .

الاحتلال البريطاني

بعد أن أعلنت المدينة ، وبدأ الاستعمار الغربي يقسم البلاد العربية ، شعر العراقيون بثقل وطأة الاحتلال الإنكليزي ، وبدأت الدعاية في تمجيد الحاكم الإنكليزي في العراق ، ودم العهد التركي . واتهمت جريدة العرب التي كان يصدرها الاحتلال ، ويشرف عليها الأب أنستاس الكرملي ، بإسهاماً فعالاً في هذا الميدان ، ففي عددها الأول نجد الدعاية الواضحة في كل ما نشرت ، فقد نشرت نداء الجنرال « مود » الذي يقول فيه : « إن جيوشنا لم تدخل مدنكم وأراضيكم بمنزلة قاهرين أو أعداء ، بل بمنزلة محررين ، فقد خضع مواطنوكم - منذ أيام هولاءكو - لمظالم الغرباء ففخربت قصوركم ، وتجردت حداثتكم ، وأنت أشخاصكم وأسلافكم من جور الاسترقاق . لقد سبق أبناؤكم إلى حروب لم تشلوهما ، وجردكم القوم الظلمة من ثروتكم وبددوها في أصقاع شامسة (١) » ومنى العرب بالحرية والاستقلال ، بعد أن آذاهم « الظلمة الغرباء » . وتحدثت الجريدة في أعداد أخرى عن فظائع الأتراك الاتحاديين في بلاد العرب مثل « انحطاط الأمة العربية في عهدهم » و « ما قاساه العرب من الترك في بغداد » وغير ذلك مما تطفح به صفحات هذه الجريدة .

وقد تمكن المحتلون من إغراء جماعة من الشعراء بالسير معهم ، وبذلك انقسم الشعراء إلى قسمين متضادين : القسم الأول : الذي لا يرى فرقاً بين محتل ومحتل آخر ، فالاستعمار هو الاستعمار ، سواء أكان تركياً أو إنكليزياً ، جاء لامتصاص ثروات البلاد واستغلالها ، وهم مستعمرون يجب :

(١) نشر النص الإنكليزي في ص ٢٣٧ وبطلها من كتاب ولسن ج ١ .

أن يحاربوا دون هوادة ، ولم تكن البلاد قادرة في هذا الظرف ، فيجب مقاطعة المحتلين ، وعدم الاتصال بهم ، وهذا القسم هو الذى أوقد نار الحرب على الاستعمار البريطانى ، وزودها بالوقود لحرقة ، وسرى ذلك في فصل الثورة العراقية .

أما القسم الثانى ؛ فقد رأى الإنكليز خيراً من الأتراك ، لأن شعراءه انتصوا بهذا الاحتلال ، وحصلوا على مكاسب لم يحصلوا عليها في العهد التركى ، أو أنهم طمعوا فيما بذل الإنكليز من الأموال ، فأرادوا أن يقتربوا إليهم زلى ، وهم شأن الشعراء الذين هاجموا العهد التركى بأن نشروا قصائدهم بأسماء مستعارة ، خوفاً من رأى العام ، وهم مع ذلك نفر محدود العدد . لكن الزهاوى كان أجراً الشعراء في تحدى الشعور العام ؛ فقد استمات في الدفاع عنهم وعن أعمالهم ، فأجبهه وقربوه حتى إن « مش بل » كانت تسميه « شاعرنا » عندما تريد أن تذكر اسمه . ومن قصائده التى نشرتها جريدة العرب قوله :

وجدت الإنكليز أولى احتشام
فصادقهم تجد أخلاق صدق
إذا بهم احتى المنصور يوماً
رأى منهم له أقوى محام
وبات على فراش الأمس خطأ
ونامت عينه أنها منام

ويرر سبب حبه للإنكليز بعلمهم ودكهم صروح الظلم ، وسياستهم الحكيمة التى تذلل كل الصعوبات ، فيقول :

أحب الإنكليز وأصفىهم
لمرضى الإخاء من الأنعام
جلوا في الملك ظلمة كل ظلم
بعذل ضياء كالبلدر التمام
ودكوا بالسياسة كل صعب
وخاضوا بجره والبحر طامى

ثم يصف الأسطول الإنكليزى وقوته في البحار ، وتحطيمه أساطيل الأعداء ، وأن جيشهم قاهر متصر لا يمكن لجيوش العالم أن تغلبه ؛ لأنه جيش لا يكثر بالموت ، وتساوت لديه الحياة والموت ، ثم يهاجم

الأتراك ، ويصفهم بالثوم والغدر ، وأنهم أذاقوا العرب الدل والهوان ،
يقوله :

وأنت تسومك الأتراك خسفاً وتسلب من حقوقك باهتضام
ووال الإنكليز رجال عسلى وصدق في الفعال وفي الكلام (٢)
ولم تكن هذه المرة الأولى والأخيرة التي ملح الزهاوى فيها الإنكليز ؛
فقد مدحهم بعد ذلك وهجا العراقيين في الثورة العراقية ، وسخر منهم سخرية
لاذعة ، وخطب محرضاً « برسمى كوكس » على إعادة الأمن إلى نصابه ،
وطلب النواء للعراق المريض ، والقصيدة كان قد نشرها قبل دخول الإنكليز
العراق في ديوانه « الكلم المنظوم » ولم يكن عليه ضير لو تركها أو أعادها
مرة أخرى دون تحريف ، ولكنه حرف بعض أبياتها وذكر الأتراك فيها
صراحة ، ونشرها في جريدة العرب ، جريدة الاحتلال الإنكليزى ، فأثبت
شدة تعلقه للإنكليز ، ولم يكتف بهذه القصيدة ؛ وإنما كان يظهر تعلقه بهم ،
وصداقته لهم في كل مناسبة ممكنة ، فانضم إلى حزب النقيب « الحزب
الحر » الذى يؤيد سياستهم في الاحتلال ، الحزب الذى وقف الرصافى منه
موقفاً حازماً وهجاء بأقذع وأمر هجاء .

إن نفسية الزهاوى القلقة الخائفة هى التى ألبأته إلى التمرغ على أعتاب
المحتلين بعد أن كان عزيزاً محترماً نال أرفع المناصب في العهد التركى (٣) ،
وكان من الوفاء أن يسكت ، أو يمدح الإنكليز ، دون أن يسب أو يتعرض
للمناوئين وذلك أضعف الإيمان ، والمؤمل أن يكون شاعراً ثائراً على هذا
الاحتلال الذى أهان بلده ووطنه أسوة بزملائه الشعراء الذين ناضلوا ،
وبقى منهم من يناضل حتى النفس الأخير ، صابراً على الأذى في سبيل حرية
شعبه وكرامته .

والزهاوى قصيدة أخرى يصف فيها حسنات الإنكليز ، يدعو فيها
صراحة إلى الاستعمار البريطانى وتأييده ، قال فيها :

(٢) جريدة العرب العدد ١٥-٢-١٩١٨ ولاحظ الكلم المنظوم ص ١٤ .

(٣) بعد أن فشل الزهاوى في الحصول على ما يريد ، نكب العهد التركى بقوله :

أين عسى في دولة الأتراك أنا يكلم بما به أنا باكى

علينا، بفضل الله، ظلّ يحكم بحكمة. أنت بهدى في العلم أبيض ناصع
لقد حررتنا من مظالم جمّة بعد المواضي المرفقات القواطع (٤)
وأطرفت قصيدة هي قصيدة ابن السليقة، وقد مدح فيها ملك الإنكليز،
الملك الذي انتصر في الحرب، وتبدو طرافتها في الروح البدوية والعقلية
الساخنة التي نهج بها الملك لجورج، فقد تصور الملك جورج ملكاً يبعث
أضيئه المزهية في القلوب، وتود عيون الملوك أن تكتحل بتراب أقدامه،
ويتصوره الشيوخ قلمه راجياً ناقة ذاهباً بها إلى لندن، ليتزل برحلة يباب
الملك، فقال:

دعائي وأخمدني ومدحني اتصل
هو الملك المرتضى في غلاه
لسلطاننا وعميد الدول
مراقى ينحط عنها زحل
وقال:

وإن السلاطين هانوا له
وإن ذكروا اسمه بينهم
وباتوا به يضربون المثل
لهيته يعزبها الوجمل
ومنها:

فيا راجياً ظهر مرقالة
ينادم نجم السما في سراه
يحوب الحزون بها والسهل
ويهوى بواد ويعلو جبل
أخبرها « بلندن » عند المليك
وقبل الاعتبار ذاك المحل
. كذا .

وقد نشرت جريدة دار السلام قصيدة لا تختلف عن غيرها من شعر
هذه الفترة إلا بالتكلف المزدوج الذي تكلفه (المعلم داود صليوا) في مدح
الجيش الإنكليزي بجمل كلمة « الحال » قافية لجميع القصيدة، ولم تخف
الحيلة هذا الشعور قالت « أدرجتنا هذه القصيدة على علاقتها مراعاة لصاحبها »،
وفيها مدح لإنكلترا التي أذلت الرعوس ودان لها السلاطين. وفي القصيدة

ذكر لحضارتها وسياستها للرعية التي عت الظلم والاستبداد وحررت العرب ،
وكستهم المجد ، إلى آخر ذلك ومطلعها :

بخال فتاة الخال اشغفى الخال فلا ثم عم يا أميمة أو خال (٥)
وقد مدح الشيخ عبد الحسين الحويزي (٦) الإنكليز ، والطريف أنه
احتفظ بهذه القصيدة بعد مرور وقت طويل ، فقد كتبت إليه أن يرسل إلى
بشيء من شعره السيامي فكانت هذه القصيدة ضمن ما أرسل به إلى ،
والقصيدة طويلة اتخذ فيها موت الملكة فكتوريا واسطة لمدح الدولة الإنكليزية ،
فرأى فيها كل المحاسن والمكارم السامية عدلاً ورحمة وفخراً لخصها بقوله :
وحوت في الدنيا مكارم جمّة طلعت بلوراً تردى وشموساً
ثم يسهب في وصف هذه المكارم من قوة ورهبة وسطوة وعدل ساد
الرعية ، وأفرط إفراطاً مجوجاً في المبالغة ، فهو لا يختلف بأى حالٍ من
الأحوال عن شعراء القرن التاسع عشر ؛ فقد جعل الشمس حاجباً لها ، والقمر
جليساً لها ، ثم امتدح ولدها الذي خلفها بقوله :

للدولة العليا شلاً أعقبست حفظت قريحه فكرة إقاموسا
ملك رعيته إذا ذكروا اسمه ضربت لئلل جلاله الناقوسا (٧)
وقد انصب بعض المديح على الجنرال ستانلي مود (٨) الذي منى العراقيين
في منشوره بالحرية والاستقلال ، وتحريرهم من الاستعمار بإقامة حكم وطني
في البلاد ، وقد أصيب القائد الإنكليزي بالهيبضة فمات ودفن في بغداد (٩) ،
وقد أسف على موته ، وظن بعضهم أنما قتل لأنه وعد العراقيين وعوداً
خلافة ، لذلك تسابقوا بقر من الشعراء إلى مدحه ، وظفروا بما يظفرونه لإنكليزي
من عطف القوم وراثتهم ؛ فمن الذين رثوه شاعر سعى نفسه « ابن الرثاء » :

(٥) دار السلام الممدد ٣-٢-١٩١٩ .

(٦) يبلغ من العمر الثامنة والثمانين سنة ١٩٥٤ « وشعره لا يسمو إلى مرتبة القريض .

(٧) القصيدة بخط يده ، وحلها آثار رعدة العمر ، في مكتبتي الخاصة .

(٨) حاول الوطنيون عدة مرات اقتلاع تمثاله المقام أمام السفارة البريطانية في الكرخ .

(٩) لاحظ جريدة العرب الممدد ٩٦-١-١٩١٧ ترجمة حياته ودفنته .

قد أتى مصصاب فادح عظما أورى بقلب المعالي زنده ضرما
 خطب ألم فأشجى المكرمات وقد فاضت لفجته عين الفخار دما
 أودى الحمام بمود باسل فغدا شمل العلا ببدأ إذ كان مستظما
 قد مات بحر الندى والمكرمات وكم قد فاض زآخره بالجود ملتظما (١٠)

وقد عنيت الجريدة بقصائد الرثاء التي نظمها الشعراء في « مود » ،
 ونشرت بعضها في افتتاحية لجريدة العرب ، فقد رثاه ابن العراق ، وابن
 السيارة ، وابن قفطان (١١) ، وغيرهم . . . ويقتضى الاستطراد أن أقول :
 إن إقامة تمثال « مود » ألم الوطنيين أشد ألم لأنه تمثال يمثل العبودية ، وقد
 سخر الشيخ علي الشرق قائلا :

كل رجال لعبت دورها وما وجدنا في السويدا رجال
 قد خللت بغداد منصورها وأنهبوا فيها « لود مثال »
 في كل يوم بهرجت دورها لأمة من أمم الاحلال
 يا لله يا من سبروا غورها ماذا وجدتم أمة أم خيال (١٢)

(١٠) العرب : المجلد ١١١-١-١٩١٧ .

(١١) العرب : الأعداد ١٠٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ .

(١٢) ديوان علي الشرق ص ٩٤ ، يقي التمثال شائعا في جانب الكرخ يمثل الاستعمار
 الجاهل على صدر العراق ، وقد جرت محاولات لقلعه ولم تنجح هذه المحاولة إلا في الرابع عشر من
 تموز ١٩٥٨ وقد أشارت الكاتبة الإنكليزية « دودين وارنر » إل رموز الإطاع والاستعداد
 والملكية في كتابها المطبوع في لندن سنة ١٩٥٧ :

الحرب والسلام

تردد ذكر السلام والحرب كثيراً في الشعر العربي ، ولعل زهير بن أبي سلمى أول من نظم في استهجان الحروب وذمها ، فقد وقف موقفاً كريماً سجل فيه مشاعر الإنسانية وبغضها للحروب ، وما تجره من ويلات ومصائب ، في قصيدة طويلة منها :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقم وما هو عنها بالحديث المرجم
مئى تبعثوها تبعثوها ذميمة وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتحرككم عرك الرحا بفالمها وتلقح كشافاً ثم تتججج فتشم (١)
ولا يكاد يخلو أدب أمة من وصف للحروب وويلاتها ، ونجد في كل عصر من العصور من يذم الحروب ويمجد السلام ، لأن الإنتاج المبدع المنظم لا يكون في ظل الحروب .

وتصاحب الدعوة إلى الحرب دعوة إلى السلام لأن الإنسان تهزه مصائب الحروب ، وتوجهه ويلات البشر ، التي توقف الحياة عن عملية الإنتاج وتجر إلى الحرمان والتشقق والجوع وفك الأمراض ، وتشريد الأطفال والنساء ، وازدياد المأسى والأحزان .

لذلك فالشعر خلال الحرب تسوده روح التشاؤم ، ويطغى بالحزن والألم الشديد ، مهما كانت دوافع الحروب ، ومهما يسبغ عليها مثيروها من نعوت وألقاب ، فالهنداوى يعرف أن الحرب أثرت ضد العدو الذي جاء

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى - تلط - ص ١٨ طبة دار الكتب المصرية

يستعمر بلده ، واضطر للحرب والقتال ليدافع عن وطنه ويثأر لكرامته وعزته ، ولكنه رأى ضرورة بغضبة ، فهو يدعو إلى الحروب مضطراً لأنها جهاد فيقول :

وإذا لم يكن من الحرب يست : فلتوها حرباً تشيب الوليدة
ولفت في الدفاع عن حرم الحب : قد بات وهو يشكو الجمود
أين قومي وهل ترى غير قومي : أمة تصدع الصف والحديد
إن قومي أبناء حطالة حازوا : طارف المجد والعلاء التليد
شهد السيف أنهم أمة يجر : مه إذا هزت الكماة البنود
وكنى بالحسام وهو أخو صدي : ق على البأس للرجال شهيد
ولكنه يضطر إلى إثارة الحروب التي كانت شراً لا بد من دخولها ،
فيصف مساويها التي حاقت بالبشر فقال :

شرر طبقى البحار هبوطاً : واعتلى قارب الوهاد صموداً
أحرق المال والنفوس وكنى : لا نباتاً يبق ولا جلموداً
صم وجن الصعيد لظراً فأمسو : كل شيء على الصعيد وقوداً

وصور مبلغ ألم الشاعر من الحروب ، وحملته العنيفة على العلوم التي خلقت هذه الآلات التي تفتك بالبشر فتكاً ذريعاً ، بينما خلقت العلوم لإسعاد البشرية لا استغلالها في الشر والفتك بأخيه الإنسان ، ولما رأى الشاعر مقدار ضراوة الحرب فضّل حياة القرون الوسطى وعصور التأخر ، لإتقاذ البشرية من اللمار الكلي الذي أحدثه عصر النور ، وكتب صفحات تاريخه ندماً الأبرياء فأحال صحائفه البيض المشرقة سوداً تسيل دماً ودماراً ، فقال :

يا زمان النور الذي قد ألا : ن العلم فد الصفا والحديد
لُح كئيباً فقد أعاد بنو الب : يوم منك الصحائف البيض سوداً
لعلخوا بالدماء وردة خديب : لك حقوة فثوتوا التوريد
وبكف العلوم جروا لنا الويلا : ت واسترغوا لها الشجود

كليت لا كانت العلوم ولا كما فوا وليت الذكى يفسدى البليدا
 حبنا لو بقى الجمسود وتعد ساً لقوم لا يشكرون الحمدوا
 إن عصر الجمسود عصر شريف عاش فيه الإنسان عيشاً رغيدا
 وقد ظهرت في هذه القصيدة ظاهرة جديدة بالإشارة إليها ، هي أن
 الشاعر سخط على الملوك الذين يرسلون بالشعوب إلى الحروب رغبة منهم
 في السيطرة ، وشهوة للحكم ، وإطفاء لشهوة الأحقاد والضغائن التي بينهم ،
 غير عابئين بما يحيق بالشعوب من ويلات ، وقد جزع الشاعر من هذه
 الحروب التي كان الملوك سبباً مباشراً في إثارتها ، فأخذ يستدر رحمة الملوك ،
 ويثير فيهم المشاعر الإنسانية ليكفوا عن هذا القتال ، وضجر الشاعر وجزعه
 من الحروب رد فعل لما حل ببلاده وبالبشرية من خراب ودمار ، فقال
 بصراحة :

رحمة أيها الملوك بأهل الأُر ضى وكفوا جيوشكم والجنودا
 ضاقت الأرض بالذى حلّ فرعاً فاكفهرت وأوشكت أن تميدا
 جردوها عواطفاً وشعوراً وادفنها ضغائناً وحقدوا
 وتلافوا بقية السيف منكم فهي بالسيف أوشكت أن تيدا
 وذكرهم بأن البشر سواء في العواطف والمشاعر ، وأن ليس هناك فرق
 بين إنسان وإنسان آخر ، فهم سواسية في العذاب والآلام والمشاعر حباً
 وبغضاً :

فارحموهم فهم وأنتم سواء قد تماثلتم أباً وجلودا
 لو رجتم إلى الحجى لبرأيتم سيد القوم لا يطول المسودا
 إنما الجهل أوجد الفرق في النا من فكانوا موالياً وعيدا
 وقد عبر الشاعر عن رأيه في الحروب أصدق تعبير ، وعزاها إلى المستفيين
 بها وهم الملوك ، وعلى الرغم من أنه ختم قصيدته بالدعوة إلى الحرب لم نجد
 الشاعر يندفع اندفاعاً دينياً في الدعوة إلى الخرب ، فلم يقل إن الكفار قلة
 ووطنوا أرضكم ، لأنه يرى الإنسانية تستباح ويفتك بها لأنه بعيد النظر ،

واسع الأفق ، رأى أموراً لم يرها غيره من الشعراء . رأى الإنسانية تتقرب من الملوك ، ورأى الملوك والرعية يتساوون في القتل والموت ، غير أن الظروف هي التي خلقت هذا ملكاً وهذا من أبناء الشعب . وعندما أراد أن يثير الحرب أثارها باسم قومه العرب ، الأمة التي تصدح الحلب ، والتي سجلت فخرها ومجدها في صفحات التاريخ ؛ لأن رغبة الشاعر لم تكن عميقة في اللود عن الأتراك ، فلم يحث صراحة على الحروب ، ولم يحرضهم ، ولم يطالبهم بصراحة ؛ إنما أوجب الحرب لأن العدو دخل حدود وطنه ، ويجب أن يحارب ليطرده من هذا الوطن :

إن ظني وأكثر الظن حـقاً إن قومي لا يرتضون التعوداً
سيخطون بالقواضب حـداً للعدو الذي تخطى الحدودا (٢)

أما « ابن البراء » فقد شاهد الحرب في الأرض والبحر والسماء ، ولم تنج بقعة من ويلاتها ، فصرخ من أعماق قلبه مطالباً بالسلام ، صرخ بالدول لترفق بالإنسانية ، وتخفف من مصائبها فقال :

جول الأرض أين أين السلام فعلى الرفق والحنان السلام
خففوا الويل عن بني الإنسان إنما الويل في الشرائع ذام
قد قست منكم القلوب وأنتم بشر مثلهم دم وعظام
ارحموهم فهم وأنتم سواء كلكم أنتجتكم الأرحام

وتساءل « ابن البراء » عن السلام ، ومتى تضع الحروب أوزارها ، وتستقر الأمور ، وتهدأ النفوس الضالة الجري ، ولكن استدرك فوجد أن موقدتي نيران الحروب هم تجار الحروب وهم الحاكون ؛ لذلك وجه تقريره ولومه على من أوجع هذه الحروب التي زادت نسبة اليتامى ، وفجعت الناس بالأعزاء من البنين ، ثم وقف صراحة وخص الملوك بهذا التقرير فهم الذين يعاملون أبناء الشعب معاملة الراعي القاسي للأغنام الضعاف ، وإلا فما فائدة الشعوب في هذه الحروب التي تشن لتروات الملوك ، ومنافعهم الشخصية ؟

(٢) صدى الإسلام العدد ٧٩-١-١٣٣١ وقد ثبتها في ديوانه المخطوط ، وعلى نسخة م .

وشهواتهم ، وفي إثارتهما الدماء والدموع والفناء والجوع والمصائب ، فقال
يخاطب الملوك :

إن لومي على الذى أجمع الحر ب حيث فى الحرب تكثر الأيتام
ولو أن الحروب فيها حياة لشعب من دأبها لا تضام
يا مياه أمطرى على الأرض دوماً غضباً فيه تهلك الظلام
يا ملوك الأرض أشفقوا بالرعايا شمت من رعاتها الأغنام
فاحفظ الأنعام تستعمرون الأر ض أم للأطماع تفتى الأنعام
إن يكن حربكم لنيل انتقام ففناء العباد ليس انتقام
حيث أهلكتم بها الحرث والنسل لم يرعكم شيخ قضى وغلām (٢)
وكان كل الشعراء على اختلاف يبناتهم يكرهون الحروب لأنها وسيلة
لتهديم دعائم السلام ، وتقويض دعائم الطمأنينة والأمان فى النفوس ،
وطريقة لبث الرعب والفرع فى قلوب الضعاف من النساء والأطفال ، فقد
نظم « الرصافى » قصيدة « من ويلات الحروب » مصوراً فقيرة أضعفها
الفقر من أثر الحرب فخارت قواها ، فأخذ الشاعر يخفف من وقع الألم ،
وكان ألقاها شديداً حتى إنه أبكاه وأوجعه . ثم هاجم الغرب مشعل الفتن والحروب ،
وذكر ما تصنعه الحروب من تبدلات فى حياة البشر عامة فقال :

قامت قيامة أهل الغرب فانبعث هزاهزينهم عمت بنى نوح (٤)
واستعطلت فتنة عمياء جائحة تمخضت من دم فى الأرض مسفوح
وقامت الحرب بالألواء شاملة كل البسيطة حتى الأبحر الفحيح (٥)
والأرض قد أصبحت من مكرها كبتها بحمرة اللوح أو مغبرة السوح (٦)

(٢) جريدة العرب : العددان ٨١ ، ٨٢ - ١ - ١٩١٧ وتراجع قصيدة ابن اليراع التى
يصف فيها إحدى الملوك .

(٤) المزاهر : الاضطرابات التى تهز الشعب . القصيدة فى الديوان ص ٢١١ .

(٥) الألواء : المجاعة ، وكن مصيبة شديدة .

(٦) اللوح : بضم اللام الهواء . يكفى فى البيت عما حل فى البلاد خلال الحرب العظمى من

المجاعة والمصائب العمة .

ضباقت على الناس وانسلت مسالكها فعاد كل طريق غير مفتوح
والحرب أغتت أناساً غنية عجيباً وآخرين رمتهم بالمجالح (٧)
ومعشراً أسكتهم في اللوا غرقاً ومعشراً بطن ملحود ومضروح (٨)
واللرصاني عدة قصائد في ويلات الحرب ومصائبها ، ففي قصيدته
« أبو دلامة والمستقبل » حرب شعواء على الحروب التي تشنها المطامع ،
فتسفك دماء الأبرياء ، وتيتم الأطفال ، وتفتى الجيوش بلحش فثة مخلوذة ،
أظهر كرمه للحروب التي تفتك بحريات الشعب ونفوسه ، فقال فيها :

أمن السياسة أن يقتل بعضها بعضاً ليلدرك غيرنا الآمالا
لا درّ دز أولى السياسة لإنهم قتلوا الرجال ويتموا الأطفالا
غرسوا المطامع واغسلوا يسقونها بلم هريق على الرى سيالا
لثروا النماء على البطاح شقائقاً وتوهموها الروضة المحلالا (٩)
تفتى الجيوش ولا ضغائن بينها سبقت ولا ثرة ولا أذحالا
قالوا كرهت الحرب قلت لأنهما دارت لتتصب الحقوق الآلا (١٠)
وأجلت فكرى في الحروب فلم أجد أبداً لمن سوى الخمر مثالا
طاشت منافعها الصغار عن الورى وروست مآثمها الكبار جبالا
ما أجشع الحرب الضروس فلنهما نحسو النفوس وتأكل الأموالا (١١)
وفي قصيدة أخرى يصف إحدى الوقائع التي حصلت بين روسيا
واليابان ، وما جرّت هذه الحروب على الإنسانية من ويلات ، لم يستهجن
شاعرنا الحرب لأن ويلاتها نكبت أبناء وطنه فقط ، وإنما وقفه
موقفاً إنسانياً كريماً فحاربها . لأنها تفتك بالإنسانية وتبيد البشر أجمع ،
وقد بلدت هذه الروح الإنسانية في قصيدته التي مطلعها :

(٧) المجالح : السنون الشديدة ذات التخط والمجلب .

(٨) مضروح : أصبح له غريح ، أى ميت .

(٩) المحلال : كثيرة حلول الناس إليها ودخولها .

(١٠) الآل : الأصحاب ، أى أن الحروب تسلب الحقوق أصحابها .

(١١) النيران من ٣٦٨ .

سعروها في البحر حرباً ضروساً تأكل المال نارها والنفوس (١٢)

وقد كان لإعلان الهدنة رنة فرح ومرور في جميع العالم ؛ إذ وقف سيف المصائب عن حصاده ، وطاحونة الآلام عن دورانها ، وبدأ الأمل الحلو يداعب الناس بحلول الاطمئنان والهدوء ، وبدأ السلام يرف بأجنحته على الشعوب في هذه المعمورة التي أنهكت قواها الحروب ، وأقيمت الأفراح في كل مكان - ولا سيما في دنيا المتصرين - وعبر « الزهاوى » عن فرحه هذا بقصيدة رأى في الهدنة طريقاً لتحرير الأمم من رق العبودية ، وأن الإنكليز سوف يأخذون بيد العراق نحو التقدم والرقى ، لأنهم أنقلوه من الأتراك ، وقد جاني الزهاوى الحق كله ، وأراد أن يتقرب إلى الإنكليز بقصيدته ؛ إذ اعتبر الهدنة سبيلاً لتحرير بلاده التي أصبحت قطعة مستعمرة للتاج البريطاني ، وغدت البلاد العربية بل أكثر الشرق تحت السيطرة الأجنبية . كيف رضى أن يغالط نفسه ، ويدعى أن الهدنة طريق لتحرير الشعوب من العبودية والاستعمار ، وقد أكد هذا المعنى في المقطوعات السبع التي نشرها في هذا المعنى ، فقال :

أتى الله حزب الحق نصراً فحرروا وراء انتصار في الحروب شعوبا
وأعطوا من العدل العراق نصيبه يسرون من أهل العراق قلوبا
وفي بيتين آخرين قوله :

قد انتهت المهالك والحروب وفي العقبى تحررت الشعوب
هتياً للعراق فسوف يلقى بذلك ما تطيب له القلوب (١٣)

واعتبر الزهاوى الإنكليز حزب الحق الذي خلق ليحرر الشعوب من الاستعباد ، وقد أوغل في الدعاية للإنكليز وحسن الظن بهم ، وظن بأن الشعوب كلها سوف تنال حريتها واستقلالها ، وأنها ستفوز بالخير العميم ،

(١٢) الديوان ص ٣٥٩ .

(١٣) تراجع جريدة العرب العدد ١٣٩ المجلد الثالث ١٩١٤ . والزهاوى باب في ديوان الزهاوى من ص ١٠٧ - ١١٧ المطبوع في مصر سنة ١٩٢٤ . ويراجع الباب ص ٤٨ والعرب ١٧١ .

وسيحف الرفاء بالعراق من كل جانب . فتعم الفرحة قلوبهم والعدل
ديارهم .

وقد شارك « محمد مهدي البصير » (١٤) الزهاوي في هذه البشرى ؛
بشرى المهدنة ، وتصور وجود السلام مدعاة مجد العرب وتحريرهم من
الذل والعبودية ، وتخيل أن هناك حفلة ستقام ابتهاجاً بهذا اليوم السعيد ،
وصفها بقوله :

أعاد لنا السلم مجد العرب فحيا الإله وأحيا حلب
على أسس الصلح قامت لهم عروش "دعائهم" الطلب
ستبني غداً بيد المالكين ولم تبنها اليوم هذى الخطب
أثارهم "ساسة الاضطهاد" فذاقوا الحياة بكاس العطب
ويوم على ذكر تحريرنا أقمنا بها حفلات الطرب (١٥)

ويتصور البصير أن الحرية التي حجبها المطامع وراء دخان المدافع جاءت
بعد المهدنة نجيح العرب وحلت في ديارهم ؛ لأن الحلفاء قرروا تحرير الشعوب
العربية .

وللبصير قصيدة أخرى يتحدث فيها عن السلام ، نشرها بتوقيع
مستعار (١٦) ، حشر فيها نظرية التنازع على البقاء ، ونظرية البقاء للأصلح
حشراً ، فقال :

(١٤) سألت الدكتور البصير عن هذه الحفلة فأخبرني متفضلاً أنها خيالية ولا صحة لما ورد
فيها .

(١٥) مجلة دار السلام العدد ٤ - المجلد الثاني - ١٩١٩ .

احضلت سلطات الاحتلال احتفالاً رسمياً ، وأثيرت أنوار الكهرياء ، وأرسلت النمام
النارية في الفضاء ، ووصف هذه الحفلة إبراهيم منيب الباجه جي بقصيدة في العدد ١٥ من المجلد
الثاني من دار السلام ١٩١٩ .

(١٦) قالت مجلة دار السلام : كل ما نشر في هذه الوضعية وفي جريدة العرب مذيلاً باسم
« ابن بابل » فهو لشيخ محمد مهدي البصير شاعر الحلة الشهير . العدد ٢١ المجلد الأول .

قلت السلام على السلام فقد أبى حتى الجماد مع الحياة سلاماً
 إلا إذا انقضى التنازع في البقا فالسلم ينشر في الورى أعلاماً
 والناس لو يتناصفون تصافياً لم يسق قوماً آخرون حمماً
 وليست الحروب كما ظنها الشاعر حرب تنازع على البقاء ؛ وإنما هي
 حرب استعمارية ؛ فالمستعمر يريد أن يوسع رقعة أرضه جشعاً ، وقد
 التفت البصير نفسه إلى هذا الأمر بعد ذلك ، واتخذ « غليوم » إمبراطور
 ألمانيا مثلاً ، فوصف الحاكمين الذين يستعبدون الشعوب ويلذون الرقاب ،
 وتطرق إلى أعمالهم التي أدت بالشعوب إلى الذل والهوان فقال يصف
 المستعمرين بقوله :

وقضى لهم غليوم في غلسوائه ألا يعيشوا وادعين كراماً
 لا درء الحاكمين بأمانة ولوا عليها الصارم الصمصاماً
 الطامعين بكل ما تحت السما وعصاهم لا يبلغون مراماً
 ويرز أعمالهم البشعة وقسوتهم التي سخرت بحق الشعوب دون أن
 يسمعوا نوح الثكالى ، وصراخ الأيامي ، فقال :

وإذا المدافع أسمعت أصواتها مثلوا قعوداً حولن قياماً
 شغلت مسامعهم فليس يهزها يوماً أنين أرامل ويتسامى (١٧)
 وللبصير قصيدة أخرى نشرت عام ١٩٢٠ وصف فيها الحرب وأعمال
 إمبراطور ألمانيا في باريس ورومانيا وبلجيكا والصرب ، وكيف دخل
 روما ، ثم وقوف « فوش » و « ولسن » بوجهه ، فحطما آماله ، وأجبراه
 على التنازل عن العرش ، فقال :

ولو لم ينازعه السياسة ولسن* لما خسر المجد الذي هو طالبه (١٨)
 وله قصيدة يرسم لنا فيها صورة رائعة لجريح في بلد متأخر في جميع
 إمكانياته ، ولا سيما الصحية منها ، وما يعانيه هذا الجريح من آلام الجراح
 حتى يتمنى الموت من هول هذا الألم فقال :

(١٧) دار السلام العدد الرابع - السنة الأولى ١٩١٨ .

(١٨) دار السلام ٣-٥-١٩٢٠ .

وثاكلة يئن لها جريح طريح لا يعلى بالسدواء
تمكنت القذائف منه مرمى فأيست الأساة من الشفاء
يئن إذا أضر الجرح فيه فيشجها فتجهش بالبكاء (١٩)

كانت آثار الحرب شديدة في الشرق ، وفي العراق خاصة ، فقد فتكت المجاعة بالشعوب الضعيفة التي لم تترك حكوماتها مغبة الأمور ، بعد أن توقفت المصانع عن الإنتاج ، فلم يتمكن الزارع من مواصلة الزراعة لأنه يحارب في المعركة ، وأما زرع لم يكف حتى للقوت الضروري لحياته ، وانشغال الدول بالحروب وقف حائلاً أمام التجارة فتدنّت الحياة الاقتصادية ، وفتك الجوع بالناس ، وبددت الثروات وتقوض العمران ، وتوقفت عجلة المدنية عن السير ، وتأخر ركب الحضارة .

ومع كل هذه المصائب التي حاقت بالإنسانية نرى المستعمرين يدعون إلى السلام ، ولكن على حساب اقتسام الشعوب الضعيفة ، واستغلال ثرواتها ، وامتصاص مواردها ، فيختصمون ، فيسخر الشاعر من هؤلاء بقوله :

يا دعاة السلم في قصر السلام أين مسعاكم إلى تأييده
أنتجت أتعابكم هذا الخصاص أفلا تقوى على تبديده
فهللوا اسعوا إلى رد النظام واعملوا حقاً على توطيده
وأذيعوه لدى أشياعه كم^٣ له بين^٣ الورى من شيعة
وإذا فتشت عن أتباعه لم تجد أنت سوى متبع (٢٠)

زبد أضنت الحرب كاظم الدجيلي وآلمته فتسائل : متى يعم السلام الشعوب فتطمئن بعد هلعها ، والقلوب بعد خوفها !! وعزا الحروب إلى القادة الطامعين بأوسمة براقة ، ويمجد زائل ، دون أن يرحموا جموع

(١٩) دار السلام ١-٣-١٩٢٠ .

(٢٠) نشرت القصيدة بتوقيع « شاعر متألم » في دار السلام العدد ١٧ من السنة الأولى ١٩١٨

وهي لباقر الشيبوي . راجع الأدب المصري ص ١٢٤ وترجمته في شعراء القرى .

الشعب وأطفاله وشيوخه ، ويبصرهم بالطريق السوي للشجاعة والإصلاح
فيقول :

ليس من أزهق النفوس شجاعاً ليس من جد فاتكاً بمجيد
إنما أشجع البرية طرّاً مصلح قام بين أهل الجمود
وتمنى أن يعم السلام ليعود المناء على الشعوب ويقضى على تجار الحروب
بقوله :

فمضى يا ترى يموت غواةً جنوده لقائد ومقود
فيعم السلام في الناس طرّاً ويعود المناء للمستعيد (٢١)

هذه هي الحروب بشرورها ، وآلامها ، ومصائبها ، وموقف الشعر
منها ، وفيها صورة لما حاق بالعراق من أحزان وآلام وفاقة وجلب وجوع
وأمرض ، والتي انتهت باستعباد العراق من الإنكليز ؛ فقد ظهرت المعاهدات
السرية التي قسمت الدولة العثمانية إلى مناطق نفوذ ، ولم يبق بعدها للخلافة
العثمانية نفوذ ؛ فقد احتل الحلفاء البلاد وهيمنوا على مقراتها ، وهرب
رجال الاتحاد والترقي (٢٢) الذين دفعوا الدولة إلى الحرب دفعاً ، فذاق
الأتراك مرارة الاحتلال والحكم الأجنبي .

وبلهاب الخلافة العثمانية بدأت الفكرة القومية تسرب إلى الأقطار
العثمانية ، وأخذت تدعو إلى تشكيل دولة مستقلة (٢٣) .

(٢١) دار السلام العدد ٦ السنة الثانية ١٩١٩ وقد وقعت بتوقيع ك . د . وقد وجدت على
نسخة مكتبة الآثار اسم الشاعر بخطه .

(٢٢) قتل أنور باشا في تركستان في ساحة القتال والتجأ طلعت باشا إلى برلين فقتله أحد
الأرمن ومات جمال باشا في تقليس ، فقد كان يقصد الأفغان لأنه كان يعني نفسه بتطهير دولة
العثمانية (على طريق الهند ص ٢٣٨) ويلاحظ ص ١٠٤ من هذا الكتاب وهناك تفصيل عن جمال
باشا في جريدة العراق العدد ٣٤٤٩ - ١٢ - ١٩٢١ .

(٢٣) على طريق الهند ص ٢٣٢ - ٢٤٤ بشأن التضميل والمصادر .

الثورة العراقية

- ١ - مميزات الثورة
- ٢ - التحريض على الثورة
- ٣ - المقاومة المسلحة
- ٤ - أثر الثورة
- ٥ - عرش العراق

معهدات الثورة

الثورة السياسية تأتي نتيجة أى ضغط على حريات الشعب ، فتهدد كيانه وشخصيته ومقوماته فيفقد جزءاً مهماً من حياته فيثور ليتخلص من هذا الكابوس الذى حال دون حريته ، ولينطلق إلى عالم رحب من السيادة والاستقلال ومتى ما أحكمت الثورات ، ووضعت المخططات الدقيقة للاحتالات التى قد تصادفها فإنها تؤدي إلى ما أرادته الثائرون ، وقد لا تنتج هذه الثورات لأسباب كثيرة .

ولا تكون الثورات فى بلد ، وليدة ساعة أو يوم يحد ؛ وإنما تحدث نتيجة لعوامل متعددة توصلها إلى ساعة الانفجار ، ولعل أهم عامل فى إنجاح الثورة هو تكوين الرأى العام الموحد الذى يتجه إلى الثورة والاستعداد لها .

ولا تختلف الثورة العراقية عن غيرها من الثورات ، فقد سبقتها عوامل كثيرة متنوعة يرجع بعضها إلى العهد العثمانى ، وبعضها جاء نتيجة للحرب العالمية الأولى ،

فقد بدأت بوادر الشعور القومى فى أوروبا ، وأخذت تتسرب إلى جميع الشرق فتأثر بها المثقفون العرب^(١) بطبيعتهم الثقافية ، وظهرت هذه النقطة بالحملات التى راح يشنها الأحرار العرب الذين رأوا الفساد وقد استشرى فى البلاد العربية ، فأخلوا يطالبون بالإصلاح ، وقد كان منهم الجريء المغامر الذى لم يخش صولة الدولة العثمانية حتى ليخيل لجرأته

(١) النتائج السياسية للحرب العظمى 151—140 p. — Ramsy Muir .

أنه غير موجود ، وأن اسمه مجرد توقيع مستعار ، لا امتازت به قصائده
من جرأة غريبة وتحد سافر للدولة العثمانية (٢) ، ومن مطالبة عنيفة
صريحة في الإصلاح فقد قال الرصافي :

كيف القرار على أمور حكومة حادت بهن عن الطريق الأمثل
في الملك تفعل من فظائع جورها ما لم يقل ، وتقول ما لم تفعل
ملأت قراطيس الزمان كتابا للعدل وهي بحكمها لم تعدل
وتبلغ به الجرأة النادرة أن يدعو إلى حكم جمهوري لإصلاح الأحوال
المردية في البلاد كي يرتفع الشعب من خضيف التأخر إلى أوج الرقي
فقال :

إن الحكومة وهي جمهورية كشفت عمية قلب كل مضلل
سارت إلى نجيح العباد بسيرة أبدت لهم حق الزمان الأول
فسموا إلى أوج العلاء ونحن لم نبرح نسوج إلى الخضيف الأسفل (٣)
وقد كانت الجرائد العربية في مصر هي الميدان الذي ينشر فيه الشعراء
شعرهم كالنريد والمقطم والمقتبس (٤) ، وقد نشر جميل صدق الزهاوي
في المقتطف قصيدة منها :

ألا رعى الله أوطاناً لنا انتهكت محبوبة السهل والوديان والكتب
قد أضرم الجور ناراً في جوانبها وأهلها بين نفاخ ومختب (٥)

(٢) حدثني الأستاذ الشاعر الكبير بشاره الخوري أنه لم يكن يصدق بأن معروف الرصافي
إنسان يعيش ؛ وإنما هو توقيع مستعار يتخذه أحد الأحرار لهجوم الظلم والجور .

(٣) ديوان الرصافي ص ١٦٢ وص ١٦٣ ويراجع (إيقاظ الرقود) ص ١١٦ و (تليه
النيلام) ص ١٠٣ .

(٤) الأدب المصري ج ١ ص ٩ و ص ٧٠ ويلاحظ مذ كرات معروف الرصافي التي أملاها
على الأستاذ كامل الجادجي الموجودة في المجمع العلمي وقد نشرتها مجلة الثقافة الجديدة في العراق .

(٥) ديوان الزهاوي (مصر ١٩٢٤) ص ١٩٦ وص ٢٨٠ - والباب (بنفاد ١٩٢٨)
ص ١٢ وص ١٤ .

ويصرخ الزهاوى يحجر القوم مما يحق بهم وما سيصل إليه مستقبلهم
قائلاً :

أيها القوم أيها القوم أنتم أمة ساقطون في مهواة
أيها الظلم هل زمانك ماض أيها العدل هل زمانك آت
وسأبكي قومي وأبكي بلادى وقبور الآباء والأمهات (٦)

وعندما بدأ الوعي القومى يتعرب بين طبقات المثقفين في الآستانة
وغيرها من البلاد العربية ، بلعوا بعقد المؤتمرات السياسية لمعالجة
حالة العرب ، والمطالبة بمساواتهم مع الأتراك ، وجعل اللغة العربية لغة
المدارس ، وأن يخدم الجنود العرب في البلاد القريبة ، وأن يكون بعض
العرب في الوزارة وفي مجلس شورى الدولة ، ومحكمة التمييز ، وأن تكون
نسبة الأعيان من العرب اثنين لكل ولاية ، وتجرى المعاملات الرسمية في
البلاد العربية باللغة العربية (٧) .

وقد أفسح الدستور العثماني للحركة القومية مجالاً واسعاً ؛ فقد أصبح
بمقدور الشباب العربى التكتل رسمياً ، وإنشاء الأحزاب التي أخذت تتنادى
بالفكرة القومية ؛ فقد أسس العرب عشر جمعيات ؛ أربع منها (٨) في

(٦) الباب - ص ١٥ .

(٧) لتفصيل يراجع في غمرة النضال ص ١٢٨ وما بعدها وجريدة صدى بابل العدد

١٨٤-٤-١٩١٣ .

(٨) جمعية الإخاء العربى شكلها شقيق المؤيد وزملاؤه ، والمتنبي الأدبى أسسه عبد الكريم
الزهاوى ، وعبد التكريم الخليل ، والجمعية القسطنطينية شكلها خليل حسادة باشا وعبد الحميد
الزهاوى وسليم التجار وزملاؤهم . وشكلت اثنتان في مصر واثنتان في سوريا ، أما في العراق
فقد أسس السيد طالب القريب جمعية البصرة الإصلاحية ، وأصبح لها فرع في الموصل باسم جمعية
العلم وكانت خاصة بالقضاة . وقد أنشأ عزيز باشا المصرى جمعية العهد السرية ، وغايتها استقلال
البلاد العربية استقلالاً داخلياً متحدة مع الدولة العثمانية ، وانتمى إليها كثيرون من ضباط العرب
وهي شعبة من الجمعية القسطنطينية .

راجع بشأن الجمعيات العربية في غمرة النضال ص ٨٥ وص ٨٦ وجريدة النهضة العراقية
العدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٣ ومايليه مقال قيم للشیخ عل الشرق ، ونهضة العرب لجورج أنطونيس -
للقصدين الخامس والسادس وثورة العرب - مقدماتها ، أسبابها ، نتائجها - بقلم أحد أعضاء الجمعيات =

الآستانة ، وكان لهذه الجمعيات أثر فعال في تنبيه الرأي العام العربي ، فقد أخذت الجرائد تنشر المطالبات وتعلق عليها وتطالب بتطبيقها . خاصة بعد ظهور المنصرية التركية والتمهيد لتريك العرب صراحة (٩) ، ولكن الأتراك الذين ادعوا أنهم منحوا الدستور لجميع شعوب الإمبراطورية العثمانية ، عادوا يسلبون ما منحه الدستور بعد أن تكاثرت الصحف العربية ؛ فقد بلغت (١٢) جريدة في بغداد وحدها ، وارتفع العدد إلى (٩٦) جريدة و (١٤) مجلة ، وبلغ في البصرة (١١) جريدة ، وفي الموصل جريدتان (١٠) . وقد زاد من أهمية هذه الجرائد أنها ميدان للمندفعين المتحمسين للدستور ؛ كالرصاصي وفهمي المدرس والزاوي ، وقد كانت على رأس هذه الجرائد جريدة (بغداد) التي كان رئيس تحريرها معروف الرصافي ؛ هذه الجرائد أخذت ترسل بأصواء جديدة ساطعة تكشف حال العرب ، وتدعو إلى المساواة والحرية التي نادى بها الدستور ، ومع أن بيع الجرائد كان محدوداً إلا أن أثرها كان كبيراً ؛ فقد كانت الآراء والأخبار تتناقل بين أبناء الشعب لأن الخبر الذي يقرأ تتناقله ألسنة الشعب في الدواوين والمقاهي وكل خبر جديد ، أوجدت طارئاً لابد أن يستأثر بالإعجاب أو الاستهجان ، وفي الحالتين يكون مجالاً للرد والنقد والنقاش ، وانتشرت كلمات جديدة ؛ كالـدستور والحرية والمساواة والعدالة والظلم والاستبداد والطغيان^{١٠} ، وكلمات أخرى لم يكن الشعب بقادر على ذكرها رددتها هذه الجرائد ، يضاف إلى ذلك أن الولاة والموظفين استهدفوا لحملة من الجرائد بالمطالبة بالإصلاحات التي حتمها الدستور حتى نشرت جريدة الرياض قصيدة

= العربية - مطبعة المظفر - مصر - ١٩١٦ ص ٥٦ - ١١٥ ، والثورة العربية الكبرى - لأمين سعيد ج ١ ص ٥٠ - ٥١ .

(٩) في غمرة النضال ص ٨٤ أغل بعض ما نشر في جريدة « إقدام الترك » .

(١٠) جريدة البلاد العدد ٤٧٢ شباط ١٩٣٥ . مقال مفصل لإبراهيم حلسي المر ويراجع

في غمرة النضال ص ٨٠ و ٨١ .

هاجمت فيها والى بغداد ناظم باشا(١١) ، الشخصية التي لم يكن يجرؤ
إنسان على ذكرها إلا بالاحترام والتبجيل .

ولعل أهم ظاهرة تستلفت النظر أن أكثرية الجرائد كانت جرائد
معارضة تندد بسياسة الحكومة التركية ، وتهاجم الاتحاديين الذين تنكروا
للمبادئ التي أعلنوها ، وكانت هذه الجرائد عنيفة في مهاجمة حكومة
الاستانة الاستبدادية ، وتدافع عن كيان الوطن العربي الكبير دفاعاً عنيفاً
بعد أن شعرت بما يبت لها الاتحاديون ، ولم يكن للاتحاديين سوى جريدة
أو جريدتين تؤيد سياستهم ، وتصد الحملات القلمية ، غير أن هذه الحرية
الواسعة أخذت تضيق يوماً بعد يوم وعدلت بعض القوانين وأخذت
الصحافة تعاني أعباء ثقيلة حتى أقيمت (٤٨) دعوى على الصحف الوطنية
وحكم على بعضهم بأحكام متفاوتة كالنفي والتعطيل ، فقر بعضهم خوف
البطش والسجن(١٢) .

وقد تكون الحكومات قادرة على كم الأقواء ، ومنع الحريات العامة ،
ولكنها لن تقلد على تبديل الاتجاه الفكري للشعوب الواعية ، فقد أخذت
الثقافة العامة في الانتشار بين الناس وتفتحت روح النقد والمقارنة ، وأخذ
العرب يشعرون بما يضرهم الاتحاديون ، وقد هاجمت جريدة (إقدام)
العرب صراحة فثاروا وتظاهروا(١٣) .

وقد نبه الوعي السياسي في العراقيين تأسيس دولة في الحجاز ، وأخرى
في سوريا بطابع عربي مستقل يحكمها العرب(١٤) شارك فيها جماعة من

(١١) جريدة البلاد العددان ٤٧٢ و ٤٧٣ وعن جريدة الرياض لسليمان النخيل النجدي ،
وهاجم الزهراوي ناظم باشا وما قاله : إنه وسع الطرق وضيّق الأفكار .

(١٢) جريدة البلاد ٤٧٣-٦-١٩٣٥ ويلاحظ في غمرة النضال ص ٨٠-٨١ و ٧١-٧٤ .

(١٣) في غمرة النضال ٨٣ و ٨٤ لاحظ رسالة السيد طالب النقيب الذي يقول فيها
(صلحني أعداء لغتنا وأمتنا ، ولاسيما خليل بك رئيس مجلس النواب بما في نفوسهم ، وهو أنهم
سوف يقتادونا إلى المذايق كما تساق الأغنام إلى المسالخ إذا كنا نحن العرب لاثوابهم على آرائهم
ونسير بأوامرهم) . في غمرة النضال ٨٧ .

العراقيين ، وكانوا سبباً من الأسباب في محاربة المستعمر راغبين في المساواة
بالدولة الحجازية والدولة السورية .

وقد غذى روح النقمة والألم في النفوس سوء إدارة المحتلين وامتهان
كرامة الشعب وحكمه حكماً دكتاتورياً عسكرياً أنهك الشعور الوطني ،
وللقضاء على الحركات التحررية والآراء القومية كان المستعمر يريد أن
يجعل من العراق تابعاً للهند ، وقد عومل الشعب معاملة سيئة ولم يكن المستعمر
يفهم روحية هذا الشعب للمستعمر ، وظنه سيعرض بسهولة له بالفكرات
التي يفرضها والسجون التي يحكم بها والاعتقالات والمناقب التي يصلرها
على أبناء الشعب الأحرار ، ونسى أن هذه الأعمال الاستفزازية أثارت في
نفوس الشعب الحقد والكراهية للاستعمار الإنكليزي ، خاصة ، وقد
ظلم المستعمر الطبقة المثقفة الواعية وقادة الرأي فيه (١٥) . وقد بدا ذلك
واضحاً بالتصلب الذي أبداه الشعب وتمسك بمطالبهم بالاستقلال دون
خوف من التضحيات والآلام التي كان يصيبها عليهم المستعمرون . وقد
عكس هذا الرأي محمد رضا الصافي في شعره الذي نظم في السجن ،
وقد كان قد عرض على المشتقة ثم عفى عنه قال :

إن من رام مثملاً قد طلبنا لا يلى إن سيق الموت موقاً
رخصت عندنا النفوس فترنا نطلب العز والعلا لا لنقى
ولقد سامنا العدو احتقاراً فرآنا نستبق الموت سبقاً
أنا من أسرة كرام أباة لا يرون الحياة في الذل أبى
شرح أن يكون موقى حقاً أو أراى يكون موقى شقاً (١٦)
وظهرت روح النقمة والثورة ، على الاستعمار الإنكليزي واضحة في

(١٥) كان الحاكم السلي في النجف إذا أراد التجول في الطرق يرسل لفيماً من الشرطة ويدهم
السيلط يجبرون الناس على الوقوف احتراماً للقادم ويمبارات شائعة (العراق في دورى الاحتلال
والانتداب - ص ٣٦-١ ص ٦٥) . ولا حظ (الخفايا للناسمة) ص ٢٥٢ فيه مثل آخر .
(١٦) الأمواج لصافي النجفي ص ١١٩ ضمن التخصيص . ومن المفيد مراجعة قصيدة محمدجواد
الجزائري ص ٤٠ ج ١ في (العراق في دورى الاحتلال والانتداب) .

الشعر العراقي ، تطالب بالكرامة واحترام العراقيين الذين لا يقبلون عن المستعمرين في المزايا . أليسوا بشرأ لهم عواطفهم وأحاسيسهم ؟! فلماذا يمنع الإنكليز في إذلالهم ؟! . إن الشعب العراقي شعب يعتز كثيراً بفرديته وإنسانيته ، وقلما انصاع إلى حاكم أو سلطان يريد أن يحتقره ويفرض عليه رأيه ، شعب يحب الحرية الفردية ويتمسكها ، بيد أن الحكام الإنكليز أساءوا إليه ، وأساءوا إلى حكوماتهم زاعمين أن الشعب في العراق يريد أن يبقى الاستعمار الإنكليزي ، وأن استمرار حكم الاستعمار سوف يوطد النظام كما صنع (ولسن) في الاستفتاء الذي أجراه (١٧) ؛ فقد بعث إلى الحكام السياسيين في الأولوية والأفضية ، يطلب منهم أخذ رأي الشعب لتقرير مصير العراق ، ومعه تعليقات خاصة توجههم بها إلى وجهة نظره في الاستمرار في الحكم البريطاني ، غير أن الاستفتاء قوبل بالمقاومة الشديدة ، ويتوقع عرائض تطالب بإقامة حكومة عربية إسلامية ، ملكها عربي مسلم مقيد بمجلس تشريعي وطني (١٨) .

كانت هذه الأمور تجري أمام سمع الشعب وبصره ، ولكنه لم يكن يتأدر على أن يصنع شيئاً ؛ فقد كانت قوات الاحتلال تفوقهم عدة بعدداً ، لذلك كانت شكاواهم مؤلفة دفينة كقول محمد الباقر الحلبي :
 لمكوت إليك لا جزعاً ولكن لتعلم كيف قد حكموا فجاروا
 ماأبى ماحييت أبا (على) ولي يوم مع الحلفاء ثار
 أبا الأشبال عفواً سوف أبى أجاهد كي يتم لنا انتصار
 ستمت المكث في كنف الأعداى فهل لي في جواركم قرار
 وروح النعمة كانت روحاً نائرة تريد الانتقام من الخصم العنيد الذي
 أذلنا في كل مكان عاشت فيه . في الشارع وفي البيت وفي السجن ، فقد

(١٧) لاحظ بشأن الاستفتاء (الحقائق الناصحة) ص ٦٩ .

(١٨) المصدر السابق ص ٦٩ والصفحات التي تليها . لاحظ ص ٨١ فتوى محمد تقى الشيرازي التي قلعت لسان كل غليظ فقد قال : ليس لأحد من المسلمين أن ينتخب أو يختار غير المسلم للإشارة أو السلطة على المسلمين .

كان المسجون يقابل بأسوأ ما تقابل به الحيوانات من جوع وعري ،
يفترش الأرض ويلتحف السماء فقد قال محمد الباقر يصف حالة السجين :

نقضى يومنا جوعاً ونحس وليتنا بمائلها النهار
نبيت بلا فراش أو وساد لكل ثلاثة منا لذار
لرب السجن نسط كل حين أكفأ خط فيهن الصغار (١٩)

ولم تكن هذه الحال محتملة ، حتى من أولئك الذين كانوا يسرون
في ركبة الإنكليز ، ويوالونهم فلم يصطبر الزهاوي على حالة العراق
العامة ، إذ بلغ الظلم أقصاه ، وأسبغت على المحاسب النعم والأموال ،
فكانت قلوبهم تغلي من الغيظ والنفمة والألم ، وليس غير الاستقلال من
دواء شاف لهم فقال :

يا أيدي الظلم شلى ويا بلاد استغلى
ويا رجاء تعمز ويا مصاعب ذلى
حتى يقول من القصيدة :

ليس الحياة بعز مثل الحياة بذل
قد جاء يوم بأيدي فيه أكسر غلى
إن القلوب من الغيظ كالمراجل تغلى (٢٠)

ولم تكن قلوب طبقة من طبقات الشعب العراقي راضية على الاستعمار
الإنكليزي لما جاءت به من حكم عسكري يسوق الناس على الظن ، وينهم
المثقفين وغير المثقفين بدون حساب وبدون محاكمة لذلك كانت نفوس أبناء
الشعب تضطرم وتضطرب وكان من جرائها ثورة الشعراء العارمة لمصاولة
المستعمر لربح الحرية والاستقلال وقد بذل الوطنيون جهوداً في سبيل إعداد

(١٩) مخطوطة في مكتبة الخاصة تفضل بها كل الشاعر وهي بخط السيد حسن مزالم .

(٢٠) الباب ص ٩٤ وديوان الزهاوي ص ٢٩٥ .

الرأى العام وتوجيهه بما نشره من مقالات وما كانوا يخطبون به فى المساجد ، أيام الجمع ، وأيام ميلاد الرسول ، وغير ذلك من المناسبات ، وما كانوا يتحدثون به فى مجالسهم ودواوينهم ، وما كانوا ينشرون فى مدارسهم . كانت ثورة عصفت بالظلم وامتهان قيمة الشعب كبدت الظالمين ومن يسير فى ركبهم الغالى .

التحريض على الثورة

كانت مطالب العراقيين بادئ ذي بدء همسات ، ورسائل يكتبها بعضهم إلى بعض لإظهار الامتناع والنعمة والألم ، مما وصلت إليه الحالة العامة للبلاد من السيطرة المباشرة على جميع مقلبات البلاد من قبل جيش الاحتلال ، ومن تلك الرسائل رسالة بعث بها سعد صالح سنة ١٩١٩ إلى صديقه الشاعر أحمد الصافي يدعو فيه إلى بث روح المقاومة ضد قوات الاحتلال ، ويدعوه صراحة فيها إلى ثورة مسلحة لتخليص البلاد من الاحتلال لأن الاحتلال عار لا يرضاه العراق ولن يغسل هذا العار إلا سيل الدماء وتطهير الأرض الكريمة من سيطرتهم . كتب يقول :

عزيز على الحر تلك البلاد^(١) يراها رهينة قهارها
أحمد قف بضواحي العراق^(٢) وناد بواسل أحرارها
إلى كم نكابد مرّ الهوان^(٣) وتشق البلاد بأغيارها
أما أن أن تتضي بيضها^(٤) وترمي الغداة بثوارها
لعمل الدماء إذا ما جرت على الأرض تغسل من عارها^(٥) (١)

ومن ثم أخذت هذه همسات وهذه الشكاوى تصير من هذا الطور إلى الخطب في المساجد ، وفي المناسبات الدينية لأن الاحتلال الإنكليزي العسكري أخذ يشعل روح الثورة في النفوس ، ودون خوف من السطوة والقوة^(٦) (٢)

(١) سعد صالح ص ١٤٧ .

(٢) لاحظ ملحق رقم ٤ ص ٣٢٥ من كتاب Sir A. L. Haldane تجد إحصائية مفصلة فيها .

إذ صمم العراقيون على عمل شيء يستعيدون به كرامتهم المهلهلة ؛ فبدأت حركة التحرر تخرج من طور الفكرة إلى حيز العمل . وقد كان يغذى هذه الروح الرأي العام العالمي ، والجمعيات المرية التي كانت تعقد اجتماعات لتنظيم السياسة التي تسير عليها ، ومن ثم توسعت هذه الجمعيات وأنشأت لها فروعاً في كثير من أنحاء العراق ، وقد كان محور الحركة بغداد التي اتصلت بالنجف ، وتعرف القائمون بالحركة على استعداد الوطنيين جميعاً لمؤازرة حركة الاستقلال التي تديرها جمعية حرس الاستقلال ، وما زاد في قوة الحركة الوطنية انضمام أعلام رجال الدين ومؤازرتهم لها ، ونشر بلاغ من الحكومة الإنكليزية ، تعلن الانتداب على العراق (٣) .

اجتمع الوطنيون وقرروا القيام بمظاهرات سلمية تحت الستار الديني واغتنام شهر رمضان (٤) ، وإقامة سلسلة حفلات لاستثارة روح الشعب . وقد كان الإقبال يزداد يوماً بعد يوم ، وأخذ الوطنيون يحتفلون في عقد هذه الاجتماعات ، تارة بإقامة حفلات للمولد النبوي ، وأخرى بتغيير مواعيد هذه الاحتفالات ، ومرة بنقلها من محلة إلى محلة أخرى . وقد كانت هذه الاحتفالات الدينية تتطور إلى تجمعهم الشعب وخروجه ساخطاً على الإدارة المحتلة . وأشهر المساجد التي اشتهرت في هذه الاحتفالات كان جامع الحيدرخانة ؛ فقد كان الخطباء يتولون مهمة حث الشعب على الثورة بعد الصلاة أو بعد قراءة المولد النبوي (٥) متخذين من جهود الرسول (ص) وصبره على مبادئه وتفانيه في سبيل الإسلام رمزاً ، ومن استشهاد الحسين وإيائه وتضحيته نبراساً يدفعون بها الشعب نحو الثورة .

فلما رأت سلطات الاحتلال خطر هذه الاجتماعات منعتها ، وأخذت ترهب الناس بالرشاشات (٦) ، ومن هذه الاحتفالات احتفال أقيم في

(٣) العراق في دورى الاحتلال والانتداب ج ١ ص ٨٠ .

(٤) يلاحظ منشور القائد العام في تاريخ القضية العراقية ص ١٥٨

The Insurrection in Mesopotamia P. 36.

(٥) ويلاحظ تاريخ القضية العراقية ص ١٤٦ وما بعدها .

(٦) في غمرة النضال ص ٢٢٥ .

الحيدر خانة وأنشد السيد عيسى عبد القادر قصيدة دعا فيها صراحة إلى الثورة شارحاً ماحل بالبلاد من جور واستبداد منها :

بنى النهرين نسل الطيئينا أفيقوا واسمعوا الحق اليقيننا
تفرقنا طوائف واختلفنا فأصبحنا جميعاً صاغرينا
وأسلمنا بأجمعنا لقوم بغاة من طفاة جائرينا
فجاروا واستبدوا ما استطاعوا وذا شأن البغاة الظالمينا (٧)

ولست هذه القصيدة من عيون الشعر العربي ، وليست من خير ما نظم في هذه الفترة ، ولكن جو الاحتفال وطبيعة القرد في الجموع المتحمسة وانقاد الروح الوطنية في هذه الفترة أظهر للقصيدة أثراً كبيراً ، ولم تكن هذه القصيدة الوحيدة التي ألفت ؛ فقد كان من خطباء هذا الاجتماع عبد الرحمن البناء ، وطالب مشتاق ، والشيخ مهدي البصير ، وعبد الرزاق الهاشمي ، ولكن كان أثرها أكبر من أثر غيرها من القصائد مما اضطر السلطات العسكرية إلى اعتقال الشاعر وإرساله إلى البصرة .

فما كان من الوطنيين إلا اغتنام هذه الفرصة فاحتجوا احتجاجاً شديداً وأغلقت المخازن ، ووقفت الأعمال وأقيمت مظاهرة كبيرة احتجاجاً على هذا الاعتقال (٨) جرت إلى قتل أخرس دهس بسيارة فاحتفل به احتفالاً رائعاً وسماه الناس (شهيد الوطن) لإثارة الوعي القومي في النفوس (٩) .

(٧) غطوبة في مكيتي بخط الشاعر .

(٨) اجتمع المظاهرون في جامع الحيدرخانة وانتخبوا من يمثلهم لمفاوضة سلطات الاحتلال في إلغاء الحكم العسكري وتأسيس دولة عربية . لاحظ أسماء المتنبيين في (ق حرة النضال) ص ٤٧ .

(٩) يقول الأستاذ البصير في ١٥٠ من تاريخ القضية العراقية : إنه قتل بطلقة وكان من نتيجة ذلك أن أرسل حاكم بغداد العسكري والسياسي في طلب السيد أبو القاسم ، والشيخ أحمد الشيخ داود والشيخ أحمد الظاهر ، وجعفر أبو التمن ورفعة الجادرجي والشيخ سعيد النقشبند وعبد الرحمن الحيدري وعبد الوهاب النائب وعمل البارز ركان والسيد عبد الكريم حيدر وقواد العفري والسيد محمد الصدر ويوسف السويدي ويسين الخضير ومحمد مهدي البصير .

راجع تاريخ القضية العراقية بشأن ترجمة كل واحد منهم ص ١٥٠ وما بعدها .

وقد كان خطباء الثورة وشعراؤها يبذلون جهدهم في تحريض الناس بإخلاص ووضوح ، محددين هدفهم وغايتهم التي كانت محاربة المستعمر وطرده من بلادهم ، وقد ظهرت هذه الرغبة في محاولتهم لإقناع الشعب للسير متضامناً معهم ، لأن إقناع الشعب في أمر من الأمور ، والإيحاء إليه سيدفعه بعنف وإخلاص وبلا شعور ، لذلك كان الشعر يطفح بالوضوح وكلمات الحماسة ، حتى يفهم الشعب سريعاً ويسر وسهولة . فابتعد عن التقليد والتقييد وجانب الصناعة اللفظية وانتقاء العبارات ، وركز على الكلمات المثيرة المبهجة التي تمس الشعب الحساس ، وقد ظهرت روح العراق الحزينة في شعره جلية فقد كانت الموم تطفح من ثنابا شعره فقد قال عبد الرزاق الهاشمي :

وطنى العـزـيز إلى مـي متكبـد كلّ اضـطـهاد
يأبـها الشـعب الـلى اضـطـهدوك كم لك من أيادي
رتـمـوا بنـعمـتك الـى درت على حـب المـراد (١٠)

وقد كانت الخطب والقصائد مسابقة وطنية سمت في روحها ومشاعرها وطفحت بنغمات وجدانية عاطفية عميقة لأن الشاعر كان يحس بأنه يكافح عن حقوق بلاده ، ويريد أن يهز جماهير السامعين وينقل إليهم مشاعره . وكان الشاعر المحلى هو من يسيطر عليهم ، وإلقاء هذه القصائد تكسب الشاعر فخراً وعزاً لسببين : الأول المناسبة الوطنية ، والثاني ما تضيفه الجماهير على الشاعر من احترام مملأ النفس غبطة وسروراً ؛ أما من الناحية الفنية فإن هذا الشعر لن يكون خالداً لما يذهب بذهاب المناسبة التي قيلت فيه ، بيد أنه يقوم بواجبه خير قيام فيغذى الثورة ويدفعها . ومع ذلك فإن هناك بعض الطفحات الفنية يتلمسها الباحث بين خضم الشعر الهادر . وليس شعر الثورة في العراق وحده اخص بهذه الميزة ؛ فكل شعراًة في مثل هذه المناسبة يكون من نصيبه مثل شعر هذه الفترة ؛ لأن الثورة اندفاع وحماس وعاطفة متأججة ، ولا مجال للروية وإعمال الفكر وتعميق الأساليب ، ولا يكون شعر

الروية إلا في أيام هلوء الأمة وصفوها واستقرارها ؛ لأن الفن وليد الاستقرار
والهلوء والطمأنينة . أما شعر الثورة فهو الوقود لإذكاء الشعور بالأنفاظ
والموسيقى .

وقد كان يغذى هذا الشعر شعور عميق كامن في حنايا الصدور ، هو الشعور
الديني يغطي طوراً بالوطنية ، وآونة بالقومية ، ومرة يبرز مع بغض المستعمر ؛
لأن الشعور الديني الذي تربى عليه هؤلاء الشعراء كان يجرى في أحاسيسهم
وقلوبهم ، فجرى مع التيار القومي الجديد . ثم إن الدين الإسلامي كان
الرابطة التي تربط العرب بالعمانيين الأتراك ، وليس من السهولة أن يتخلص
المرء من عقيدته أو دينه ، وتثور في نفسه بين آونة وأخرى ثورة على ماصنعه ،
إذ كيف يهاجم إخوانه المسلمين . هو بحاجة إلى إقناع نفسه وتبرير عمله هذا :

وقد كان من هؤلاء الشعراء المخلص المؤمن بعقيدته ، محارب من محاربه
المسلمين ، ولكنه حارب الدولة العثمانية في سبيل استقلاله وفي سبيل حريته
وفي سبيل عروبتة ، فجاء الإنكليز وسيطروا على العراق ، وهم بعيدون عن
الشعب بكل شيء . فكيف يرضى الذل تحت سيطرة الحكم الإنكليزي الذي
يسومه سوء الموان ١١ لذلك اتخذ الشاعر العربي المسلم الدين وسيلة ليرضى
ضميره وقلبه ، والفكرة الدينية التي ركن إليها الشاعر تمنع حكم غير العربي
المسلم الهاشمي ، وحكم الإنكليز مخالف للمنطق الإسلامي والحق ، فقال
محمد حبيب العبيدي :

ما تركنا إخواننا الأتراكا فخذلناهم ووازرناكا
شغفنا يا ابن لندن بهواكا بل لنيل استقلالنا بولاكا
فلماذا تكون فينا وصيا

ويلد بالحجة والأسباب التي تمنع الإنكليز من أن يكونوا أوصياء على
الشعب فقال :

لم تكن يا ابن لندن علواً هاشمياً لا ولم تكن قرشياً
لا ولا مسلماً ولا عريباً من بني قوما ولا شرقياً
فلماذا تكون فينا وصيا

لذلك فالاستعمار الإنكليزي استعمار جائر ، استعمار يجب أن يحارب ، لا تفره أصول البشرية ، ولا القواعد الإسلامية ، وبقاء الإنكليز سيستم إلا إذا شن العرب الغارة ، وطردهوا المستعمر بالقوة ، وليست قواهم بتاركة هذه البلاد إلا بالمبادرة إلى العمل : لأن سكوتنا سيخيب الآمال :

إنما نحن في الحروب رجال وكما يوم الوغى أبطال
يا لقومي فلنتتج الأعممال يا بني العرب خابت الآمال (١١)

إن رضينا بالأجنبي وصيا

وقد نظم خلال الثورة شعراء آخرون (١٢) وقد كانوا جميعاً متفقين في هدف هو المطالبة بإنهاء الحكم الأجنبي في العراق ، وإنشاء حكم وطني أساسه الاستقلال والحرية. فمن هذه القصائد التي ألفت في جامع الجيلرخانة قصيدة عبد الكريم العلاف (١٣) منها :

ألا خبروا عنا العدا بأنا أناس على ذل الوصاية لا نرضى
وقولوا لهم وفوا العهد فحلفكم أسود عربن رابضون لكم رضاء
فنحن عرفناكم بكل سياسة وإن كان بعض منكم يجهل البعض (١٤)

وأشهر شعراء الثورة العراقية هو محمد مهدي البصير ، فقد جاء من الحلة إلى بغداد لإنشاء الشعر ، وإهاجة الناس وتحريضهم ، وبث روح الحماسة في نفوسهم ، وقد كان البصير قوياً عنيفاً متحمساً مكثرأ ، فكان ذلك مدعاة نفيه إلى (هنجام) بعد أن سجن في العراق . ويمتاز شعر البصير بأسلوب جزل ، ومتانة في التعبير ورصانة في الألفاظ ، وتبلو المسحة العباسية

(١١) الأخبار في سير الرجال ص ١٣٤ .

(١٢) إن استقصاء أسماء الشعراء لا يمكن حصره من هؤلاء الشعراء الذين عرفناهم على نتائج محمد مهدي البصير ، ومحمد حبيب الميولي وعبد الرزاق المالحى وعيسى عبد القادر ومحمد الباقر الحلي وملا حسان الموصلي ومحمد حسن الحداد الكاظمي ومحمد عبد الحسين سرکشك وناجي القشطيني وعبد الرحمن البهاء وحسن الجواهري ومحمد مهدي الجواهري ومصطفى جواد وعبد الكريم العلاف .

(١٣) أخبرني الأستاذ العلاف بأنه ألقى ثلاث قصائد في مناسبة الثورة

(١٤) مخطوطة في مكتبي نقلها من ديوان الشاعر .

واضحة على شعره ، ومن قصائده قصيدة طويلة مخاطب بها الوطن ، ويحرض أبنائه على الثورة ، ويقدم نفسه فداء له . ويتمنى هذا الفداء والموت في سبيله ، وإلا فلا حق له في أن يلفن في ثراه الطاهر الزكي ، وثم يفضح نوايا الاستعمار والساسة الذين موهوا عليه ، فقال من قصيدة ألقاها في جامع الأحمدية :

كلبتك أقطاب السياسة عهدها فلتضمينّ لك الحياة ضباكا
أفطيلون لك الرعاية ضلّة ما كان أقصرهم وما أحجاكا
ويؤملون لك المعونة باللهها ما كان أقصرهم وما أغناكا
لو أنصفوك لحروك لأنهم ربحوا قضيتهم بظل لواكا
ومنها :

ما أولع الأحرار منك بتريّة يفدون منها بالرقاب رباكا (١٥)
يصبر قنيلهم بكل صفيحة أخذته حتى صار من قتلاكا (١٦)

وله قصيدة تتجلى فيها الروح الأبية التي كانت تسيطر على روح الشعب المتوئب ، فقد أراد هذا الشعب أن يتحرر بقوته وأن يأخذ حريته أخذ القادر العزيز ، ولا يريد لها منحة يعطيها له المستعمر فيكون المتفضل ، قال البصير :
ليحطم المستعمرون قيودهم فالجو أسهم من الأعناق
وأشق من أسرى على بأن أرى يد أسرى يوماً تحمل وثاق (١٧)

وقد فاضت القصائد التي نظمت في هذه الفترة بالحث على الثورة ، وبالغنى بالأجداد العربية ، فقد أراد الشعراء أن يبعثوا في الشعب ثقته بنفسه وبكرامته ، فيرى نفسه نظيراً لهؤلاء المستعمرين قوة ومقدرة ، لذلك اتخذوا التاريخ الإسلامي معوناً لهم في دفع الجماهير نحو الثورة ، وطفحت القصائد

(١٥) لم يمكنني الدكتور البصير من ديوانه لذلك احتضت حل المنشور من شعره ، ولعل الظروف التي كانت قائمة عندما كتبت هذا الكتاب ومنعت الاستفادة من ديوان الشاعر قد زالت.

(١٦) الأدب المصري ج ٢ ص ٩٧ وله قصيدة نشرت في جريدة العراق العدد ٥٨١١-٢١ في ١٨ حزيران ١٩٤١ وقد ألفت الكافية في جامع الأحمدية. راجع الوقائع الحقيقية ص ٩٦ و ٩٧.
(١٧) الوقائع الحقيقية ص ٩٦ وله بعض قصائد ذكرها المؤلف .

بالحث على كره الأجني ، وكان هذا الكره نتيجة حتمية ، وصدى لواقع العراق الذي سامه الاستعمار الهوان ، وأذاق أبناءه الذل . إن كره الإنكليز أدى إلى كره كل أجني ، ومقت كل غريب عن الشعب خوفاً وحذراً ، مما يجره عليهم هذا الأجني الغريب ، ما جره الإنكليز وحلفاء الإنكليز عليهم ؛ فهذا القشطيني (١٨) يسخر بحرارة من وعودهم التي حثوا بها فيقول :

قد غرك البرق اللامع فبات صدرك منشرح
وفرحت من كل الوعود وخاب من فيها فرح
أين الخليف وأين من يصغي إليك فتبجح
قد خان عهدك هازئاً لما بتجبرته ربح

ثم ظهرت الدعوة الصريحة لأخذ الحق بالقوة ، فقد فشلت الطرق السلمية في أخذ الحق من يد الظالم ، ومتى سلم الظالمون بالحقوق بسهولة ؟ وقد كان بالأمس حليفاً حارب معه العرب ، وتحملوا من أجله الموت فانقلب سيدياً شرساً ظالماً . فهناك مبررات كثيرة دفعت العربي إلى حرب الخليف الذي لم يرع الدمام ، وهل هناك شرف وفخر يزاحم شرف الموت في سبيل الأوطان وفي سبيل الحياة الكريمة ؟

يا أيها العربي قم واقطع زنادك بقطع
واقطع طريقك بالطغي فبغيرهما لا ينصلح
وعلى الحقوق جميعها أو مت عزيزاً واسترح (١٩)

وقد قال البناء : إن إنكلترا تدفعنا للحرب دفعاً ، ولكن متى ما حاربناها فستكون الحرب صغيرة تنلظي نحرهم ، وستحاربها لأن الحرب خير طريق للحرية برغم ما في الحروب من مآسٍ وبلايا قال :

وإن أبلأتنا للحروب فإننا نحاربها حرباً تضيق خناقها
نحاربها والحرب خير محرر وإن كره الأغوار مرّ مذاقها (٢٠)

(١٨) أن القصيدة الأستاذ توفيق المختار في جامع الشيخ سنبل في الكرخ .

(١٩) مخطوطة بخط الشاعر في مكتبته وقد نشرت في مجلة الأخلاق العدد ١٦٦ السنة الأولى ١٩٢٨ .

(٢٠) مجلة الأخلاق العدد ١٦٦ السنة الأولى ٨ مارس ١٩٢٨ .

المقاومة العلنية

ما كان العراقيون مستعدين للثورة؛ فلم تكن الآراء قد تبلورت واستعدت لها من قبل وإنما دفع العراق لها دفعاً؛ فقد كانت آراء القادة والزعماء غير مستقرة، فكان منهم الخائف الضعيف، ومنهم المروى المترن الذي يخشى على العراق نتائج (فشل الثورة)، ولم تكن للثورة خطة واضحة للسير في هذاها، ولم يكن هناك رأى عام موحد لنظام الحكم الذي يريدونه، وإنما كانت آراء مضطربة واتجاهات ليست مدروسة؛ فهذا يريد العراق تحت حماية بريطانيا (١)، وذلك يريد لها حكومة ملكها برمى كوكس (٢)، وجماعة يريدونها ملكية وكثيرون يفضلونها جمهورية، ويثار الاختلاف فمن يكون الملك، ومن يكون رئيساً للجمهورية، ولا يصلون إلى نتيجة يتفقون عليها.

ولكنهم كانوا متفقين على شيء واحد هو الحصول على الاستقلال وحكم العراق من قبل أبنائه. أما موقف سلطات الاحتلال فقد كان المماثلة المستمرة دون النظر إلى التصريحات التي كانت تنشر عن حق تقرير المصير (٣)، وكانت تعامل العراقيين معاملة سيئة وتهين الشعب وتستفزّه؛ فقد التجأ (ولسن) إلى العنف، وأخذ يمنع الحفلات التي تقام في المساجد، ولما اجتمع

(١) الوقائع الحقيقية ص ٦٤ و ٦٨ .

(٢) الوقائع الحقيقية ص ٦٩ .

(٣) تاريخ القضية العراقية ص ٧٨ والذراع من الاحتلال إلى الاستقلال ص ٢٦ والحقائق الناصمة والعاريف أن ينل تمريح بريطانيا وفرنسا في أحد اجتماع العراقيين بالحكم العسكري .
واجب ص ١٦٢ وما بعدها من تاريخ القضية العراقية .

الشعب في الحيدرخانة ، شنت المجتمعين بالقوة (٤) قتل شخص ، ثم لاحق زعماء الحركة لإلقاء القبض عليهم ، كما أنه أعلم بعض الذين قاموا بالحيلولة دون الوصول إلى دار يوسف السويدي والقاء القبض عليه ، وألقى القبض على آخرين (٥) من بغداد وبعض أنحاء العراق ؛ فولد جواً رهيباً كان له رد فعل عنيف في النفوس ، فتهيات النفوس واستعدت لإشعال نار الثورة ، وفكرت في مقاومة المستعمر مقاومة عنيفة . ولم تكن مدن العراق الأخرى بمنجاة من سياسة العنف ، فقد حدث في النجف وكربلاء والحلة والديوانية ما زاد إضرار القلوب حقداً ورغبة في الثورة (٦) . ولم تجد المراسلات التي جرت بين زعماء الدين والبريطانيين في تخفيف سياسة العنف (٧) ، وجاءت فتوى الشيخ الشيرازي محقة لأمانى البلاد ؛ إذ أفق بأن (مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين ، ويجب عليهم من ضمن متطلباتهم رعاية السلم والأمن ويجوز لهم التوصل بالقوة للدفاعية إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم) (٨) .

لم يكن مركز الثورة بغداد وإنما كانت هناك عدة مراكز في أنحاء العراق . وكان من جراء مطاردة المستعمر للأحرار أن انتشروا في العراق ، وكانوا الوسطة لتأليب الشعب على الثورة . وكانت حالة البلاد العامة مدعاة إلى اجتماع الزعماء للتفكير في أنجع الطرق للتخلص من الحالة المؤلمة ، والمصير الذي آلت إليه البلاد ؛ فاجتمعوا في دار أحد الزعماء ، وانبرى السيد محمد الباقر الحلبي (٩) وخطب فيهم خطبة ثم قصيدة حلوهم من الإنكليز والركون

(٤) تاريخ القضية العراقية ص ١٤٦ .

(٥) تاريخ القضية العراقية ص ١٨٥ وما بعدها وقد ذكرها البصير ترجمة حياة الشهيد

عبد المجيد كنه ص ١٨٧ .

(٦) وقد شق الإنكليز أحد عشر شخصاً في النجف ونفوا جماعة كبيرة من أحرار النجف

وحكم على آخرين بالسجن (العراق في دورى الاحتلال والانتداب) ٢٦-٣٨ = ١ . توجد

تفاصيل عن الحادث والأسماء بالتفصيل ولا حظ ص ١٠٢ .

(٧) العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ٧٥ و ٧٦ .

(٨) العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ١٠٤ .

(٩) الحقائق الناصبة ص ١٧٤ و ١٧٥ وتاريخ القضية العراقية ص ٩ وبشأن الاجتماع الذي

عقد بهدار الإلمام الشيرازي ص ١٤٢ وبشأن الاجتماع الذي عقد في دار حمدي بابانوا الاجتماع الذي =

إلى وعودهم وضرب لهم أمثلة من أعمالهم التي قاموا بها في مصر والهند منها :
 بنى العرب لا تأمنوا للعدى مكرراً خلوا حنركم منهم فقد أخذوا الخلدرا
 يربلون منكم بالعود مكيّدة ويغفون إن حانت لكم فرصة غلرا
 فلا تحذعنكم لينهم وتذكروا أضاليلهم في الهند والكذب في مصر
 وحنركم من وعود الإنكليز المصولة التي سرعان ما ينقضونها فقال :
 ولا تقبلوا منهم بقول مجوّه فما عاقل يرجى بأعدائه خيرا
 وحشهم على الثورة لأنها الحق الواضح الصريح فإذا لم ينتصروا فيها ،
 فسوف يتوجون بالفخر والعز ولن يلومهم لأنهم أو يتهمهم منهم بأنهم
 تقاعسوا وذلوا فقال :

ومن مات دون الحق والحق واضح إذا لم يتل فخراً فقد ربح العلرا (١٠)
 وما أن آثم الخطيب خطابه وشعره حتى قام الشيخ محمد العبطان وسل
 سيفه وقال : «إننا قطعنا على أنفسنا عهداً إما الموت أو الاستقلال التام (١١) » .
 كان هذا الاجتياح وغيره نتيجة محتومة لعدم تقبل سلطات الاستعمار الحلول
 السلمية ، وإنما أرادت إظهار سطوتها معتقدة أنها قادرة على القضاء على كل
 حركة يقوم بها العراقي في سبيل استقلاله ، وقد فاق القائلين أن حرية الشعوب
 لن يقوى على مقاومتها حائل ، وإلا لاتعظ العراقيون بقوة الإنكليز ،
 وارتدوا خوفاً مما صنعوه في النجف (١٢) أو بغداد ، ولخاف العراقيون
 من بطشهم وجبروتهم . إن الحرية والاستقلال لن يقف أمامها الموت ، فهما
 أقوى من الموت ، ولئن تأخر الشعب فقد كانت قلوبهم تغل كالمراجل حقداء ،
 وغدت كل ثورة ضد الإنكليز جهاداً ومن العار على العربي أن يقعد .

== عقد في دار رفعة الجادرجي ص ١٦٠ والاجتياح الذي عقد في بيت السيد يوسف السويدي
 ص ١٧٧ .

(١٠) مخطوطة في مكتبي الخاصة .

(١١) الحقائق الناصحة ص ١٧٥ .

(١٢) حوصرت النجف أربعين يوماً بعد قتل حاكمها ولما فك الحصار شق المستعرون

أحد عشر رجلاً وثني مئة وسبعة رجال .

ومن القصائد التي ألفت في التحريض على الثورة قصيدة حسن الجواهري وفيها يقول :

من العار أن تبقى على الضيم مقعداً فلا العيش إلا أن تكون ممجداً
مواطنك الغر التي بك شُيدت تناجيك فاسعفها خلاصاً من العدى
أراقت دمماً من نفوس بريئة لتبني طريقاً للحياة ممهّداً (١٣)

ومع كل هذه المقدمات لم تكن تخرج الفكرة إلى حيز العمل ؛ فما فكر العراقيون في ثورة مسلحة إجماعية ضد الحكم البريطاني ، لأنهم كانوا يأملون بعض الإصلاح ، ودلينا تلك المفاوضات السلمية التي دارت بين العراقيين والسلطات العسكرية التي أظهر فيها العراقيون من طيبة القلب وحب السلم والحفاظ على النظام ما يدين المستعمرين بأنهم البادئون بالعدوان ؛ فقد وصموا الأحرار بأنهم مفسدون ، والأبرياء بأنهم مجرمون (١٤) ، ولا أدل على حب الشعب للسلام والرفق من آيات الشعر العالمي التي منها :

(ردنه الرقك وياه ماصح يبدنه) (١٥)

أما السبب المباشر للثورة العراقية ، فهو سجن الشيخ شعلان أبو الجحون شيخ عشائر الظوالم ، وتعنيف الحاكم السامي له وتوبيخه ، فجات جماعة من عشيرته وأخرجته عنوة من السجن ، وبعد ذلك حاصرت العشيرة الحامية البريطانية وقطعت طريق القطار (١٦) وأخذت الثورة تنتشر بين القبائل . وقد ساهم بعض الضباط العراقيين في الثورة . وحدثت عدة معارك أشهرها معركة (الرانجية) ، وانتصر العراقيون على الجيش المحتل ، فهز هذا الانتصار العواطف ، وحسب الثائرون أنهم قادرون على اكساح المستعمر من

(١٣) رسالة غلوطة من قبل الشاعر .

(١٤) يلاحظ كتاب شيخ الثرية الأصقهان في (الحقائق الناصحة) ص ١٥٧ وما بعدها وفي

لتاريخ القضية العراقية ص ١٩٦ .

(١٥) أي أردنا منه الرق ولكن لم تمكن من الفوز به (العراق في دورى الاحتلال

والانتداب) ص ٥٢ الحاشية . لاحظ في الوقائع الحقيقية ص ١٣٩ . رأى الأستاذ البارزكان

وص ٦٩ وفي تاريخ القضية العراقية رأى السيد محمد صدر الدين .

(١٦) تاريخ القضية العراقية ص ٢٠٠ وما بعدها .

البلاد ، فقد نظموا أنفسهم تنظيمًا حديثًا ، وألفوا المجالس الإدارية لتسير أمور البلاد ، ووزعوا حكماً على بعض المناطق ، وقاموا بأمور أخرى دلت على نضج قادة الثورة . وأهم ميادين الثورة كانت منطقة القرات ؛ فعندما أخرج الشيخ شعلان انتشرت الثورة في الجنوب ، كما انتشرت الدعوة إلى الجهاد التي أذاعها رجال الدين (١٧) ، وقد سجل محمد مهدي الجواهري أعمال الثورة في القرات بقوله :

وللقرات نهضة مشهودة لا تتجدد
 هاجبوا بها لا لعب فيما أتوا ولا دد
 غطارف من الظبا صرح لهم ممر
 وفتية على المني أو المنايا احتشدوا

ويتطرق إلى واقعة الرميثة (العوجة) ، التي تركت الثناء المخلد في صفحة التاريخ ، وقد ذكر الجواهري خسارة الإنكليز ومنها خسارة قطارين مسلحين أرسلوا للقضاء على الثورة فقال :

والقطار وقعة منها تفسر الكبد
 ما تركوا حتى الحديد سلسلوا وقيلوا (١٨)

وقد خسر البريطانيون بارجة كانت قادمة لمحصرة الكوفة ، وبعد أن ألحقت أضراراً بالغة بالثوار وبالأهلين ، ضربها الثوار بمدفع غنموه من القوات الإنكليزية في معركة الرانجية ؛ فقال الجواهري يسجل هذا الحادث (١٩) :

وإن أنس . لا أنس القرات وموقفاً به مثلت ظلم النفوس القضايع
 غداة تجلى الموت في غير زيه وليس كراء في التهب سامع
 بياخرة فيها الحديد معاقل تقيها وأشباح المنايا دوارع
 تشير وألحاظ البروق شواخص إليها وأمواج البحار توابع

(١٧) الحقائق للناسفة ص ١٩٢ وما بعدها .

(١٨) ديوان الجواهري طبعة ١٩٢٨ ص ٩٧ .

(١٩) الوقائع الحقيقية ص ١٥١ والحقائق للناسفة ص ٢٣٨ .

ويصف جنوحها بعد أن ضربها الثائرون بقوله :

هنالك لو شاهدتها حين نكّست كما خر يهوى للعبادة راحع
هوت فهوى حس وظلم تمازجا بها وانطوى مرأى مروع ورائع (٢٠)
والملاحظ أن مدينة بغداد كانت قد تزعمت حركة الثورة بادئ الأمر ،
وقادت الشعب نحوها ، وقد أرسلوا ضباطاً لتدريب الأفراد ، وحاولوا
مساعدتها مالياً (٢١) لكنها لم تشهر السلاح أو تقيم بعمل حربي ؛ لأنها كانت
تحت السيطرة البريطانية المباشرة وقد قضت السلطات على كل من اشتغل
في الثورة ، فقد نفّت بعضهم وأعلنت آخرين (٢٢) وقد انتشرت الثورة في
بعض مناطق أخرى من العراق كالديلم وديالى . وعلى الرغم من أن هناك بعض
معارك حربية جرت في غير الرميّة ، إلا أن الحظ لم يساعدن في العثور على
شعر غير قصيدة مصطفى جواد ، ويصف فيها جانباً من ثورة الخالص في
لواء ديالى يقول فيها :

ثبتنا في مواقف محرّجات ولاقينا مدافع وانفجارا
وذدنا عن حمى وطن مباح وورمنا في معاركنا انتصارا
وفي القصيدة يصف الأعمال التي قامت بها سلطات الاحتلال ، فيعد أن
استولت على الخالص أسروا جميع القادرين على حمل السلاح ، وكنفهم
وقتلهم سرّاً ؛ أربعة أربعة ، ثم ألغوا بهم في الطرق والمخارج والمداخل ،
ثم أنتنت جثثهم وليس لهم من يدفنها ، حتى تراجع الهاربون بعد الغزو العام
فدفنهم ، فقال :

شباب أعرسوا بالموت مُرّداً وكان رصاص قاتلهم نشارا
وتابعهم كهول القوم زفاً فوا حزناً لمن تركوا الديارا (٢٣)

(٢٠) الديوان ص ٥٤ .

(٢١) الوقائع الحقيّة ص ٢١٨ والحقائق الناصّة الصفحات ٤٠٤ و ٤٠٥ و ٥٨٧ .

(٢٢) الحقائق الناصّة ص ١٣٦ - ١٣٧ وفي غمرة النضال ص ٢٥٩ وص ٢٦٠ والعراق

في دورى الاحتلال والانتداب ص ٩٤ و ٩٥ - ٩٦ .

(٢٣) الثمور للنجم ديوان الأستاذ مصطفى جواد المخطوط ، ويلاحظ بشأن الثورة في

ديال ، تاريخ القضية العراقية ص ٢٣٤ .

والأستاذ مصطفى جواد كان شاهد عيان لهذه الحادثة ، ولم يقتل لأنه كان صغيراً . وقد حدثني المرحوم والدي الكثير عن الضحايا في المعارك الإرهابية التي اقترفها الاستعمار . وقد كانت لوعة النساء والرجال مستعرة لسنين طويلة لم يقم بعدها للخالص قائمة ؛ فما ثارت وما انتفضت بعدها . وعلى هذه الفواجع يقف شاعر عراقى ساخراً منها ومن الثائرين ؛ فيقول شامتاً :

لقد تشنت عن خوف ومن ندم جيش حوالى دىالى كان محتشدا
ما كنت أرجو على علمى بترعتها أن يلدو الشر من أبنائها فبدا
أحزم بناس رأوا فى أرضهم فتناً فلم يكونوا لمن قاموا به عضدا (٢٤)

أثر الثورة

فشلت الثورة ، فلم يقدر العراقيون على مقاومة قوى الاستعمار الفتاكة ، وقد كان رد الفعل عنيفاً في نفوس الذين تفاءلوا كثيراً ، وأثارت نتائج الثورة الألم والحسرة في القلوب . فقد ضُربت بعض المدن والقرى بالطائرات ، وهاجر بعضهم ومعهم المواشي والأطفال فراراً من قصف المدفعية الثقيلة ، وخوفاً من سطوة المستعمرين ، والتجأ بعضهم إلى الكويت ، ناجين من الإيذاء ، وقد تركت الهجرة بعض البقاع مهجورة قفراً ، فقال سعد صالح يصف هذه البقاع ولماذا تركها أصحابها :

سُتت العيش في وطن يضام يذل يضطهد
عنه يد القضاء فرا ح لا روح ولا جسد
عفت تلك الربوع فلا قديمات ولا جدد
رياض صوّحت ومها ذعرنٍ وجمعٌ بدد (١)

وقد وقف محمد مهدي الجواهري متعجباً من إلقاء الإنكليز للشعب ، وهم مسيحيون ، والذين المسيحي دين يأمر بالحب والسلام ، وهؤلاء المسيحيون يسفكون الدماء البريئة ، ويخالفون أوامر دينهم :

على أي عذر تحملون وقد نهت قوانينكم عن فعلكم والشرائع
على رغم روح الطهر عيسى أسلم براء دماء هوتتها الفظائع
وقد وصف الجواهري الديار الخالية التي تركها أهلها فراراً فقال :

(١) سعد صالح ص ١٣٦ بغداد ١٩٤٩ .

وقد راعى حول الفرات منازل^١ تخلى عن ألقيها ومراجع
دوائر من بعد الأتيس توحشت وكل مقام بعد أهليه ضائع
وقد كان الجواهرى يطفح بالأمل والبشر والإيمان على الرغم من فشل
الثورة في أهدافها ؛ لأنها برهنت للعالم على أن العربى الذى فى قلبه هذا العزم
والثبات فى سبيل حريته لن يموت ، ولن يقدر عليه أجنبي ، أو يكبح
أمنيته فى سبيل عروبه فقال :

فإن ذهبت طى الرياح جهودنا فعرضك يا أبناء يعرب ناصح
ثبت وحسب المرء فخراً ثباته (كما ثبتت فى الراحتين الأصابع) (٢)
وعلى عكس الجواهرى كان سعد صالح قد آله خسارة الثورة ، وكان رد
الفعل عنيفاً على نفسه ؛ فسيطرت على روحه ظلال التشاؤم والألم ، فقد
كان يأمل الفوز والنصر . ولم يتأخر الزهاوى عن رثاء القتلى ، ووصف ماحق
باليوت من الألم ، وبأسر القتلى من أحزان بدماء الشباب التى أراقها المستعمر
الغريب ، فقال :

ماذا بضاحية الرمي ثمة من غطارفة ججاجع
ولن أقيم فى اليسر ت على كرامتها المناوح
ولاية نذبت من اللب ل الحمامات الصوادح
ووصف ماحق بالقوم فى أثر شهداء الثورة الأبرار ، فقال :

ولقد أصاب القوم ما أبكى العيون من الفوادح
إذ هاجموا يوم الوغى غلب المدافع بالصفائح
ورثا الشباب الحر بقوله :
لمنى على الفرس الشبا ب مجندين على الصحاحص
ولقد تنور جرحهم بين الترائب والجوانح (٣)

(٢) ديوان الجواهرى ص ٥٥ و ٥٦ .

(٣) ديوان الزهاوى ص ١٧٦ ونشرت فى الأدب الجديد لمحمد جمال الماشى .

إن فشل الثورة ليس معناه موت أمة ؛ وإنما هو عود إلى الكفاح وإلى
النضال حتى تتحقق مطالبها ؛ لذلك فالشعراء أدخلوا يضمّنون جروح
الألم ويمثلون المستقبل بالابتسامة والأمل . ومادامت الأمة تبسم للرجاء ،
وتنظر إلى المستقبل نظرة التفاؤل والنصر ؛ فسوف يكون لها ماتريد ، ولن
يقف أمامها مستعمر ، أو يحول دون وعيها وإدراكها وقوتها حائل ؛ فقد
يتمكن المستعمر أن يؤخر عليها آمالها ، ولكن هيهات له أن يحرمها منه ،
فقد قال الجواهري :

صبراً وما طاب لكم مرعاكم والمورد
صبراً وما عودتمو من قبل أن تضطهدوا
إن رفعت رواقها حرب فأنتم محمد
وأنتم إذا الوغى أصوزها من يوقد
نيران حرب يصطل الأدنى بها والأبعد^(٤)

أما أولئك الذين أدخلوا يلومون القائمين بالثورة ؛ لأنهم لم يكسبوا عاجلاً
أو أنهم خسروا أجلاً ، فهم أناس قصيرو النظر ؛ لأن الثورة سوف تبنى
مؤججة في النفوس ، وسوف يحمد للقائمين بها أعمالهم ، ولن يبخل التاريخ
بتسجيل ماقلّموه للشعب من تضحيات ؛ فقد قال أبو المحاسن في سجنه بعد
الثورة :

إن يذم اليوم قوم غرسنا فلنا من بعد حمد المحتجى^(٥)
ولم يقر المواطنون بالهزيمة المادية التي لحقتهم في المعركة ، وواصلوا العمل
من أجل الثورة ومكافحة القوات المحتلة ، فقال خيرى المنداوى :

ويك لا أرتضى الحياة بذل قم فمزق إهابها تمزيقاً
وأدر لي في الرافدين حياء حرب وكسر الإبريقا^(٦)

(٤) اللبيوان ص ١٠١ .

(٥) الأدب المصري ج ٢ ص ١٢٧ .

(٦) الأدب المصري ج ١ ص ١٦٨ . وديوانه المخطوط على نسخة منه .

إن موتاً في ساحة الع زلوت أجدر به أن يروقا
يا لقومي لقد دهتها النواهي وهي تأتي من نومها أن تفيقا
وقد واصل خبري المتلوى الدعوة للثورة بعد عودته من منفاه في
هنيجام ؛ لأنه لم يؤمن بفشل الثورة ، فقال :
لست من هاشم إذا لم أقدها شزياً توقد الوغي لإيقادا
ومنها يقول :

قم فوجد من عزمك الأجنادا واركب العزم واقتعه جوادا (٧)
أما الذين لم يكونوا راغبين في الثورة ، فلم أجدر شاعرين ؛ هما علي
الشرقي ، وجميل صلق الزهاوي ، وقد كتبت للشيخ الشرقي رسالة أسأله
فيها لم لم يكن من الداعين إلى الثورة العراقية ، وهي ثورة ضد المستعمر
فأجاب (إن الثورة مقلعة وأهدافها سامية ، وأنا من خدامها والعاملين لها
من يومى حتى الساعة (٨) ، وإن الشعب العربي كان ولا يزال في أشد
الحاجة لها . وإنى والصفوة من أصحابي كنا نريدها ثورة قومية شاملة
ولا نريدها إقليمية ؛ إذ في الإقليمية مضیعة للهدف وانتثار للقلادة ..) وبذلك
يتكشف لي رأى جديد من وجود جماعة أرادت للثورة العراقية أن
تتأني ، حتى يقيم العرب ثورة عامة ينضمون إليها جميعاً ، ولعلمهم نصحوا
القائمين بالثورة بالثروي وعدم الإسراع ، ولما فشلت الثورة ورأى الشرقي
الحسارة التي لحقتهم قال :

يا ثورة أعقبتها ندامة الشوار
كم في مرارى عتب لو تسمعون مرارى
هذا اختياري ولكن بالجبر أصل اختياري
تدارك الله شعباً بهم بالانتحار (٩)
ولم يكن الشاعر قد حدد رأيه عندما نشر هذه الأبيات ، ولكنه عاد

(٧) ديوانه المخطوط .

(٨) كانت الرسالة سنة ١٩٥٧ .

(٩) جريدة المراق العدد ١٨٥٣-٧- الثالث من حزيران سنة ١٩٢٦ .

فحدده عندما نشر ديوانه ، فكانت قصيدة عامرة قال فيها .

كنا نحاول أمراً يفوق كل اعتبار
أهدافه تنغني بوحلة الأقطار
نريد تشييد صرح من فوق تلك السواو (١٠)

أما السيف الحاد الذي كان مصلاً على الثورة فقد كان الزهاوي ، فقد رأيناه يمتدح الثوار ، ويرثي الشهداء ويرفعهم عالياً في شعره ، ولكن ما أن تطأ رجل « برمي كوكس » أرض العراق حتى نسي كل شيء ، وإذا به يلقي كلمة مسهية يصور بها حال العراق بالرجل العليل الذي برح به السقام من الثورة التي أصبحت فتناً واضطراباً ، ويرجو القادم المستعمر أن يسارع في إيجاد العلاج اللازم لهذا المريض ، بأن يحمّد الثورة ويقطع دابر الفساد ، (١١) ومع أن الثورة لم تكن قد خمدت حتى ذلك اليوم ، فإنه تجاهل شعور الرأي العام وتحداه فقال :

عد للعراق وأصلح منه ما فسد واثبت به العدل وامنح أهله الرشد
الشعب فيك عليك اليوم معتمد فما يكون كما قد كان معتمدا
ثم هاجم زعماء الثورة ، ووصفهم بأنهم بغاة الشر ، أرادوا أن يفسلوا في الأرض ، ولن يحمّد شرهم ويقضي عليهم غير الحاكم العام فقال :
ارأف بشعب بغاة الشر قد فصلوا إثارة الشر فيه وهو ما قصدا
أما وقد جئت مصحوباً بمقلدة فلا أبالي أقام الشر أم قعدا

تختلف نظرة الناس إلى الأعمال ، وخاصة تلك التي لا يكتب لها النجاح ، ولكن هنالك الأعمال الوطنية التي يؤمن بحقها الأحرار الذين يواصلون العمل من أجلها ، فستبقى غايتهم ومطلبهم . وقد احتضن قادة الرأي والشعراء فكرة الاحتفال بذكرى الثورة ؛ كيلا يتسرب الوهن إلى النفوس ولا نخاذ الذكري سيلاً لمواصلة الكفاح ، وليست حياة الشعور المغلوبة على أمرها

(١٠) ديوان الشرق ص ١٧١ .

(١١) يلاحظ نص الخطاب في جريدة العراق للعدد ١١٢-١-١٢ ت ١ سنة ١٩٢٠ .

إلا كفاحاً وثورة ، ومتى هدأت وامتنكأت إلى الهدوء والسكينة ، فقد غلبت على أمرها . وقد تخلف عن ركب الثورة جماعة استفادوا ؛ فبعضهم فاز بمنصب وآخر فاز بمغرم ، ولكن كل هذه المغام كانت بنظر الوطنيين مغام محسوبة على سمعة الشخص . وقد رأى أبو المحاسن الحليانة التي كانت غائلة لبعض هؤلاء ، ففازوا بالتقرب من المستعمر ، وتركوا إخوانهم في المحن والآلام فليسعهم بقوله :

من رجال تقضوا ميثاقهم وجزوا بالسوء فعل الحسن
أظهروا ما أضمرنا من حقدهم وبلت بغضاؤهم بالألسن
ويوجز رأيه بالنتيجة التي آلت إليها الثورة بقوله :

ثورة أصبح من آثارها حظوة الخائن والمفتن
معشر في نعم قد أصبحوا من مساعي معشر في محن (١٢)
وقد امتاز محمد صالح بحر العلوم برأى طريف في شعره ، فهو لم يقل : إن القبائل قد قامت بالثورة ، ولم يقل : إن الشعب العراقي قد ثار بل يتطرق إلى القادة والرعماء ، إنما يخص الفلاحين وحدهم ؛ فهم الذين ضحوا بأنفسهم وأموالهم ، وبدلوا الغالي والرخيص ، ولكن لم يغموا من وراء ذلك شيئاً . وقد اتفق مع « أبوالمحاسن » في أن نتائج الثورة ذهبت لغير القائمين بالثورة فقال بحر العلوم :

قف بالرمية وانشد الفلاحا هل نال من ماضي الجهود فلاحا ؟
أدمت نواظره التائب واصطلت أحشاؤه تتناوب الأتراحا
قد كبته يد الصروف وأطلقت لنوى المطامع في البلاد سراحا
يتنعمون بكده ووجوههم لولا عنايته لزال وراحا (١٣)
ويتطرق في قصيدة أخرى إلى حالة العراق العامة وما أصابه من تأخر

(١٢) الأدب المصري ج ٢ ص ١٣٧ .

(١٣) المواعظ ٨٩ .

وانحطاط ودعا الجموع إلى الثورة ، وبغير الثورة لن يزول الانتداب الذي
ينفذ سياسته الخائنون فقال :

سياسة شرعها الانتداب فقام في تنفيذها الخائنون (١٤)
وبحر العلوم من المؤمنين إيماناً عميقاً بالثورة والآملين في ثورة أخرى
تصلح أمور العراق العامة ، وتقمع جشع الأدياء الذين يعيثون بمقلرات
الشعب فقال :

ولم تزل أسيافنا باقية يقطر منها من نجيع الدماء
تريد منا وثبة ثانية تقمع فيها جشع الأدياء (١٥)

وقد كان خيرى المتلاوي من أولئك المؤمنين بضرورة مواصلة الثورة ؛
لأن الثورة لم تحصل على أهدافها ، وإنما بدأ الصراع بين الشعب وبين المستعمر
القوى الذى لا يحترم إلا القوى الثائر ، فعلى الشعب المصابرة والكفاح والنضال
حتى يستكمل سيادته وحريته ؛ لأن الحياة الحرة لا تكون إلا للمناضلين
فقال :

لا يستحق العيش قوم لا يريدون الجلا
فصناعة الموت الزوا م صناعة تمحو الفساد
وسوى الأسنة والمبا ضى البيض لا تشفى القوا
أولى الأنعام بحمرة فى رأى أكثرهم جلا (١٦)
وأخصهم بتجلىة من كان أكثرهم جهادا

وقد كان الشعراء يعلون أذهان الناس إلى ثورة أخرى ؛ كى يحرروا
أنفسهم من الاستعمار ، فبالرغم من مرور مدة طويلة على الثورة بقي العراقيون
يرسفون تحت أقدام الاستعمار تارة باسم الانتداب وطوراً باسم الوصاية
أو الحماية ؛ لذلك لم يبق المستعمر أمام الشعب غير الثورة لإخراجه من

(١٤) المواطن ٩٩ .

(١٥) المواطن ص ١٠٠ .

(١٦) ديوان المتلاوي .

أرضه ؛ فإن ما أسماه بالحقوق أو محاولة تخدير الشعب بأسماء مختلفة من الحكومات ما كانت تحقق عليهم ، فقال الجواهري :

إن كان طال ذا الأمد فبعد ذا اليوم غد
ما آن أن تجلوا القذى منها العيون الرمد
أسيافكم مرهفة وعزمكم متقصد
هبتوا كفتكم عبرة أخبار من قد رقلوا
هبوا فغن عربنه كيف ينال الأسد
ويأمل ثورة عربية لا يخذل أوراها حتى تحقق أهدافها فقال :

وثورة بلل جمرة ليعرب لا تخمد
أججهـا أبائهم والحر لا يستمد (١٧)

وإن كان الشعب فقيراً لا يملك القوى التي تلود عنه ، ولا الجيوش التي تناهض الخصم العنيد ، وتقاتل جنوده المدربة خير تدريب وبأسلحته الحديثة ؛ فقد كان للشعب قلوب تنبض بالإيمان ، ونفوس لا تغلر عليها الجيوش الجاراة ، ولا الأسلحة الحديثة .

كلمة أخيرة عن الثورة

وقف المؤرخون من الثورة موقفين متغايرين ؛ فقد رآها بعضهم غيبة للآمال التي ثاروا من أجلها (١٨) ، ورآها آخرون ناجحة أدت رسالتها بإنشاء حكومة وطنية ذات سيادة ، وأنها أنقذت العراق من أن يكون مستعمراً تابعاً للهند .

وقد احتار المؤرخون مرة أخرى في النتائج التي وصلت إليها الثورة وفي الأسباب التي أدت إلى فشلها . ولعل سبب هذه الحيرة وهذا الموقف هو حكمهم ، الذي جاء معتمداً على الظواهر العامة والنتائج الآتية التي أحاطت بالثورة ، وفاتتهم الإحاطة التامة بأمور العراق الاجتماعية والاقتصادية ، وأثرها في النتائج السياسية وأثر العوامل النفسية في اتجاهات كل ثورة .

فغزى فشل الثورة إلى قوة الجيش المحتل وسيطرته التامة ، وضعف القوات العسكرية النائرة وقلة عتادها وعدتها دون ذكر للعوامل النفسية العميقة الأثر ، فعندما احتل الإنكليز العراق لم يكن العراق بلداً بلدياً ليست له مثله وتقاليدته التي تربط المجتمع بالفرد ، إنما العراق بلد شعت منه الحضارة والمدنية ، وتركت آثارها واضحة في نفسية الفرد وشخصيته وتفكيره ، وتركت حدوداً غير بارزة أو واضحة المعالم فيه ؛ لأن الطبيعة العربية البلوية كانت تمد العراق دائماً بآثارها ومثلها ، وبمكنتنا لسهولة البحث أن نصنف هذا المجتمع إلى فئات :

١ — الفئة الأولى وتضم رجال الدين وشيوخ العشائر وبعض أبناء الأمر القديمة وبعض كبار الموظفين من العراقيين .

(١٨) الحقائق الناجمة الصفحات ٤٧٣ و ٥٠٣ و ٥١٥ .

- ٢ - الفئة الثانية وتضم المتعلمين وأكثرهم من الموظفين والضباط .
٣ - الفلاحون وصغار الموظفين وسكان المدن بصورة عامة من غير الفتيين
الملتكورتين .

وكانت الفئتان الأولى والثانية لهما مكانتهما الدينية والزمنية ، وسطوتهما ؛
فشيوخ العشائر متضامنون مع عشائريهم وتثور معهم العشائر ، وكثيراً
ما تصفح الدولة عنهم لعدم قدرتها وسيطرتها ، ورجال الدين مرهوبو
الجانب للمكانة العلمية والدينية . وكانت الفئة الثانية قد أمنت العوز والفاقة
بحكم الرواتب والوظائف . وقد كان الدين الإسلامي ومثل المجتمع العامة
محترمة ، لا يجروء فرد على الخروج عليها ، ثم فتح الإنكليز العراق
فاضطربت هذه المثل وتخلخل المجتمع ، فاضطربت الحياة العامة ؛ فقد دخل
الإنكليز العراق بالقوة ، وكانوا يفرضون الاحتلال العسكري بقوة السلاح
والإرهاب ، ولم يتساعخوا مع أحد مهما كبرت منزلته أن يقف في وجههم ،
وأن يحد من سلطانهم وسطوتهم ، سواء كان هذا الفرد شيخ عشيرة أو رجل
دين أو ابن أسرة عريقة ، بل السلطة كانت تمنع في إذلال الدين حاربوها .
ولم يكن الشيوخ ينسون هدر كرامتهم التي تعتبر جزءاً من كرامة العشيرة ،
تصونها العشيرة وتلود عنها ؛ فلم تكن مشيخة رئيس القبيلة إقطاعية بحتة ،
وشيخ القبيلة يجب أن يكون من أبنائها ومن نخبة الأبناء (١٩) . وقد رأى
رجال الدين ما حاق بالبلد وقد استعمره الأجني البعيد عن الشعب في الدين
واللغة ، ولا يمت له بصلة قريبة أو بعيدة ، فهاهم الأمر . وقد فقد الموظفون
العون الاقتصادي والمكانة التي كانوا يرفلون فيها ، ولكنهم صبروا وصابروا
بعد أن بذل المختل وحلفاؤه الوعود الخلابية في سبيل تحرير هذا الوطن ، غير
أن الأمور لم تسو على الوضع الذي كان يأمله الوطنيون . فكانت الثورة ؛
فاندفع أبناء الشعب لتأييدها متأثرين إما بالفتاوى الدينية أو بمنصرة شيخ
القبيلة أو مدفوعين بالخطب والقصائد ، ولكن مرعان ما ذهب الحماس .

(١٩) تطور الأمر بعد ذلك لدى بعض رؤساء القبائل وتنافسوا في حيازة أكبر رقعة من
الأرض . وقد أراد بعضهم أن يحل له حقاً في الدستور . راجع مذكرات المجلس التأسيسي ص
٨٩٩-٩٠٨ والقوى المؤثرة في التصاير - المذكور طلبة الشياخ ص ٢٠ بغداد ١٩٥٤ .

وقد كان العامل الاقتصادي فعالاً ؛ فالعراق كان يمر بأزمة اقتصادية ، فقد تعطلت الصناعة والتجارة والزراعة منذ جند العثمانيون القادرين على حمل السلاح ما بين عشرين سنة حتى الأربعين ، فأفقرت القرى والمدن من الرجال (٢٠) ، وقبلت البديل التقدي الذي دفع الناس للاقتراض بفائدة بلغت ٦٠ ٪ ، ثم صدرت العملة الورقية التي زادت التدهور سوءاً .

وكان احتلال الإنكليز سبباً لانشغال الشعب بالأمور السياسية عن التجارة والزراعة (٢١) . ولما عاد الضباط والموظفون من سوريا والحجاز وجدوا أنفسهم بلا عون مالى يساعدهم ؛ فقد شغل المنود والإنكليز من الوظائف أحسنها وأكثرها (٢٢) ، فاتفقت مصالحهم مع مصالح الشعب ، وكونوا فئة ضد المحتل لاستعادة الضمان الاقتصادي ، وما تأخروا في مساندة الثورة . ويعودة العون المادى بعثت بعض القوى ، وكان ذلك سبباً في فشل الثورة انتبه إليه أحد المشتركين في الثورة فقال : (ولو أن جميع الساسة والمعينين بالقضايا العامة عندنا ارتفعوا قليلاً عما هم عليه من انكباب على زخرف الحياة ومتاعها ، وخففوا قليلاً من إعراضهم عن الإلحاح في المطالبة بحقوق البلاد ، لما رأينا الحالة السيئة التي تنشط الآن ، ولا استطاعوا تكملة رسالة الثورة) (٢٣) وتجلى هذا الخصاص في سبيل المصالح بين الأحزاب ، بينما كانت الثورة مستغرة الأتون ، وأقعد الخصاص توحيد القيادة بين الضباط وروضاء القبائل (٢٤) ، حتى بين شيوخ العشائر أنفسهم في الجبهات المتعددة (قائل المنتخب كانوا لا يعلمون أى شيء عن ثورة تلحفر ، وهكذا

(٢٠) كثر عدد المماريين من الخمسة حتى أصدر أنور بلشاً أمراً بإعدام نصف المماريين المقبوض عليهم وإرسال النصف الآخر إلى ساحة القتال .

(٢١) تاريخ مقدرات العراق السياسية لأمين المصري ج ١ ص ١٤١ بغداد سنة ١٩٢٥ .

(٢٢) Bell, G. Review of The Civil Administration of mesopotamia (London 1920) p. 122.

(٢٣) الوقائع الحقيقية ص ٢٢٨ .

(٢٤) تاريخ القضية العراقية ص ١٤٥ ويراجع بشأن معالجة مشكلة (الأفندية) الذين كانوا خطياً وموظفين في الدولة العثمانية وسنطوا . كتاب هيلان الصفحات ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ .

بالنسبة للمحمودية وقبائل زوبع (٢٥) وكانت بعرة القوى — برغم وجود الإخلاص العميق — عاملاً في فشل الثورة .

وقد كان العامل النفسي مؤثراً في الثورة . فالعراقي عاطفي سريع التهييج ، فردى يحب أن يسود ولا يقرب بحكم فرد . ولست من علماء النفس لأحلل هذا ؛ وإنما أسرد ما أعرفه بتجاربي المحدودة . ومن عرف هذه النفسية يمكنه أن يستغلها خير استغلال . وقد قامت الثورة على عامل الحماس الذي اندفع بالفتاوى والخطب والشعر ، ولكن هذا الحماس لم يدم ؛ إذ لم تكن جلوره عميقة ، ولما استقر بعد ذلك واصل الشعب الكفاح في سبيل حريته واستقلاله . أنا من المؤمنين بأن الثورة كانت ثورة في سبيل الحرية والاستقلال وبسطت فيها رأيي ، فإن لم أوفق فقد فاتني أمور عسى أن يسجلها الباحثون ، خاصة والعراق لا يزال بكرة يجب أن يدرس اجتماعياً لتطوير مجتمعه وتقدمه .

إن فشل الثورة كان سبباً في خلاف دب بين العراقيين (٢٦) ؛ فمنهم من بقى يتفاخر بها وهم من ذوى الإيمان العميق ، ومنهم من نسيها وما حفل بها . والاختلاف في المثل العليا موجود في جميع المجتمعات ، ويبرز واضحاً في فشل أية ثورة والانتصار عليها ، والويل للمغلوب من الغالب . وتعدد الآراء في أمر يعكس لك جوانب المجتمع نفسه ، فقد بدا التناقض واضحاً ، وطفى على الأسلوب والمعنى ، وغطى على اللفظ والكلمة ؛ لأن الشعر عامة كان خطباً جزلاً لإلهاب نيران الثورة ، فبذل الشاعر كل قدرته في هذا النظم العجولان ، ليهز المشاعر ويثير الحواطر ضد المحتل الذي هيمن على مقدرات الوطن ، ويذكر الناس بالذل والهوان (٢٧) ، وبالرغم من أن كثرة شعر الثورة ذهب واندثر فإن رائحته الذكية العطرة تدفنا دائماً نحو حرب المستعمر ، والثورة في وجه الظلم والظغيان .

(٢٥) الوقائع الحقيقية ص ٢٣٨ .

(٢٦) لاحظ حيث شلان أبو الجون على سبيل المثال ص ٤١ في محاضرات عن العراق .
(٢٧) ذكر ذلك الدكتور البصير في مقدمة ديوانه البركان الذي طبع في أثناء طبعي لهذا الكتاب .

عرش العراق

كان من نتائج الثورة التعجيل بالتفكير بإنشاء دولة وطنية ، واستبعاد جعل العراق مستعمراً تابعاً للهند . وبذلك أثبت الشعب بأنه قادر على فرض رغبته على الإنكليز برغم ما ليسهم من علة وعدد . فالحسائر التي منى بها الاستعمار كان صداها يتردد في مجلس العموم البريطاني ، فثار على الحكومة ، ورددت ثورته الصحف ، وثار جندل عنيف حول موقف الإنكليز في العراق حتى طالب بعض ساستهم بالانسحاب من العراق كله ، وطالب بعضهم بالاحتفاظ بالبصرة ، اقتصاداً في الأرواح والنفقات . وقد اضطر لويد جورج للتصريح في المجلس بأن العراقيين يجب أن يحكموا أنفسهم ويشكلوا حكومة عربية ، تقدم لها بريطانيا المساعدة في إدارة البلاد وحفظ الأمن في ربوعها ، وبذلك يرضى العراقيين ، ويرضى المجلس ويقتصد في النفقات ، ثم يرضى فريقاً من الإنكليز الذين يرون من مصلحة بريطانيا تحقيق بعض وعودها للعرب . وكانت أولى هذه الخطوات إرسال برقية تتضمن الدعوة إلى إنشاء دولة أوكل أمر تنفيذها إلى السير « برسي كوكس » ، وطلب إليه إنشاء وزارة مؤقتة برئاسة رئيس عربي ، وانتخاب مجلس يمثل السكان . وقد شكلت الحكومة المؤقتة برئاسة السيد عبد الرحمن الكيلاني ، فواجه العراق مشكلة لم يعهدها من قبل في حياته السياسية ؛ فالوزارة عراقية المظهر ولكن مع كل وزير مستشار ، فكان الحكم مزدوجاً شاذاً ؛ فعلى الرغم من أن « كوكس » هو الذي اختار أعضاء الوزارة ، وأنه هو الرئيس الأعلى فقد وضع معهم المستشارين لإدارة دفة الحكم . وكانت الوزارة ممثلة تمثيلاً طائفيًا عشائرياً ؛

ليسكن الاضطراب الذي عم البلاد ويهتد من حلة الثورة المشتعلة (١) .

وبينا كان العراقيون والإنكليز يستعرضون أمعاء من يولونه السلطة في العراق ، حدثت معركة « ميسلون » وسقطت المملكة العربية في الشام ، فكان إخراج فيصل سبباً في ترجيحه على سواه ، وأيد هذا الترشيح مؤتمر القاهرة برئاسة ونستن جرجل (٢) وبدأت الحكومة المؤقتة والإنكليز في إعداد الجول لمرشح العرش فوصل إلى بغداد في حزيران ١٩٢١ ، ورشحه المتدوب السامي البريطاني في بلاغ أصلره وشرح فيه السياسة البريطانية في العراق ، ولم ينس البلاغ أن يقول إن العراق غير مستعد لحكم جمهوري لأنه متأخر (٣) فما كان من مجلس الوزراء إلا الطاعة والمناذاة به ملكاً واشترط أن تكون حكومته دستورية نيابية ديمقراطية مقيدة بالقانون (٤) .

توج فيصل وكانت النفوس قلقة من وجود جيش الاحتلال ، وأفكار الشعب مضطربة جرى ، بعد أن أخفقت الثورة ، فظن بالعهد أنه سيكون جديداً وسيتمتع العراق بالاستقلال الكامل . وخيبة الأمل التي سيطرت على النفوس وآثار المرارة الظاهرة في حاضرهم المزير ، من معاملة سيئة إلى هدم للقرى وتشريد أبنائها ، وجمع الأسلحة والفرامات الباهظة ، وإبعاد الزعماء وسجنهم (٥) خيل لهم أنهم سيحصلون في قلوبهم سبباً للتغيير لطول فترة

(١) العراق الحديث ص ٤٥ ومقدمة في دراسة تاريخ العراق المعاصر ص ٥٣ ويلاحظ كتاب آيرلند

Iraq, A Study in Political Development p. p. 70, 71, 200, 221.

(٢) العراق الحديث ص ٤٤-٤٦ ومقدمة في دراسة تاريخ العراق المعاصر ص ٦١

Foster, H., The making of modern Iraq p. p. 94, 227 (London 1936).

(٣) ظهرت فكرة الجمهورية ولكن الإنكليز قتلوها . راجع حياة الشرق تأليف لطفي جمعة ص ٢٨٢ ومجلة القري ١٩١٨-٧-١٩٤٦ والأدب المصري ج ١ ص ١٧٠ وفي غمرة القتال . الصفحات ٩٦-١٤٣ و ٢٦٣ والعراق في دورى الاحتلال والانتداب ج ١ ص ٢٠٦ وأيام ظلي في العراق الصفحات ٣٨ و ٣٩ و ٤٥ .

(٤) يراجع منشور مجلس الوزراء في مجلة الفلاح العدد ٢٦ و ٢٧ أغسطس ١٩٢١ .

(٥) العراق الحديث . متى صقراوى ص ٤٣ بغداد ١٩٣٦ ، وكتاب هيلن ٢٣١ و ٢٥٦

اليأس والتقنوط التي رانت على النفوس ، فهي أشبه بالغريق الذي يتشيث بأعواد القش ، ولذلك نجد بعضهم استرسل في أحلامه وكأنه عاش في أمانها فترة من الزمن . وقد نسي هؤلاء الشعراء قوة جيش الاحتلال البريطاني وما لحق من تأثير على إدارة دفة العراق ، حتى إن الزهاوى نظم ديواناً كاملاً سماه (هتاف الإخلاص) ، ولكنه سماه بعد ذلك (القصائد المطرودة) (٦) .

وكان يدفع الشعراء إلى النظم حب الفخر والمباهاة التي هي طبيعة الفنان ، الذي يريد أن يظهر فنه ، وينشره بين الناس ، فيعجب به الناس ، وترتفع مكانته بينهم ، وإشباعاً للذة الإبداع التي حرم منها شاعر القرن التاسع عشر ، ووجد ميداناً لإبداء ما يعانونه من وجود الاحتلال وتأخير بلادهم في مناحي حياتها السياسية والاقتصادية والعلمية (٧) .

ولعل أبرز ظاهرة هي الظاهرة العربية المسلمة ، واختفاء النزعة الإسلامية البحتة التي كانت تغطي شعر القرن التاسع عشر . والملاحظ أن الشعراء أصبحوا الحق الإلهي على الرئيس الأعلى الحاكم وأنه مقدس ولا ينافس ، وأن قوله هو الحق الإلهي . ولهذا النزعة جلورها في الشرق العربي ، فقد جاءت من أثر الحكم العثماني ، فأعطى هذا الحق السلطاني للحاكم الجديد . ويجد الدارس لهذه الفترة اتكالية بعض الشعراء ، وخيلاً واسعاً في المطالب ، ويفيض الشعر بنعوت وألفاظ كثيرة وضخمة (٨) . ويمكن للباحث أن يجد في شعر هذه الفترة صورة الفوضى وعدم الاستقرار ، وقوة الشعب المعنوية في صيبل حقوة (٩) .

(٦) جريدة العراق العدد ١٦١٨ السنة السادسة .

(٧) جريدة العراق ٣٢٩-٢-١٩٢١ والفلاح العدد ١٨ السنة الأولى والعدد العاشر

الصادر ١٢ تموز ١٩٢١ .

(٨) لسان العرب المحدثان ١٦٧-١-١٩٢١ وجريدة العراق ٢٣٣ و ٢٣٥-٢-١٩٢١

والفلاح الأعداد ٧ و ١٣ و ١٨ و ٢٦ و ٢٧ السنة الأولى ١٩٢١ ولب الألباب ، محمد صالح السهرودي ص ١٤٠-١ بناد ١٩٣٣ .

(٩) جريدة العراق العدد ٢٣٢٥-٨-١٩٢٧ ومجلة الفلاح العدد ١٩ سنة ١٩٢١ والعدد

٢٦ الصادر في أغسطس ١٩٢١ والعدد ٢٠-٤-١٩٢١ .

مشكلات العراق السياسية

١٩٢٠ - ١٩٣٩

- ١ - حالة العراق العامة بعد الثورة
- ٢ - أثر الانتداب البريطاني
- ٣ - الفجر والمعاهدات والساسة
- ٤ - عهد المحسن المحمديون

حالة العراق العامة بعد الثورة

بعد أن فشلت الثورة العراقية حريباً دخل العراق دوراً جديداً من حياته السياسية ؛ فقد استأنف العراقيون النضال السياسي من جديد ، ولم يفت في عضدهم خسارتهم في المعارك التي شنت ضد القوات المحتلة للحصول على الاستقلال والحرية . وقد امتاز هذا الدور بأنه كان دوراً سلمياً ؛ إذ حاول العراقيون الحصول على الاستقلال بالمفاوضات التي كانت تلور بينهم وبين الإنكليز ، للتخلص من عبء الاحتلال البريطاني الذي لا يتفق وأمانتهم القومية ، إذ أرادوا الحصول على ما حصل عليه إخوانهم في سوريا والحجاز ؛ فقد شكلت دولة عربية في الحجاز وأخرى في سوريا ، ولم يكن العراقيون بأقل رغبة ولا كفاءة من إخوانهم في هذين القطرين ، ثم إنهم ناضلوا جميعاً وضحوا كما ضحى إخوانهم فلم يستعمر العراق من الإنكليز وحكم حكماً مباشراً من قبل قواتهم العسكرية ، وضرب عرض الحائط برغباتهم في حق تقرير مصيرهم ؟ كره العراقيون أن يكونوا تحت الانتداب البريطاني ، برغم الدعوة التي صاحبتها من أن قوته ستكون مؤقتة حتى يقدر العراق على حكم نفسه بنفسه ، وليس الانتداب سوى تقديم النصع والإرشاد للعراقيين حتى يجتازوا هذه المرحلة ؛ لأن العراقيين لم يكونوا واثقين من هذه الأقوال . والانتداب في حد ذاته معناه الاستعمار ، وعلم تحليد فترة الانتداب وتقض جهود الحلفاء ثانية أضاع ثقة العراقيين بالإنكليز ، وكان من جرائه أن يعتمد الشعب على نفسه في المقاومة ليتحرر . ولم تجد جميع المحاولات التي بذلها السير « برسي كوكس » في إقناع العراقيين بقبول الانتداب حتى إنه قال :

إن الانتداب والاستعمار عند العراقيين على حد سواء (١) ؛ لأنهم قارنوا بين حكم الأتراك وحكم الإنكليز . فزادت كراهيتهم للحكم البريطاني . كان الإنكليز يريدون أن يرضوا العراقيين ؛ ولكنهم لا يريدون أن يتخلوا عن العراق ، فحاول المنتوب السامي لإبدال الانتداب بمعاهدة تعقد بين الطرفين ليخدر العراقيين بإنشاء حكومة وطنية مؤقتة . ويبدو سوء نية الإنكليز ومخادعتهم للعراقيين واضحة من الخطاب الذي ألقاه المنتوب البريطاني في عصبة الأمم مؤكداً بأن مبادئ الانتداب ستبقى مضمونة ، بالرغم من وجود هذه المعاهدة (٢) .

ولما شكل السير « برمي كوكس » حكومة مؤقتة ، عهد إليها إدارة بعض شئون الدولة ، وقد حدد المنتوب السامي صلاحيات الوزارة التي تستمد سلطاتها منه مباشرة ، ووضع مع كل وزير مستشاراً أوجب حضوره مع الوزير في مجلس الوزراء وأوجب موافقته على القرارات حتى تنفذ ، كما صنع مثل ذلك في الأولوية والأفضية ، وأبقى بعض المناطق تحت سيطرة الحاكم البريطاني مباشرة ، وكان القصد الأول منها تسكين الثورة وإسكات المدافع (٣) ليمسك النفوذ البريطاني بعد تهدة الأحوال العامة في العراق .

أصبحت الآن وزارة في العراق ، وأصبح للعراقيين حكومة مؤقتة ، هذا هو ظاهر الحال ، ولكن الحقيقة غير هذا ؛ فإن بريطانيا أرادت حل مشكلة العراق بتخدير العراقيين فعقدت بعد ذلك معاهدة بين السير « برمي كوكس » وبين الوزارة التي انتخبها كوكس نفسه ، لا تختلف في نصوصها عن صك الانتداب بشيء سوى أن جعلت العراق حكومة مستقلة

(١) تخرر العراق من الانتداب ص ١ - ٤ والعراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ١٩٣٥ ص ٢٠٠ والجزء الثاني ص ٥٣٥ من كتاب مس بل المطبوع في لندن سنة ١٩٢٧ .

(٢) تخرر العراق من الانتداب ص ٥ .

(٣) جريدة العراق ١١٢ بشأن استقبال برمي كوكس والعدد ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، المقالات الافتتاحية للتهديد للحكومة المؤقتة ، ١٢١ ص ٢ واختصاصية ١٢٢ ، وما بعدها بشأن لجنة الانتخابات العراقية وغير ذلك من المقالات في نفس السنة عن الوضع العام ، والعدد ١٢٥ أسماء الوزارة المؤقتة وتتمبر الجريدة خير سجل رسمي .

ومتنبئة في نفس الوقت ؛ لذلك لم يرض الوضع العراقي لما تضمنته هذه المعاهدة من انتداب حقيقى واستقلال مزيف .

وما زاد الطين بلةً والألم في نفوس العراقيين مدّة أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة بعد أن كانت أربع سنوات (٤) .

إن العراقيين لم يكونوا راضين على أى حال من أحوال الانتداب ، فلم تفهم الأعيب الاستعمار مطلقاً ، يتجلى ذكاؤهم عندما بايعوا فيصلاً على شرط الحصول على الاستقلال التام ، وقد كان فيصل يؤكد ذلك الشرط في جميع خطبه على الناس قبل انتخابه وبعده (٥) ، كما أن العراقيين كانوا يؤكدون على فيصل رغبتهم في الاستقلال التام في جميع ما ألقى من شعر ونثر ، ويؤيد ذلك زعماء القبائل الذين كانوا يلحون برفض الانتداب والمطالبة بالاستقلال التام (٦) ، وقد تشكلت بعض الأحزاب السياسية مثل « الحزب الوطنى العراقى » و « حزب النهضة العراقية (٧) » فساعدت على بلورة رأى العام ، وكانت تعقد بعض الاجتماعات السياسية التى توجه بها الرأى العام نحو الاستقلال ، وقد عقدت اجتماعاً مشتركاً أسفر عن لإرسال احتجاج إلى الملك فيصل ، ثم السير فى مظاهرة سلمية تعبر عن سخطهم على الانتداب ، والمناذاة بسقوطه وسقوط إنكلترا (٨) وباءت محاولات الوطنيين بالفشل (٩) ، لكنها نجحت فى عرقلة المعاهدة ووضع شرطين مهمين :

(٤) يراجع مشكلة الموصل لتفصيل .

(٥) فيصل بن الحسين فى خطبه وأقواله . أصدرته مديرية الدعاية سنة ١٩٤٥ يلاحظ ص ٢٢٢ وما بعدها من الخطاب .

(٦) جريدة المفيد العدد ١١٤ والعراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ وما بعدها ٢ .

(٧) يراجع بشأن تأسيس الأحزاب « ذكرى فيصل » تأليف محمد عبد الحسين - بغداد سنة ١٩٣٣ ص ٤٥ .

(٨) العراق فى دورى الاحتلال والانتداب ص ٩ وما بعدها ٢ .

(٩) حاول الوطنيون عرقلة الانتخابات وطالبوا بسحب المستشارين من الأولوية لأنهم يتدخلون لصالح بريطانيا ، فما كان من الحكومة إلا استبدال الشدة فنفت الشيخ الخالصى وولديه وغيرهم إلى إيران ، وطلب فيصل من عبد المحسن أبو طيخ مغادرة العراق فسانر إلى سوريا . مقالة فى دراسة العراق المعاصر ص ٧٢ .

الأول : الدخول مباشرة في مفاوضات تضمن إعادة النظر في المعاهدة لضمان المطالب الوطنية ، والثاني : صيانة حقوق العراق في ولاية الموصل ، إذا فشلت بريطانيا في إلحاق الموصل بالعراق فتعتبر المعاهدة ملغاة (١٠) . لم تكن المعاهدة لتختلف عن صك الانتداب بشيء فال المادة الرابعة حتمت على ملك العراق أن يستشير المنتوب السامي في جميع الشئون المهمة ، وأن يستشير استشارة تامة في كل ما يؤدي إلى سياسة مالية .

وقد حاول الوطنيون عرقلة تصديق المعاهدة بوسائل متنوعة منها مقاطعة الانتخابات ، وطالبوا بسحب المستشارين الإنكليز من الألوية ، لأن وجودهم يعرقل سير الانتخابات ، ويمنع الموظفين العرب من العمل بحرية تامة ، وطالبوا بإعادة المتفيين خارج العراق ، فأثر ذلك في سير الانتخابات وعطله ، فالتحذت الحكومة طريق الشلّة ، ونفت جماعة إلى خارج العراق (١١) فسارت الانتخابات حتى نهايتها ، ثم جرت حفلة افتتاح المجلس التأسيسي في ٢٧ آذار ١٩٢٤ ، ولما عرضت المعاهدة على بساط البحث قوبلت بمعارضة شديدة فاستعمل الملك فيصل نفوذه الشخصي ، وأقام المآذب في البلاط لكي يقنع النواب بالتصديق ، وذكرهم بما حدث له في سوريا ، ثم أخرجهم قائلًا : «لاتركوا فيصلاً معلقاً بين الأرض والسماء» ومع ذلك كله لم يوافق المجلس على التصديق حتى هدد المنتوب السامي بإعلان الحكم المباشر على العراق إذا لم تصدق المعاهدة (١٢) . ولما انعقدت الجلسة الأخيرة تخلف النواب عن الحضور ، ولم يحضر من المئة سوى تسعة وستين نائباً وصادق عليها سبعة وثلاثون نائباً ، وبذلك أبرمت المعاهدة تحت الإرهاب (١٣) ولكن المجلس التأسيسي سجل على نفسه ثقل وطأة المعاهدة على الشعب (١٤) .

(١٠) مجموعة مذكرات المجلس التأسيسي العراق ص ٤٤٠ - ٤٤١ بتلاد سنة ١٩٢٤ .

(١١) عل أثر نفي الخالصي وخروج أبي طيخ ، خرج بعض العلماء من العراق احتجاجاً على فعل الحكومة كالسيد أبي الحسن وعبد حسين الثاني . زكي صالح ٧٠ ، والحسن ٣٠ - ٣١ - ٣٢ .

(١٢) الحسن ٨١ - ١٠٠ .

(١٣) الحسن ٨٣ و زكي صالح ٧٢ .

(١٤) الحسن ١٣٨ ومذكرات المجلس التأسيسي .

وبعد تصديق المعاهدة أصبح للعراق وجهان مختلفان ؛ فهو لا يزال دولة منتسبة في نظر عصبة الأمم ، ولكنها مع بريطانيا دولة حليفة مستقلة محدودة صلاتها بإنكلترا بمعاهدة تحالف (١٥) . وبعد المعاهدة العراقية - الإنكليزية برزت مشكلة الحدود بين العراق وتركيا ، اقترح لأجلها أن يمد أجل الانتداب إلى خمس وعشرين سنة بناء على اقتراح لجنة الحدود (١٦) ؛ فحفز ذلك العراقيين إلى إنهاء أجل الانتداب . ، فوضعت مادة جديدة لم يوافق عليها العراقيون سميت معاهدة ١٩٢٧ (١٧) ، ولكن هذا الرفض لم يقطع الصلة بين العراقيين والإنكليز ، وإنما أظهر للإنكليز صعوبة السير في مثل هذه العلاقات ، فرفعت تقريراً إلى عصبة الأمم تشرح هذه المشكلة بكل جلاء وصراحة ، فقد جاء في التقرير « للعراق سياسة وطنية ومع هذا فهو تحت الانتداب ، وإن الوزراء مسئولون أمام البرلمان وفي عين الوقت تحت سيطرة المستشارين الإنكليز (١٨) .. » ولم يكن أمام الطرفين المتنازعين غير أمر واحد هو إدخال العراق في عصبة الأمم لحسم النزاع ؛ إذ أن دخول العراق عصبة الأمم سوف يجعله دولة مستقلة ، وبذلك سينتهي الانتداب الذي كرهه العراقيون اسمه وحاربوه ولعنوه (١٩) ، ليرضوا الرأي العام ، ويسكتوا أصوات المعارضة المطالبة بالاستقلال (٢٠) .

وقد تم دخول العراق إلى عصبة الأمم بعد عقد المعاهدة العراقية الإنكليزية الجديدة التي صودق عليها من قبل مجلس النواب في السادس عشر من تشرين الأول سنة ١٩٣٠ . وبالمعاهدة الجديدة ودخول العراق عصبة الأمم في الثالث

(١٥) غنوري ص ٦ .

(١٦) League of Nations, Question of Frontier Between Tur-
key & Iraq, C. 400. M. 147, 1925, pp. 88-89.

و غنوري الصفحة ٦ .

(١٧) الحسني ١٣٧-١٤٩ و زكي صالح ٧٥ .

(١٨) زكي صالح ٧٧ و غنوري ص ٧ والتقرير البريطاني ص ٢٧ .

(١٩) غنوري ص ٤ الخلفية .

(٢٠) كالجراند والأحزاب والشراء كما سنرى . ومن المقالات راجع لفهمي المدرس

(مقالات) ج ١ ابتداء ١٩٣١ في أكثر مقالاته .

من تشرين الأول سنة ١٩٣٢ ، أصبح العراق مستقلاً وقادراً على أن يحكم نفسه بنفسه (٢١) .

بعد دخول العراق عصبة الأمم أصبح له كيان عالمي معترف به رسمياً ، وقد التفت العراقيون بصورة عامة يلتمسون الإصلاحات الداخلية . وليس هناك حوادث لها أهمية كبرى أثرت في الشعر العراقي تأثيراً كبيراً غير الانقلابين العسكريين اللذين قام بهما الجيش العراقي ؛ فقد كان الأول في ٢٩- تشرين الأول - ١٩٣٦ بقيادة بكر صدق العسكري ، إذ أُرغم وزارة الهاشمي على التخلي عن الحكم (٢٢) ، أما الحادث الثاني فهو انقلاب رشيد عالي الكيلاني ، وقد امتاز هذا الانقلاب بصبغة وطنية ؛ لأنه كان ضد الإنكليز فكسب عطف الوطنيين ، وأثار في نفوسهم ما كن من رغبة في تحقيق الأهداف الوطنية الثامة ، واستغلال الفرصة بمناسبة الحرب العالمية الثانية ١٩٤١ ، ولم يدم أمد هذا الانقلاب إلا حوالى الشهر ، وعوقب القاعون به عقوبة صارمة (٢٣) ، ثم لما هدأت الأحوال وعادت الأمور تجري في مجاريها السابقة ، اصطلح العراقيون بئار الحرب العظمى الثانية .

(٢١) مخلدوى ص ٣٥ .

(٢٢) راجع زكي صالح ص ١٠٢ فقد جاء على ذكر مصادر مهمة في حاشية البحث .

(٢٣) تفصيل راجع زكي صالح ص ١١١ والقصة الرسمية لقيادة إيران والعراق ومذكرات تشرشل عن الحرب العامة .

The Second World War Vol. III Ch XIV pp 224-237
(London 1950) See also - Paiforce -, The Official story of The
Persia & Iraq Command 1941- 1946, H. M. Stationery Office.

أثر الانتداب البريطاني

بعد فشل الثورة العراقية وسيطرة بريطانيا على العراق سيطرة تكاد تكون تامة ، كانت أول مشكلة واجهها العراقيون هي مشكلة الحكم البريطاني من احتلال وانتداب وما سمي بالاستقلال . وما جاءت فترة عقد المعاهدات المختلفة إلا لتبرير وجود الاستعمار البريطاني ، وتغيير مظهره لاسترضاء الشعب ، والحقيقة أن المعاهدات كانت تحويراً لصك الانتداب ، بذل العراقيون جهداً كبيراً في التخلص منها ونبذ النير الأجنبي . بدأت أعمالهم بالاحتجاجات السلمية وكانت تتطور أحياناً إلى مظاهرة يطالبون فيها بإلغاء الانتداب ، وإزالة السلطة الأجنبية عن العراق ، وإسقاط كل وزارة توقع أية معاهدة لا تتماشى ورغبات الأمة (١) ؛

ولم يكن الشعر متخلفاً عن المشاركة في العمل الوطني ؛ فقد كانت أهازيجهم من أعذب الأغاني ، وأرق الأناشيد ، تدعو للاستقلال والحرية اللذين حرم العراق منهما طويلاً . وكان أثرها على العراق كبيراً إذ عمه الألم وشمله جو الحزن والكآبة ، وغدت أحاسيس الشعراء أحياناً تندب أيام العراق الذهبية الوارفة الظلال ، ورأى أنها لن تتحقق بغير الكفاح والنضال والثورة والعمل المتصل ، واستخلاص الحق السليب من بين مخالب المستعمر . أخذ الشعراء يهيشون أذهان الشعب ، ويذكرونه بماضيه المحيد ليعيدوا له ثقته بالنفس ،

(١) أرسلت برقيتان إلى الملك فيصل الأول موقعتان من كثير من أبناء الشعب وأبرزهم السيد علوان الياسري والسيد عمن أبو طيخ والسيد قاطع العواوي والشيخ عبدالواحد شكر والشيخ شعلان أبو الجرون (العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ٨ و ٩) من جريدة المفيد .

وليعرفوه بمرتزته بين الأمم الواعية ، ويظهروا المستعمر على حقيقته وأنه لا يقل عظمة ومقدرة عن المستعمر؛ فهو ابن العرب الذين شادوا الإمبراطورية العادلة المتسامحة ، ومن الشعراء الذين شاركوا في هذا النضال أبو المحاسن ، وقد كان وزيراً فاستقال بسبب المعاهدة (٢) ، ومن شعره الذي يفخر فيه بالعرب قوله :

بقوم أسموراً قياً شرف العـلا وأسطورهم يوم الوغى وأصول
هم القوم أما عزهم فمشيد تلبد وأما مجدهم فائيل
وليزيد الثقة في النفوس يعرج في القصيدة إلى شمائل العرب الكريمة
وسجاياهم السمحاء فيقول :

شمائل كالروض الأريض تضوع بطيب شذاه شمال وقبول
كرام يقلون العثار والردى بظل عواليهم ذرا ومقيـل
لهم جبل راسي الجوانح راسخ وظل لمن يأوى إليه ظليل
فلا العهد منقوض ولا الوعد مخلف ولا الجار مخفور اللام ذليل
ولرغبته في التأكيد على إعادة الثقة بالنفس فضل العرب على غيرهم من
الأمم ، وقد برر هذا التفضيل بعلمهم وإحسانهم وعلمهم وحضارتهم فقال :

يا ناطقاً بالضاد ما لفضيلة معنى يتم بغير حرف الضـاد
أو ليس عصر النور من آثارهم قبست لواضع نوره الوقاد
والعلم من ثمرات غرسهم الذي عمّ الورى بفواضل وأيساد
والعدل والإحسان من حسناتهم وهى التى جلت عن التغداد
وعلى مبادينا الحضارة أسست أيام ليست غيرهن أبـادى
ولا يكنى الشاعر بالماضى المجيد والحضارة العربية الشاخنة وفضائلهم
الكريمة (٣) ، إنما يلقي التبعة على الشعب العربى الذى يعيش ، ويقول صراحة

(٢) المصدر السابق ص ٧٨ - ٢ .

(٣) جريدة المفيد العدد ٢١٥ السنة الثانية ١٩٢٤ .

إن إرادة الشعب هي التي تغير فساد الأوضاع وليس هناك غير إرادته
الحديدية من غير حيناً قال :

مر أيها الشعب سيراً إلى العلاء غير هائب
فكيف عزمك ماض ونهج حقك لاحب
إرادة الشعب أقوى عزاً وأمنع جانب
ما غولب الشعب يوماً إلا وذا الشعب غالب (٤)

ولم يتخلف معروف الرصافي عن هذا المضمار ، فقد ألقي قصيدة في
إحدى حفلات المدارس هز فيها مشاعر العراقيين ، وذكرهم بماضى العرب
المجيد ، وما قعموه للعالم من حضارة ، عندما كانوا متحدين أقوياء ، وطلب
من أبنائهم أن يقتفوا أثر الآباء الكرام ، لأن الحياة الكريمة الشريفة لا يأتاها غير
المتاضلين المجاهدين الأباة ، أما الخاملون الذين لا يحفظون تراث الآباء ولا
يسبرون في الطريق الذي ساروا فيه ، فجدير بهم الموت والإهمال الدائم ،
فقال ينشد بهم لأنهم لم يحفظوا هذا التراث قائلاً :

وقد عهدوا لنا بتراث مُلك أضعننا في رعايته العهودا
وعاشوا سادة في كل أرض وعشنا في مواطننا عبيدا (٥)
وشتان بين والد كان سيداً أبناً حل ، وولد أضحى عبداً مستضعفاً مسترقاً
في عقر داره ، يحكمه المستعمر ويذله ، فما سبب استرقاق العرب في
أوطانهم ؟ !

(٤) المفيد العدد ٤٧ السنة الأولى ١٩٢٢ وله قصيدة في العدد ٨٨ من السنة نفسها .
والشار مشاركة في جريدة المفيد يستفيد منها الباحث ليطلع على أدبه ولاحظ العدد ١٧٤ من جريدة
لسان العرب السنة الأولى ١٩٢٢ ، فقد نشرت له قصيدة في الاختابية الجريدية وهناك قصائده
أخرى ، فله قصيدة في العدد ٤٢ من السنة الأولى من جريدة المفيد يتحدث فيها عن الشعب وعن
الوحدة العربية وحوادث سوريا والعدد ٨٨ ، وللميد الرحمن البناء قصيدة في العدد ٩٠
من الجريدة نفسها ، وله قصيدة أخرى في العدد ٢٥٣-٢٠٤-٩٢٤ وقصيدة للمهدي صالح العدد
١٦٥-١٩٢٨ ولأحمد حتى الحلل قصيدتان في جريدة النهضة العراقية .
(٥) جريدة العراق ٣١٢-١-٩٢١ ونشرت في الديوان ص ٣٤ ، ولاحظ ص ٦٣ من
الديوان .

يشرح الشعراء هذه الفكرة ويعزون ضعف العراق إلى تخاذله ، وإلى قوة المستعمر . وقد سرت هذه الفكرة بين الأدباء والصحافيين فهذه جريدة الزمان تكتب في مقال افتتاحي لها تحت عنوان (استضعفونا فأهرقوا دماءنا - بريطانيا مسئولة عن هذا الضعف) ثم شرحت في المقال ما أصاب العراق من تأخر تحت نير الاستعمار البريطاني ، وقالت إنها السبب الأول في هذا التأخر فلم تصنع شيئاً في سبيل تقلمه ورقبه (٦) ، وأخذت الجرائد عامة تندد بالانتداب الذي وقف حائلاً دون أمانى الشعب ، ولن تتطهر أرض العراق إلا إذا بذل أبنائها أرواحهم رخيصة في سبيلها . وما الحياة سوى تنازع على البقاء ، فقد قال هبة الدين الشهرستاني :

ليس الحياة سوى مجال تنازع في العيش والأقوى هو المنصور (٧)
وقد ساعد الشعر الوطني على بث روح الحماس في النفوس ، ودعا إلى النضال والكفاح وعدم مهادنة المحتل ومساعدته ؛ لأن التسامح معناه الرضا بالذل الذي حاق بالبلاد ، وأورثها الأحزان والآلام ، ولن يدفع المستعمر عن حنى الوطن غير لم الشمل والقوة والثبات ؛ لأن ضعف الشعب أغرى المحتل ، وقال العيلى مؤيداً هذا الرأي :

أترى يبلغ المرام ضعيف إنما يبلغ الأقوى المرام
واتحاد القلوب أفضل قوس حين ترمى أبدى الكماة السهام
ويعجب للشعب كيف يحتمل الذل والموان ، وهو المعروف بصلابته
في سبيل حقه فقال :

ما عهدنا العراق يحمل ذلاً ويجأى ندلاً ويحوى طغماً
إن ضعف النفوس أطمع فيه طالما الضعف أطمع الظلماً .

(٦) الزمان ٢٧-١-١٩٢٨ لاحظ جريدة العاصمة العدد ١٠٨ السنة الأولى ١٩٢٣ المقال الانتحاشي (اعتماد الشعوب على نفسها) وغير ذلك من أعدادها و (المفيد) وكثيراً من الجرائد التي كانت تصدر في هذه الفترة .

(٧) جريدة العاصمة ١٩٩ في ٤ تموز ١٩٢٣ ولاحظ قصيدة حافظ جميل في جريدة الاستقلال العدد ١٦١-٣-١٩٢٣ وقصيدة حمزة قطان في مجلة اليقين ١٨-١-١٩٢٣ .

وإذا كنت للثيم تـسـوـلى وإذا ما غزته ما استقما (٨)
وإذا أراد الشعب أن يتحرر فعليه أن يأخذ حريته بقوته ، لأن المستعمر
إذا ما أعطاك حريتك ، فسوف يمن بها عليك ، فعلى العراقيين أن يأخذوا
الحرية اقتساراً من المستعمرين ، فقال البصير :

أنا يا رفاقي لا أريد سلامتي فتذكروني إن هلكت رفاقي
إن لم تعيش نفسي العزيزة حرة فلأسعين بها إلى الإزهاق
لأجاهرن بما تبجن ضمائري وليكثرن وسائل الإرهاق
هب أن رحمة أسرى ستكفي أو لست أحمل منة الإطلاق
فأشقي من أسرى على بأن أرى يد أسرى يوماً تحمل وثاقي (٩)

وللى جانب الدعوة إلى محاربة المستعمر ، كانت دعوات إلى المهادنة وإلى
التسامح مع المحتل ، فوقف محمد باقر الحلبي يرد على هؤلاء المهادنين ، ويسخر
منهم في حفلة عودة بعض المثفين السياسيين فقال :

قالوا لنا اعتدلوا في نهجكم أفلا قالوا انصفوا وحقوق الشعب تقتصب
ما الاعتدل تجاه الاعتداء سوى جبن ، يحسنه للقاتل الرهب (١٠)

وبعد أن صادقت الحكومة على المعاهدة في ١٠ تشرين الأول سنة
١٩٢٢ ، تركت أمر إبرامها للمجلس التأسيسي ، فقد كانت تشعر بعظم
المسئولية ووطأة هذه المعاهدة على الشعب ، وقد أيدت هذه الرغبة المعتمد السامي
البريطاني فقد أراد إضفاء صبغة شرعية على المعاهدة ، وقد نص في المعاهدة
على وجوب مصادقة المجلس التأسيسي عليها .

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر في ١٣ كانون الأول ١٩٢٩ .

(٩) جريدة شط العرب ١٤-١-١٩٢٤ وقد ورد البيت الأخير في (حقيقة الزهاوي)

بتعداد ١٩٤٧ ص ١٠٩ :

فأشقي من ويسلات أسرى أن أرى يد أسرى يوماً تقسك وثاقي
ولاحظ قصيدة عبد القادر الزهاوي في جريدة الأمل العدد ٢١-١-٩٢٣ وقصيدة الجواهري

في انقلاب العدد ٢٣-٨-أيلول ٩٢١ .

(١٠) انقلاب العدد الأول ٧-٥ تموز ٩٢١ بمناسبة عودة السيد نور العيد علوان .

بدأت الجهود تبذل لتحول دون تصديق هذه المعاهدة ، وأول عمل قام به الوطنيون ، هو مقاطعة الانتخابات للمجلس التأسيسي ، ولكن الحكومة حاربت الذين سعوا في مقاطعة الانتخابات لتقضي على حركة المقاومة ، لكنها لم تنجح ؛ فقد انضم رجال الدين إلى المقاطعة ، وأفتوا بتحريم الانتخابات (١١) حتى يحولوا دون انتخاب مجلس يلزمهم بمعاهدة حورت عن صك الانتداب ، ثم إن السلطات الاستعمارية لم تكن واضحة للمقاصد لإزاء العراق ، ففي الوقت الذي تنادى فيه بالحرية والاستقلال، والدعوة لتكوين حكومة وطنية دستورية ، تغلق الأحزاب وتعطل الصحف ، وتتنى أبناء الوطن لأنهم يشتغلون من أجل حريتهم واستقلالهم (١٢) ، تفعل كل ذلك دون أي ضمان أوحى بإيضاح لأعمالها ، ولو أرادت أن تعطى الضمانات والوعود ، ففي تجارب العراقيين ما يمنهم من تصديق هذه الوعود والضمانات ، لذلك تفرقت الانتخابات وتعثرت طويلاً ، وقد شعر نفر من أبناء البلاد بأن الانتخابات سوف تتم ، والانتخابات فرصة لإدخال بعض العناصر المناوئة للاستعمار ، ووجودهم داخل المجلس التأسيسي يؤثر أكثر من وجودهم خارج المجلس لصفته الشريعة ، وتأثيرهم المباشر على المعاهدة لتعديل بنودها لصالح العراق ، الذي قد يضمن استقلال العراق ويؤدي إلى تفاهم مع بريطانيا ، ويضمن مصالحها في الشرق الأدنى ، وقد أطمع دخول بريطانيا مع العراق في معاهدة بعض الوطنيين فظنوه أصبح نداء لها ، فخدعت بريطانيا جماعة من الوطنيين الذين اعتبروا المعاهدة تقدماً محسوساً في العلاقات البريطانية (١٣) ، وفاتهم أن العراق لا يزال مستعمرأ ، وتعتبره عصبه الأمم تحت الانتداب البريطاني . كما ظن بعض المتفائلين بالانتخابات أن رفض المعاهدة من مجلس عراقي بصورة رسمية سيزيد من

(١١) أصدر رجال الدين فتوى بتحريم الانتخابات قالوا فيها (قد حكنا بجرمة الانتخابات وأن الداخل فيها محارب لله ورسوله وللأمة الطاهرين ٠٠) وقد زاد عليها الشيخ مهدي الخالصي (وأن لا يفتن في مقابر المسلمين ..) العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ٢٨ ج ٢ .
 (١٢) جريدة العاصمة مقال بجوق (ع . صميم) العدد ١٦٨ صدر في ٢٣ من آيار ١٩٢٣ ولا حظ أعمال المنتدوب السامي (ذكرى فيصل الأول) لمحمد عبد الحسين ص ٤٤ (بغداد ١٩٢٣)
 والعراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ١٤ ج ٢ .

(١٣) لاحظ جريدة العاصمة للقائين الافتتاحيين ١٦٨ و ١٦٩ السنة الأول ١٩٢٣ .

القوى المعنوية للشعب داخل العراق وخارج العراق ، فيجب أن تلخل عناصر وطنية مهمة في المجلس التأسيسي ، لتصف في وجه المعاهدة لتحقيق بعض مصالح البلاد . فكان انقساماً في الرأي أعطى القوة للمستعمر ف ضرب المعارضين وقاومهم بعنف ، وأجرى الانتخابات تحت سيطرته وإرادته ، ولكن الحكومة فقدت ثقة الشعب منذ أول يوم من أيام الانتخابات .

ولم تعد له هذه الثقة بأى انتخابات جرت بعد ذلك . فشلت الخطوة الأولى من مقاطعة الانتخابات ، غير أن الوطنيين لم يفشلوا من محاولة أخرى هي الوقوف أمام المعاهدة حتى يتم تصديقها من قبل المجلس التأسيسي لاستبدال صك الانتداب بمعاهدة جرت البلاد إلى الولايات والمصائب . قالت جريدة الاستقلال في مقال افتتاحي لها «إننا نريد أن يكون الميدان الذى ستدخلنا إياه المعاهدة ميدان سلم دائم ، لاسلحة عراك تعكر ودّ الدولتين المتعاهدتين ، ميدان استقلال تام لانشويه شائبة الوصاية ، وصرح حرية مطلقة لا يقيدها غل الانتداب . وبكلمة واحدة إننا نريد أن يكون ذلك الميدان ميدان استقلال ناجز لاسوق نخاسين ، سوق تعضى فيه أمة بأسرها صلكرقها وعبوديتها .. (١٤) » .

وكانت التجربة واضحة كل الوضوح ، فقد عبرت عن أهداف الوطنيين ووضعت الخطوط العريضة لأهدافهم فقالت : هذا هو الميدان الذى نريد أن تدخلنا إياه المعاهدة ، وذلك ما تريده الأمة بأجمعها ، وإننا نرجو أن يضعه المتعاقلون نصب أعينهم ، وأن يتذكروا عند بحثهم في كل مادة من مواد المعاهدة .. » .

كان المستعمر يذلل جهداً كبيراً في إمرار المعاهدة ، وقد شن حملة لتأييد هذا التصديق ، بيد أن الشعب كان يقظاً ، فإن رجال الفكر كانوا للمستعمر بالمرصاد ، فكانوا يعقلون الاجتماعات لبحث نصوص المعاهدة ، وإيضاح الأضرار التى تعود على البلاد من جرائها ، وكان المجلس التأسيسي يتأثر بالرأى

(١٤) جريدة الاستقلال العدد ٥٣ للـ ١٩٢٢ والعدد ٤٠٦ السنة الرابعة لاحظ مقالين لياسين الهاشمي وأمين الزهاوي وقد كان سلمان الشيخ داود من المؤيدين المعاهدة - لاحظ مقاله المنشور في جريدة العراق في الخامس من نيسان ١٩٢٤ .

العام الخارجي الطامح بالحرية والاستقلال ، وعلى الرغم مما بذله المستعمر من جهود تارة بالقسوة وطوراً باللين لم يقدر على أن يغير وجهة نظر الشعب. وكان من جراء هذا الوعي أن تجمهر الشعب حول بناية البرلمان ، وأغلقت الحوائط حتى اضطرت السلطات إلى إطلاق النار لفض هذه المظاهرة . ولئن قضت على المظاهرة وتفرق شمل الشعب ، فقد تركت وراءها أثراً كبيراً وفي نفوس أبناء الشعب عزماً متوقداً (١٥) .

(١٥) يلاحظ في جريدة العراق ١٣٢٤-٤-١٩٢٤ بلاغ وزارة الداخلية وبيان رئيس المجلس التأسيسي وفي أعدادها لهذا الشهر ذكر لما حدث في العراق من جراء الانتخابات .

الشعر والمعاهدات والساسة

جند الاستعمار الإنكليزي كل قواه المادية والمعنوية وبذل مجهوداً جباراً في سبيل تصديق المعاهدة الأولى ، والمعاهدات التي تلتها ، ليوهم الرأي العام العالمي بأن المعاهدة وقعت من هيئة منتخبة لها صفتها الشرعية ، ولكن الشعب كان يقطاً وكانت طلائع النهضة الفكرية متوقدة ، تنير لهم السبيل إلى الحرية والاستقلال والأمن والرخاء . وقد اتخذ الزعماء طرقاً شتى ليحولوا دون وضع طوق المعاهدة في عنق الشعب ، وكان الشعراء أشد الناس إحساساً ، وأسرعهم تلبية للواجب المقدس ، فقد شعروا شعوراً صادقاً بالمسئولية الملقاة على عاتقهم ، وصار هذا الواجب جزءاً من حياة الشاعر وتفكيره ، فكان يحذر التواب مرة من المصير المحتم الذي سيلاقونه متى غضب الشعب عليهم ، وسحب ثقته ورضاه بهم ، وتارة يسخر من المعاهدة التي تعطي العراق مظاهر الاستقلال الخوفاً ، وآونة يسخر من الوزراء والحكومة التي جاءت في إثر المعاهدة . والحق أن هذه الفترة كانت من أخصب فترات الشعر السياسي ، ومن الوسائل التي التجأ إليها الشاعر تهديد نائب المجلس التأسيسي متى صادق على قيود الاستعمار بغضب الشعب وعقابه وأنه لن يرحم نواباً جرؤوا إلى اللذل والهوان ، ولن يراف ساعة الحساب بمن أذله ، فقال عبد الرحمن البتاء :

يأبها النائب المنتوب عن أمم	ألفت إليه مقاليد التداير
احذر مناقشة الشعب الحساب غداً	من دون عذر وإشفاق وتوفير
يوماً به الشعب يبدى الغيظ من أسف	هناك تفرع فيه سن مأسور

إن الصلور براكين إذا انفجرت في الأرض تنسف فيها كل معمور^(١)

وقد كانت حملات الوطنيين متواصلة ، ألحبت صدر الشعب عامة ، فسرت روح الحماس إلى داخل المجلس التأسيسي ، بعد أن ظن الحاكوم بأن الأكرية الساجقة من الأعضاء يجانبهم وفي جانب المعاهدة ، وفي المصادقة عليها يكسبون حقاً شرعياً في البقاء على أرض العراق . وأوهمهم بذلك تلك الجهود التي بذلت في التمهيد للانتخابات ، ودخول بعض العناصر الإقطاعية وروساء العشائر ، ومن الموالين لهم ، لكن إلحاب الرأي العام من قبل قوى المعارضة الوطنية الثائرة فوت عليهم ما كانوا يعتقدون ، فقد أخذت ساعة التوقيع على المعاهدة تتأخر يوماً بعد يوم ، حتى عيل صبر المنتوب السامي « السير هنري دوبس » ولم تجد جميع المحاولات السلمية التي بذلت من وراء الستار فتية ، فأخذ المنتوب السامي يضغط بصراحة على المسئولين ، ويأمر بوجوب التصديق على المعاهدة ، وبلغت به الجرأة أن عين يوم إبرامها^(٢) ، ولإفسيعلن الحكم المباشر في البلاد ، ولما أجل المجلس البت فيها إلى يوم تال ، هاله الأمر ، وذهب إلى الملك فيصل وطلب دعوة المجلس ليلاً ، لأن التأجيل معناه رفض المعاهدة . وقد دُعي المجلس ليلاً فلم يحضر الاجتماع سوى ٦٨ نائباً من ١٠٠ نائب وقبيل منتصف الليل تم التصديق على المعاهدة^(٣) فتحول الانتداب إلى معاهدة .

وقد ظن الاستعمار بأنه سيخضع العراقيين بتحويله صك الانتداب إلى معاهدة ، وسيرضى العراقيين بثوب الانتداب الجديد ، بيد أن الحيلة شملت حتى الملك فيصل الذي سعى سعياً متواصلاً في عقد المعاهدة ، قرأه بأم عينيه كيف ضاع استقلال العراق^(٤) . وناء الشعب بقيود المعاهدة وزاد

(١) جريدة الاستقلال العدد ٤١٣-٤-١٩٢٤ . ولا حظ قصيدتي حمزة ققطان في العدد ٣٩٧ ومحمد خليل من السارة في العدد ٤٠١ من السنة نفسها .

(٢) حين للمنتوب السامي اليوم المباشر من شهر حزيران سنة ١٩٢٤ لإبرام المعاهدة .

(٣) واقع ٣٧ . وخالف ٢٤ وامتنع عن التصويت ٨ وكان الغائبون ٣١ - مذكرات المجلس التأسيسي ص ٤٣٥-٤٣٩ .

(٤) تمرد العراق من الانتداب - محمد غنوري ص ٥ بغداد ١٩٣٥ .

الألم في النفوس ظهور مشكلة الموصل التي انتهت بضمها إلى العراق على شرط مد أجل المعاهدة إلى خمس وعشرين سنة^(٥) ، وقد مدت المعاهدة فعلاً ، فلم يكن أمام العراقيين غير النضال الجليلد^(٦) .

أعطت المعاهدة الجلديدة الحكم للعراق ليؤلف حكومة وطنية لما ملك ودستور وبرلمان ، أعطته كل مظاهر الحكم الديمقراطي ، ولكن كانت هذه المظاهر معطلة عن العمل الفعلي ؛ لأن السلطات البريطانية هي الحاكمة حسب نصوص المعاهدة الأخرى ؛ التي نصت على وجوب الامتثالة التامة ، وهذا تدخل صريح في سيادة العراق الوطنية قبول بالسخرية اللاذعة من قبل الشعراء .

كان الشعراء ينظرون إلى الوضع العام العراق ، والألم يهصر قلوبهم ونفوسهم فيظهر عليهم طابع الألم ظاهراً ، ويبدو تارة بشكل سخرية لاذعة من الحكومة ووزرائها ونوابها ، وطوراً يظهر مشوباً بالرثاء لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم ممثلين على مسرح السياسة ، وأصبح المستشار الإنكليزي فيها المخرج والملقن ، وآونة نجد الشاعر مثلاً جاداً ، يحاول معالجة الأمور برزانة وتعقل ، ويدفع الشعب إلى نبذ هذه المظاهر البراقة الكاذبة التي تعطى الاستعمار السيطرة الفعلية . وقد كان الرصافي سابقاً إلى تسجيل مظاهر هذا النضال ورسم صورة خالدة للتاريخ في العراق ، فوقف ساخراً وقال :

هذي حكومتنا وكل شموخها كذبٌ ، وكل صنيعها متكلف
غشت مظاهرها وموه وجهها فجميع ما فيها بهارج زيف
وجهان فيها باطن متستر للأجنبي وظاهر متكشف

(٥) لاحظ ما قبل من الشعر في جريدة الاستقلال الأعداد ٢٥ و ٢٩١ السنة الرابعة و ٥٥٧ و ٥٧٦ السنة الخامسة و ١٣١٠ السنة الثامنة . وقد كتب الدكتور فاضل حسين رسالة من (مشكلة الموصل) طبعت في بغداد ١٩٥٥ تعتبر خير ما كتب من المشكلة .

(٦) ما كانت بريطانيا تريد إنهاء الانتداب عن العراق ، فكان من جراء ذلك الصدام الذي أدى إلى رفض معاهدة ١٩٢٧ والتي وضمت بعد معاهدة ١٩٢٦ فانقضت بموجبها الموصل إلى العراق . لاحظ (مشكلة الموصل) الفصل السادس ١٧٦ و ٢٣٧ .

وبعد هذه المظاهر الخلابية الكاذبة التي حاول الاستعمار أن ينجذ بها
العراقيين ، فقال :

علم ودمتور ومجلس أمة كل عن المعنى الصحيح محرف
أسماء ليس لنا سوى ألفاظها أما معانيها فليست تعرف
من يقرأ المستور يعلم أنه وفقاً لصك الانتداب مصنف
من ينظر العلم المرفرف يُلْفِيهِ في عز غير بني البلاد يرفرف
من يأت مجلسنا يصدق أنه لمراد غير الناصحين مؤلف
من يأت مطرد الوزارة يلفها بقيود أهل الاستشارة ترسف (٧)

والقصيدة من غرر الشعر السياسي ، وأصدق مسجل للعهد الذي نظمت
فيه . ولم يكتف الرصافي برسم صوره ، وتسجيل حوادثه ، إنما كان يحس
بالواجب الملتي على عاتقه في محاربة هذا الدخيل ، وهز حمية المواطنين ،
ويعصف الواقع عارياً أمام الوزراء ، ليعرفوا موقفهم وعملهم في هذه الدولة ،
فهم دمي يحركها المستعمر لأية وجهة يريد ، ليست لهم سيطرة على وزاراتهم
يستملكون الصولة والسطوة كالألات الصماء . لذلك خوفهم الرصافي من
الأجنبي ، ومن المصير الأسود الحالك الذي ينتظرهم عندما يثور الشعب عليهم ،
فستكون ثورته عارمة لن تبقى للمستعمرين والمتحكمين بقية ؛ لأن الشعب
هو الحاكم الوحيد الذي له السلطان الفعلي على نفسه ، وإن استكان هذا
الشعب فله يوم آخر يأخذ فيه استقلاله ، لأنه شعب عربي شريف أبي ، لم
يرض بالاستعمار والنذل ولن يرضى بالمستعمرين وأذئابهم ، ولن يتخلف
عن سوح الشرف والجهاد فقال :

إن دام هذا في البلاد فإنه بلوامة لسنوفنا مسترعف
لا بد من يوم يطول عليكم فيه الحساب ، كما يطول الموقف
فهنا لكم لم يغن شيئاً عنكم لسن تقول ، ولا عيون تلثف

وإذا دعا داعي البلاد إلى الوغي أُنظن أن هناك من يتخاف
 أيذل قوم ناهضون وعندهم شرف يعزّز جانيه المرهف
 كم من نواصر للعلماء سنجزها ولحي بأبدى التأثيرين مستنف
 وتبلو سخرية العبيدى فى المتناقضات الموجودة فى نظام الحكم مع
 بعضها ؛ فالبلد مستعمر سيطرت عليه القوضى يتّز تحت الاستعمار ، متأخر ،
 ولكنهم يدعون بأنه ذو سيادة يسوده النظام والحرية والاستقلال ، ولكن
 هذا السيد الحر يقمر على عقد معاهدة لاستعباده . فقال :

نحن فى معجم السياسة شعب ربُّ مُلْك وما ملكنا خطاما
 نحن فى معجم السياسة شعب ذو نظام وما رسينا نظاما
 نحن فى معجم السياسة أحرار ر ، ولكننا قاصرون يتامى
 فإذا الشعب كان غير رشيد كيف يدعى لعقد عهد لزاما
 وتبلو ثورة العبيدى واضحة عنلما يرى القيود التى كبلت شعبه وأذلته ،
 فما استطاع المقاومة المسلحة ، ثم تحولت هذه الثورة إلى آلام تنخر فى النفوس
 وظهرت شعراً يطفح بالتهكم المرير على الخليفة التى تقيد حليفتها لتستديم
 صداقتها وحلفها للدولة صغيرة ، واشعب متوثب يريد الانطلاق والحرية .
 أهذه هى الصداقة بين ندين متحالفين ، أم أنها سيطرة الذئب الشرس الذى
 يدمس السم بالعسل ؟

خفى أيها الخليفة عنا من قيود أصبحن عاراً وذاما
 أثقلت كاهلاً وأدمت قلوباً وأذلت من النفوس كراما
 كلما فكر العراقى فيها لعن الدار والحصى والمقاما
 طليت عسجداً ودفت صديداً وأذيت سماً وصبت مداما (٨)

أضفت المشاكل السياسية على الجحوى للشعبى العام جواً من الحزن واليأس
 والكآبة ، وran على العراقى التشاؤم ، فطفح الأدب بالألم والنقمة والثورة ؛

(٨) جريدة البلاد العدد الصادر فى ١٣ كانون الأول ١٩٢٩ .

فقد وجد العراقيون أنفسهم تحت نظام من الحكم جديد ، وكانوا خلال فترة الاحتلال والانتداب يحاربون الإنكليز وجهاً لوجه ، أما اليوم فقد وجلوا الحكم الإنكليزي قد تقنع بقناع عراقي ، فحال بينهم وبين العدو الأصلي .

بقى الناس في حيرة وقلق واضطراب نفسي ، كان من جرائه الاضطراب في المثل ، وظهور طبقة النهازين الذين لا يردعهم رادع من وطن أو خلق ، همهم الاستفادة على حساب الشعب وحساب المستعمر وحساب إخوانهم الذين تركوا في ساحة الشرف والنضال . ألم يكن قسم كبير من هؤلاء يناضلون مع المناضلين ولكنهم هادنوا المستعمر راضين بالمظاهر الكاذبة والوظائف الموهومة ، وبذلك وضعوا سلاحهم واثنوا عن الكفاح ؟ وباليتمهم وقفوا عند هذا الحد ، بل أصبحوا شوكة في قلوب المناضلين ، يردونهم عن الاستقلال ويدفعونهم عن الحرية ويضعفون معنوية الشعب ، ففتوا في عضد القضية المشتركة التي مات من أجلها الشهداء ، ونفى الأحرار وسجن الأبطال ، وشرد من شرده وشتت من شتته . إن تغليب المصلحة الفردية على مصلحة المجموع كان خداعاً وخيانة ورياء ، لم يكن يتوقعه المخلصون . ولئن رضيت هذه القلة بالمجد الزائل والجاه الكاذب المؤقت ، ونسيت مصالح شعبها ، فإن أبناء الوطن المخلصين أكثر من هؤلاء المنشقين المارقين . فقد وصلوا الكفاح لنيل قسط من الاستقلال والحرية ، واعتبروا هؤلاء المنشقين جزءاً من المستعمرين يجب أن يحاربوا مثلهم ، ويصب عليهم سوط العذاب ، فلئن غلبهم الإنكليز على بعض إخوانهم بالقوة مرة ، وبالرشوة تارة ، وبالحيلة طوراً ، وبضمان مصالح الإقطاعيين وروساء العشائر ، فإن حق الوطن واسع وميدان الجهاد حافل بالمخلصين . وكان من جراء خذل هؤلاء ازدياد الرغبة في استخلاص حقوق الشعب من اللخبيل المستعمر .

وقد تجلّى ذلك واضحاً في الشعر العربي ، فوصف حال الشعب وصفاً دقيقاً صادقاً بعيداً عن بهارج الكلام وزخرف القول ، وتجلت الصورة بعيدة عن روح التعقيد اللفظي ، ومحاكاة القصائد القديمة ، إذ لم يجد الشعراء في نفوسهم مجالاً حيويّاً يتجاوب وأحاسيسهم الجديدة التي تحيط بهم ،

وتهددهم في كرامتهم وعزتهم ، فكان الألم عميقاً حاراً ، والشعور دافقاً
 فياضاً ، بعد أن وجد الشاعر نفسه جزءاً من المجموع تواجهه نفس المشكلات
 التي تواجه الشعب بأجمعه ، فرأى في نفسه الشعب والشعب في نفسه ، فأخذ
 يصرخ متحدياً قوى الانتداب وأذنايه من بني جلدته ، مطالباً بالإصلاح ،
 ثائراً على تدهور الحال ، محتجاً على ماوصلت إليه بلاده . ومتى اتفقت مصالح
 الشاعر مع مصالح الشعب ، ومتى شعر الشاعر بشعور الشعب وعكس مصالحه ، فقد
 سار في طريقه الذي يريده الشعب ، وفاز بالجد والشهرة والتمجيد والخلود ؛
 لذلك لم يكن الشعراء يربطون لإبراز صورة فنية من صور الاحتلال وموالاته
 إخوانهم للاستعمار لتعجب الناقد ، فسيحسن جمال الخيال فيها ، ورقة
 الأسلوب ، وعذوبة البيان ، ورصانة العبارة ، إنما كانوا يحاولون إبراز
 مشكلات الوطن السياسية والاجتماعية بأسلوب سهل ، ليرسل الشاعر إشعاعاً
 من روحه ، وصرخة من قلبه ، ليوقظ الشعب الذي لا يزال يعيش في
 اللبؤور ، ففاضت قصائد العصر بالحماس ، واضطربت بالثورة ، تصب
 في قوالب رائعة . وأهم الكلمات التي ظهرت في الشعر هي : الاستشارة ،
 المستشار ، الانتداب ، الدخيل ، الغربي ، الحرية ، الاستقلال التام ، الكفاح ،
 النضال ، السيادة ، الأجنبي ، كرمى الوزارة ، النواب ، المجلس ، وغير
 ذلك من الكلمات التي جاءت مع تشكيل الحكم في العراق .^(٩)

وهناك ظاهرة جديدة بالتسجيل هي بروز عدد كبير من الشعراء في
 حقل النضال السيامي في هذه الفترة . وهذه الظاهرة تدل على رهاقة الشعور
 العربي في العراق ، ولعجاب العراقيين بالشعر أكثر من إعجابهم بالنثر .
 وقد همد حماس هؤلاء الشعراء لما انتهت هذه الفترة ، فلماذا تصفحنا جرائد
 هذه الفترة نراها طافحة بالشعر القومي السيامي (٩) ، وإن اختلف الشعراء
 في التعبير بالنسبة لثقافة الشاعر ومدى استيعابه للتجربة الشعرية ، والظاهرة

(٩) لاحظ من جرائد هذه الفترة ومجلاتها : النجف ، المنبر العام ، العراق ، الأخلاق ،
 الزمان ، النهضة العراقية ، بغداد ، الحيرة ، النور ، بطائح العراق ، البلاد ، صدق الاستقلال ،
 الطرائف المصورة ، الجهاد ، نداء الشعب ، المستقبل ، وصدق الوطن .

الثانية هي طغيان السياسة على كل شيء في حياة الشعب ، فقد أعطيت للحياة السياسية الأهمية الأولى فوق قضاياها الاقتصادية والاجتماعية والعلمية .

وظاهرة ثالثة جذيرة بالتسجيل هي أن الحكومة الإنكليزية قد منحت من الحرية ما أمكن بها للعراقيين أن يعبروا عن رغباتهم تعبيراً صادقاً لم نعهده — وبالأأسف الشديد — في أدوار الحكومات العراقية المتتابعة بعلمعاملة ١٩٣٠ ، وقد كانت هذه الحرية في ظل الاحتلال والانتداب أوسع مجالاً من الحرية في ظلال الحكم الذي شارك فيه العراقيون الأجني ، إلا إذا استثنيت فترات صغيرة تسلم فيها الحكم جماعة من أبناء الشعب ، وأرادوه أن يعبر عن رغباته ، ولكن سرعان ما تكبت حرية الشعب ويساق الأحرار إلى السجون بأنهم مات هم أبرياء منها . وأروني شخصاً كتب في جريدة عشر معشار ما كتب في فترة الاحتلال في حاكم من حكام العراق ، ولم يؤذ في رزقه وجسمه وأبنائه وذويه . لذلك كانت تفضحيات الأدياء كبيرة ، ضحوا في سعادتهم وراحتهم وأرواحهم في سبيل مثلهم العليا بكل اطمئنان دون أن يمنوا على الشعب ، ومن هؤلاء كان شاعرتا معروف عبد الغني الرصافي الذي قال ساخراً :

تجوز سيادة الهندى فينا وأما ابن البلاد فلا يسود
إذن فالهند أشرف من بلادى وأشرف من بنى قومي الهندو
فكم عند الحكومة من رجال تراهم سادة وهم عبيد
كلاب للأجانب هم ولكن على أبناء جلستهم أسود
وليس الإنكليز بمقلينا وإن كتبت لنا منهم عهد (١٠)

إنه القول الفصل بأن الاستعمار لن يخرج من بلادنا ، وإن كتب العهد إذا لم يطرده أبناء الشعب ، لأنه متمتع بالخيرات رافل بالنعم ، وتارك أبناء البلاد في جوع ، وعرى ، وفقر ، إلا أولئك الذين اتخلوا من أنفسهم دمي يحركها كما يشاء ، قال محمود الملاح :

بلاد غريب الدار فيها منعم ولكن على أهل البلاد مقابر
وتحكم فيها الهند والهند أعبد فلو لطمت منا الجباه حرائر

تمثيل من طين تقام خديعة ومن لم يصيح للطين فهو مكابر (١١)
الإستشارة والوزارة :

كانت إحدى بلايا البلاد في هذه الفترة ، الحكم الأجنبي ، الذي أليس وجهاً وطنياً ؛ فالظاهر تدل على وجود حكم وطني ، ولكن الواقع أن الأجنبي هو الذي كان يحرك دفة الأمور بوساطة المستشارين الذين دسهم في أرجاء هذا الحكم . لذلك لم يكن للوزراء أو النواب أو جميع المواطنين من رأى ، إنما هم آلات في اللولة يحركها المستشارون ، فحيل بين الشعب وبين المستعمر بستان وزارة عراقية لا تقلد أن تنفع البلاد ما دام المستشارون لا يريدون ذلك . فوجه الشعراء اهتمامهم إلى هؤلاء المستشارين ، وسخروا من الوزراء الذين تصرف لهم أمور البلاد ويحل قضاياهم الأجنبي . كانت سخرية الشعراء لاذعة وتهكمهم مريراً موجعاً ، يطفح بالنقمة على هؤلاء الذين أصبحوا مطايا للمستعمر ، وبموج بالسخط على السياسة البريطانية التي تبث بمقدرات البلد ، وتريد في تعقيد الأمور ، فجعلت البلد عبداً تسخره كيفما تريد ، باسم هؤلاء الوزراء الذين صدقوا أنهم الحاكرون فقال محمد باقر الشيباني :

ما يزيد المشكلات تعقداً أن ليس ثمة من يحل ويعقد
قالوا استقلت في البلاد حكومة فضحكت أن قالوا ولم يتأكلوا
أحكومة والامشارة ربهان وحكومة فيها المشاور يعبد
الحكم حكمهم بغير منازع والأمر مصلره هم والمورد
المستشار هو الذي شرب الطلى فعلام يا هذا الوزير تعربد

وقد آلم معروف الرصافي ووضّع الوزراء واستخذائهم أمام السلطات الإنكليزية ، والذين سكروا غروراً راضين باسم الوزارة دون أن يقلعوا لهذا البلد خيراً ، حتى خجلت كراسيهم من هذا الاستخذاء والغرور فقال يوثبهم :

يا الله يا وزراءنا ما بالكم إن نحن جادلناكم لم تتصرفوا
 وكأن واحدكم لفرط غروره ثمل ثمل بجانبيه القرقف
 أفتتبعون من الحكومة باسمها ويفوتكم في الأمر أن تتصرفوا
 هذى كرامى الوزارة تحتكم كادت لفرط حياثها تتصف
 أنتم عليها والأجانب فوقكم كل بسلطته عليكم مشرف
 أبعد فخرأ للوزير جلوسه فرحاً على الكرمى وهو مكتف (١٢)

وزخر شعر الرصافي في هذه الفترة بتأنيب النواب والوزراء وجميع
 الذين تولوا السلطات العامة . وتأنيبه مشوب بالتهكم المرير الموجه ، فيصف
 الوزير كذيل حمامه ليس له من سلطان ولا حول ، وإنما هو صنم تشيع فيه
 الذلة والصغار ، فيقول :

ووزير ملحق كالذيل في حيز الحمامه .

ذنب أصبح للحكم به أقيح شاره

ويلد كرسب تهكمه عليه ، لأنه لا عمل له إلا أن يقبض راتبه في نهاية الشهر :

فوزير القوم لا يع حل من غير إشاره

وهو لا يملك أم رأ غير كرسى الوزارة

ياخذ الراتب إما بلغ الشهر سراره (١٣)

وقال الرصافي صراحة إن الوزراء جماعة من أبناء الشعب آثروا مصالح
 الأجنبي على مصالح أبناء الوطن ، ولا يستوزر الإنكليز العراق المخلص لأنه
 سوف يعمل لمصالح وطنه وبلده ؛ لذلك فإن الوزراء غلصون للمصالح
 البريطانية فقال :

إن الوزارة — لا أبالك — عثنا ثوب يفصل في معامل لنننا

(١٢) ديوان الرصافي ص ٤٥٤ .

(١٣) ديوان الرصافي ص ٤٥٦ ، والمرار الظلام الذى لا يظهر فيه القمر ويكون القمر
 في الحاق ، كناية عن نهاية الشهر لاحظ الديوان ص ٤٢٩ قصيدته بمناسبة قدوم كراين سنة ١٩٢٩ .

لا يرتديه سوى امرئ أضحى له طبعاً ، وداد الإنكليز ، وديننا (١٤)

ووقف محمود الملاح موقف الناصح الواظظ ميبناً أثر المستشار في تعقيد أمور الشعب ، ويزو قوة المستشار إلى تخاذل أبناء الشعب بأحزابهم ، ولو أنهم وحنوا صفوفهم لطرّدوا المستعمر شر طردة . لكن النفع الذاتي وحبه الكراسى أغريا بعض أبناء البلد ، فضحى في سبيلها بكل مصالح الشعب فقال :

الاستشارة قيد بن أرجلنا وكيف يمشى الفتى في حال تقييد
كم أمة دونها في الشرق قد نجحت ونحن معها بحال غير مودود
المستشار الذي تجلّ به عقد لا من يحمي لحلّول بمعقود
وما التخاذل في الأحزاب غير يد يلسها ^{٢٢}طامع يسعى لتبديده
فوحلوا خطوكم يا قوم واعتقلوا أن النجاح محال دون توحيد
إن الكبير كبير النفس من صغرت في عينه خشب قامت بتسفيد
لا ترغبوا في كراسى في نعومتها ففي النعومة شك غير مخضود
تلك المقاعد كم غرت أختا ثقة كما تفر ثانيا الخرد الفيد
إن الكراسى أنصاب مهنمة فيها تضحى بلاد باسم معبود (١٥)

وكثيرون الذين خانوا بلادهم في سبيل مطامعهم الفردية وجشعهم ، فأصبحوا دمي يحركها الأجنبي ، وهويسخر منهم فقد تهاكوا على رضاه فارتعوا تحت أقدامه معتبرين أنفسهم جزءاً من هذا الأجنبي الذي دخل بلادهم ، ولا تربطه بهم رابطة اللغة أو الدين أو العقيدة أو التاريخ أو الجنس غير الاستعمار واستغلال خيرات البلاد ، فهم خدّم لهذا المستعمر لا

(١٤) ديوان الرصافي ص ٤٩٦ والطريف أن يلجأ الرصافي إلى المثل العراقي المستحسن (الصيت النورة والعمل للزرنيج) فيطبقه على المستشار وعلى الوزير فيقول بتكم لاذخ :

ألا يلفسوا على الوزير مقالة له بينها لو كان يشجل توينخ
أراك بمحسام الوزارة نسورة وأما جنابك المستشار فزرنيج

(١٥) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٢٠ السنة الثانية ١٩٢٩ .

يخجلون من خدمته ، ويتفاخرون بأنهم من محاسبيه فقال على الخطيب ساخراً
متهمكماً ، وسخر معه الشعب والتاريخ والأمم الواعية المستقلة :

واللحيفة أعوان توأزهم منا علينا وقد أضحوا لهم خطماً
لا ينكسون من النكراء هامتهم فلا يرون بها بأساً ولا غمماً

ومن أذل نفسه في سبيل مطامعه ، وغدا مطية للأجنبي يرى خيره في
خيره ضمناً لمصلحته الفردية ، زاعماً أن ذلك في سبيل الشعب ، وما هو
إلا دمية تؤدي ما يطلب إليها دون تفكير ، تنعم بالمظاهر من مال زائل
واللقاب كاذبة :

والقابضون زمام الأمر أشغلهم عنا المطامع حتى جاوزوا النهما
مستسلمون ضعاف في مراكزهم ما قلموا قديماً أو أخروا قديماً
حسب تحركها أيدي محبأة فتضحك الشعب والتاريخ والأمم
ليهلك الشعب مادامت مناصبهم مضمونة تقذف الألقاب والنعماء (هـ ب)

وقد انفرد محمد مهدي البصير برأى بالنسبة للأكثرية الساحقة من
الشعراء ، فهو لم يلق التبعة على الإنكليز وحدهم أو المستشارين من الإنكليز ،
إنما ألقاها على كاهل الوزارة العراقية . فمن المفروض أن يكون الوزير
حالاً زمام أمور وزارته متصرفاً بشئونها قادراً على الهيمنة التامة وبذلك لن
يكون للمستشار قيمة في الوزارة ولن يتدخل في أموره ، والرأى خيالي لا
يمكن أن ينطبق على وزارة هذا العهد ، لأمور منها أن الذين جامعوا الوزارة
هم من ذوى المصالح المشتركة مع الإنكليز ، أو أنهم بحاجة إلى العون
الاقتصادي ، أو من الضعاف الذين خبرهم الإنكليز وسبروا أنفسهم ، إذ
ليس من المعقول أن يأتي الإنكليز بوزير قوى معارض لسياساتهم ، ولكن
البصير أراد أن يدفع الوزراء إلى العمل ، ويخلق فيهم القوة والعزة والكرامة
للمصاولة ، فإذا اتفق هؤلاء الوزراء — وهذا خيال شاعر — فقد يأخذون
الحكم بأيديهم وسيعم الإصلاح العراق ، والبصير أخذ يرد على الذين

يعترضون عليه بأن المستشار سوف يضطربهم بقوته إلى الرضوخ لأوامره ونواهيهِ ، ولكن لم يجد برهاناً واحداً على وقوف الوزراء أمام رغبات المستشار والحد من رغباته . والحقيقة أن المثل العامة قد تفسخت ، فلو أجمع أبناء البلد على مقاطعة الوظائف وصلحوا أمام التهديد والسجون والموت ، لما تمكن الإنكليز من تطبيق خططهم الاستعمارية في استقلال العراق . إن أكثر العراقيين مسئولون أمام التاريخ في تشجيع المستعمر على التدخل في أمور بلادهم ، وهم أخرى باليوم وأجبر بالتفريع ، لأنهم لم يستأنقوا فضائلهم وضعفت معنوياتهم ، مع نفع زائل ونعيم حائل ، فقد قال البصير من قصيدة ألقاها في يوم افتتاح الحزب الوطني ببغداد :

ما رسمنا للاستشارة حداً فلها العذر أن تجوز الحلودا
شغلت مركز القيادة منا إذ رخصنا فكنا لها جنودا
أتقولون إنها أكرهتنا فعملنا ما لآنسراه سليلدا
شكر الله سعيكم - خبروني كم بلدكم في كبجها مجهودا (١٦)

وقد عكست الجرائد العراقية الحيرة والوجوم اللذين هيمنا على ربوع العراق ، من الوضع الشاذ في هذه الدولة الجديدة المستقلة وذات السيادة ، والتي لها برلمان ، ولكن لا يمكن لأبنائها أن يديروا دفة الأمور فيها ، مع أن الوزراء مسئولون أمام البرلمان ، فهم لا يصدرن أمراً إلا بموافقة المستشارين . وقد قالت جريدة الزمان بصراحة إن البلاد مستعمرة وجاءت بالدليل بقولها : «.. يقولون إن البلاد مستقلة وإن شئونها إنما تدبرها حكومة وطنية .. والله يعلم أن البلاد مستعمرة لا مستقلة ، وكيف لا تكون كذلك وهذه جنود الإنكليز فيها ، وهذى طياراتهم حلقة في سماء العراق صباح مساء .. وكيف تكون مستقلة ، وكلمة الإنكليز هي العليا في الصغيرة والكبيرة ..» وتفند الجريدة المزاعم الإنكليزية بقولها : «.. ومن الخطأ في الرأي أن نستمر على التفرير بأنفسنا فترعم مخالفة الإنكليز لنا ، إنما هي

(١٦) جريدة العراق العدد ٢٥٧١ السنة التاسعة ١٩٢٨ وقد أعيد نشرها في الطرائف المنصورة العدد الرابع الصادر في الحادي عشر من شهر آيار سنة ١٩٣٠ -

مستندة إلى الإخلاص المتبادل ، فالمعروفه الذي لا يمكن تجاهله أن القوى إذا حالف ضعيفاً ، فهو إنما يسعى إلى مغنم يلبسه ثوب الحق وينتق عنه تهمة الغصب والاعتداء ، ويغير ذلك لا يمكن تعليل هذه . ولو بحثنا الحالات المتعددة التي سلمت فيها الوزارة العراقية ، لوجدنا أن أساس التسليم للإنكليز في هذه البلاد إنما يركز على الإفراط في الحذر ، لئلا يصطلم هذه الاستقلال المفلوج بسيطرة الإنكليز .. (١٧) .

وهاجم محمد صالح بحر العلوم كل وزير وكل نائب ، واعتبره جاسوساً يخدع الأجنبي ، وما الراتب إلا أجرة عمله هذا فقال :

تجسس البعض منكم بخبرة ومهاره
ونال منا أجوراً عن جهله يحداره
ففي النيابة أجر وأخسر في وزاره (١٨)

والطريف أن يجعل المستشار أباً لهؤلاء و(المس بل) أهمهم ، ويحدثنا عن نتيجة الذين لا يتفقون معهم في الرأي ، فهي إما السجن أو النفي أو الشنق ، وبذلك يظهر لنا التعصب الأعمى من الأجانب ضد أبناء الوطن الذين لا يوالونهم ، ولا يرضون بحكمهم البغيض . وقد جعل أول العقوبات للوطنيين السجن والنفي والاعتقال ، أما أولئك الذين يصرون على موقفهم الوطني فهو الموت : وحكم من يتوق طرق الحماية خنق . نفي وحجز وسجن وإن أصر فشنق

النواب :

غرث مظاهر الحكم العامة بعض الشعراء ، لذلك اختلقوا بادئ الأمر في معاملة نواب المجلس ، فحسبهم بعض الشعراء بأنهم قادرون على انتشال البلاد من التأخر ، والسير بها نحو معارج الرقي والتقدم ، ولهم من السلطة ما يقومون به اعوجاج أمورها ، ويتفقون أودها ، لأن المجالس النيابية في

(١٧) لاحظ المقال الافتتاحي لجريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .

(١٨) من مخطوطة بقلم الشاعر في مكنتي .

الدولة المستقلة هي عمادها وركنها الأشد ، وساعدها الذي تعتمد عليه وقت الشدائد والملمات ، وهي ذات القول الفصل في القضايا العامة ، في شئون الدولة . ومتى اتفقت كلمة النواب في أمر من الأمور فما على الدولة إلا الانصياع كرهاً أو رضاً لرغبتهم ، غير أن نواب العراق ، ويا للأسف ، لم يكونوا يمثلون الشعب العراقي ، فقد أخلوا بتنصلون من التبعة العظمى الملقاة على عواتقهم ، لأنهم لم يشعروا بأن الشعب قد جاء بهم إلى المجلس ، ولم يحسبوا له حساباً في مناقشة الأمور ، إنما همهم كان منصباً على لإرضاء الوزارة التي جاءت بهم إلى المجلس . فلم يلودوا عن مصالح الوطن في أحلك الظروف ، وكان أول دليل على ذلك موقفهم من معاهدة ١٩٢٢ ، فقد كان عدد الموافقين ٣٧ نائباً من مجموع مائة نائب ، ولم توات الشجاعة بعضهم ليحضر إلى المجلس ويعارض ويرفض المعاهدة ، وليدخل في نضال جديد ، ولو كان النواب مستندين على القوى الشعبية ما جبنوا وتولاهم الذعر ، فهم بين نارين ، نار الوزارة التي أدخلتهم البرلمان ، وهي تضمن لهم مصالحهم الخاصة ، ونار القوى الشعبية التي ثارت على المعاهدة ، فإذا وافقوا على المعاهدة فسوف يغضب الشعب ويلصق بهم تهمة الخيانة . ولو رفضت المعاهدة لتغير مجرى السياسة في العراق ، وتغيرت أساليب حكم الشعب العراقي .

ومن الشعراء الذين أملوا الخير من النواب ، وتفاءلوا من وجود المجلس النبائي فاضل الصيلى ، وحسين كمال الدين ، وعبد الرحمن البناء ، وقد كان تفاؤلهم ذلك بعيداً عن الواقع ومزجياً بالشك ، فقد رسموا الطريق التي يجب أن تبذل في سبيل الشعب في ذلك صروح الجهل ، وإصلاح الأخلاق الفاسدة المتردية ، والأخذ بيد العامل والفلاح نحو الخير والصالح ، فقد خاطب حسين كمال الدين النواب في موشحة له :

أنوابنا هل لكم نهضة تقومون فيها بإصلاحنا
فقد كاد يهلك عمالنا وأودى الطسواء بفلاحنا

إذا مات فلاحنا جائعاً فلا فخر ننجو بأرواحنا(١٩)
 ورحب فاضل الصبيل بهم ، وهاجم سوء الظن الذى يحق بهم لأنهم
 سقام الخائف الراجى ، والعائد اللاجى ، والمستجير الناجى ، فقال :
 لا صح سوء الظن فيكم أو وهى عزم ولا زلت بكم أقسام
 أبلوا مرائر عزمكم ورجاؤنا أن تكذب الأضغاث والأحلام(٢٠)
 وقال عبد الرحمن البناء إن الشعب يفلى النواب بروحه ، لأنهم مالكو
 زمام الأمر فى العراق ، وسوف يتحلون فى سبيل مصالح الشعب ، ويقضون
 على أعداء الشعب فقال :

يا من ملككم زمام السيف والقلم رقوا العراق بنشر العلم والعلم
 ما اختاركم شعبكم إلا لنصرته فأبدوا رأيه حفظاً إلى الذم
 كونوا يداً فى مجال الذب واحدة تقضى على كل أفاك ومنتقم
 الشعب بالنفس فدأكم وقدمكم إلى العلا فاحلروا من زلة القدم(٢١)
 ولما نجلى للبيان أعمال هؤلاء النواب خلال التجارب القاسية التى مر بها
 العراق ، ظهرت خيبة الرجاء وظهر كذب الظنون ، فإذا بالنواب قانعون
 بالراتب وبالمناصب دون العناية بمصلحة الشعب فقال خيرى الهنداوى :
 أين العدالة أيها النواب كذب الرجاء وسدّت الأبواب
 قصدتكم الآمال وهى ظوامى فإذا الذى قد غرهن مراب
 كنا نظن بكم نزال حقوقنا فتقطعت فيكم بنا الأسباب
 ألهاكم قبض الرواتب يا ترى أم أقنعتكم هذه الألقاب(٢٢)

(١٩) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٧٢ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ قصيدة أخرى بتوقيع
 (شاعر نجى) فى العدد ٣٦٦ من الجريدة نفسها ، ويبدو أنها للشاعر نفسه ، فهى من نفس
 الطراز .

(٢٠) جريدة العراق العدد ٢٤٧٣ السنة الثامنة ١٩٢٨ .

(٢١) جريدة الأخلاق العدد ٦٧ السنة الثانية ١٩٢٨ ولاحظ العدد ٧٩ لسنة ١٩٢٨
 قصيدة شاعر أسعد من الموصل والعدد ٥٩ السنة الأولى ١٩٣٨ قصيدة بتوقيع ل . م . ج .

(٢٢) غزوة ديوان الهنداوى فى مكتبته .

والواقع المرير أن جل النواب لم يكونوا راغبين في معارضة الحكومة ، ولم تكن لهم الجرأة والشجاعة على الثورة على أي قانون تسنه ؛ إذ لم تكن هناك أحزاب قوية لها من المنعة ومن القوة ما تسند نوابها ، فقد مر العراق في دور كانت فيه أحزاب ، ولكنها لم تتغلغل بين أفراد الشعب ، ولم تكتسب يوماً من الأيام شعبية . وقد كانت الانتخابات في كثير من الأحيان تجري بدون وجود أحزاب في البلد ، وتدير دفة الانتخابات سلطات الحكومة التي منحت نفسها صلاحيات واسعة لحمايتها من الشعب ، فإذا وجدت حزباً بدأ يقوى سارعت إلى حله تخلصاً من المشكلات التي قد تنجم منه ، حتى أن ياسين الهاشمي حل الحزب الذي كان يرأسه بعد أن أصبح رئيساً للوزارة ، فكان الشعب بعيداً كل البعد عن الانتخابات ، فما الشعور العام بأن المجالس أداة بيد الحكومة وأن النواب يعينون فيها (٢٣) ، ولم تكن هذه المجالس تملك السيطرة على الوزارة ؛ إذ لم يحدث في تاريخ العراق أن استقالت وزارة ؛ لأن المجلس قد سحب منها الثقة (٢٤) .

ولم تكن عيون الشعراء بعيدة عن أحوال هؤلاء النواب ، لذلك انصب عليهم سيل من التهمك المرير ، كانصبا به على الوزراء ، فقد قال الجواهري يلذعهم بقامى الكلم عندما عقدت الجلسة النيابية لتأبين عبد المحسن السعدون :
ولقد أقول لرافعين أصابعاً ليست تحس كأنها أحطاب
رهن الإشارة تخفى أو تعلى وينال منها السلب والإيجاب
ماذا نؤتم سادق : هل أنتم بعد الرئيس - كعهده - أخشاب
هل تنهضون إذا استثيرت نخوة أو تجملون كأنكم أنصاب
هل أنتم - إن جد أمر ينبغي توحيد شملكم به - أحزاب (٢٥)

(٢٣) لما انتخب الرضاقي نائباً جاءه أحد إخوانه ليقدم له التهاني فقال له : أهتلك بانتخاباتك نائباً فضحك الرضاقي وقال تقصد بضمي نائباً .

(٢٤) تعلى أحد رؤساء الوزراء والنواب قائلاً «من أراد أن يبرهن على شعبيته فليستقل من المجلس ، وأنا أبرهن له بأنه لن يعود إلى المجلس » فسكت النواب .

(٢٥) جريدة العراق العدد ٢٩٢٧ السنة العاشرة ١٩٢٩ وذكرى السعدون ص ١٢٠ .

وقد سخر على الشرقى من المجلس ، ولم ير فيه سوى المظاهر الكاذبة وترك أمره للأيام ، فهي كفيلة بتقدير قيمته ، ولا أرى الأيام بحاجة إلى أن نجيب ، فقد وجدت البرلمان آلة دون شك بيد الحاكمين فقال :

صوروا مجلساً بهياً أنيقاً شيخه واقف ويلقى خطابه لو سألتم منه سؤالاً دقيقاً سوف تعطىكم الليالى جوابه وكان محمد باقر الشيبى واضحاً كل الوضوح بوصف مجلس النواب بألة يراد بها إسباغ حق شرعى على القوانين والرغبات التى يريدتها المستعمر ، فهو دريئة لأعمالهم ومجنأ يصلون به أقوال الشعب ، والحق أنه طريق لاستعباد الأمة ، فقال فى الحفلة التى أقيمت على شرف مستر كراين :

فخلوا من الحكم المشوّة صورة ومثالها هذا الزمان الأسود وأقامها العهد (العتيق) حكومة هى طبق ما انفقوا عليه ومهلوا وتسوتروا بالجلسين فمجلس طوع البنان ومجلس يتجلسد ولم يرض عن الضيم والذل الذى يكتنف العراق ، وقال إن هذا سكوت الأنبي الصابر المتفائل المستعد فقال :

أما العراق فلإن فى تاريخه شرفاً يضىء كما يضىء الفرقد ليس السكوت من الخضوع وإنما هذا السكوت تجمع ونحمد (٢٦) البرلمان والمعاهدة :

تركت المعاهدة الأولى وما يتبعها من أحداث أكاراً سيئة فى نفوس أبناء الشعب ، فاضطرب العصر اضطراباً واضحاً وماج بين قوتين ؛ قوة الشعب التى يساندها المثقفون والواعون ، وقوة الانتداب ومن سار فى ركابه من المتشككين والانتهازيين . وقد كان الجميع يتوقون إلى استقرار الحال ، بعد أن طال فترة الاضطراب ، فالإنكليز يريدون استقرار الأحوال لتمشية مصالحهم وتحسين سمعتهم بين العالم المتمدن ، ويريد الوطنيون الاستقرار ليسيروا قلماً فى إصلاح البلاد إصلاحاً عاماً يمكنهم من مواصلة الكفاح مرة

أخرى . وبين هؤلاء كانت بعض القوى تؤيد الحكومة الوطنية ، التي تركز على استبقاء ماسمته المعاهدة بالاستقلال ، كيلا تتحطم مساعيهم وأملًا في الحصول على أشياء جديدة من الإنكليز . وقد فكر الإنكليز في الخروج من هذا المأزق ، وفتحت ذهنهم على شيء جديد هو عقد معاهدة جديدة ، يحددون بموجبها علاقتهم بالعراق ، ولإدخاله إلى عصبة الأمم ، دولة مستقلة في الظاهر ، محافِظين على مصالحهم الخاصة ، وبذلك يوهمون الشعب بإنهاء الانتداب عن العراق ، وابتعاد الأثر الأجنبي فيه ، ولما نشرت مسودة المعاهدة في الجرائد لم ير العراقيون فيها تغييراً كبيراً عن المعاهدة السابقة ، فقد قبلت سيادة البلاد وشتت ضلها معارضة قوية من الأحزاب . ومرة أخرى في فترة حالكة ، وأحجم الساسة عن تشكيل وزارة توافق على بنود المعاهدة ، وتعطل تشكيل وزارة جديدة مدة ثلاثة أشهر ، ولم تجد الدعاية التي شنها الموالون للاستعمار أو تؤثر مساعيهم شيئاً . فقد أعلنت المعارضة برئاسة ياسين الهاشمي أن المعاهدة قد أعلنت الاحتلال من جديد (٢٧) ، إذ نصت على إجراء مشاورة تامة وصریحة في جميع شئون السياسة الخارجية مما له مساس بمصالح العراق وبريطانيا (٢٨) ، وأن يقدم العراق جميع ما في وسعه من التسهيلات والمساعدات اللازمة من استخدام السكك والأنهار والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات في حالة الحرب أو خطر الحرب (٢٩) وضمنت بريطانيا لنفسها مكانين لإنشاء مطارين جويين داخل الحدود العراقية ، لتقيم فيهما القوات البريطانية (٣٠) ، وأوجبت تدريب الجيش العراقي تحت الإشراف البريطاني ، وشراء أسلحته من بريطانيا إذا تيسرت هذه الأسلحة لديها (٣١) .

(٢٧) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤ ونص المعاهدة في البلاد ٢٠٨-١-٩٣ .

(٢٨) المادة الأولى من المعاهدة .

(٢٩) المادة الرابعة من المعاهدة .

(٣٠) المادة الخامسة من المعاهدة .

(٣١) يلاحظ تعليق خلدوري : تحرر العراق من الانتداب ص ٩-١٤ وتعليق الدكتور زكي صالح مقدمة من تاريخ العراق المعاصر ص ٨٧ و ٨٨ وخطاب للمعارضة الذي ألقاه ياسين الهاشمي . العراق في دورى الاحتلال والانتداب ص ٢٢٠ و ٢ وخطاب الحكومة ص ٢١٣ .

صودق على المعاهدة في ١٦ ت ٢ في جلسة واحدة بأغلبية ساحقة ،
وبذلك أصبح العراق في وضع جديد ، أهله ليكون عضواً في عصبة
الأمم (٢٢) ، وبخول العراق عصبة الأمم اعتبر دولة مستقلة ذات سيادة .
إن الوضع الجديد الذي سيصله العراق ، سيجعله بصورة رسمية مستقلاً ،
واعترف به شكلياً بأنه دولة مستقلة ، غير أن هذا الحل لم يرض الذين
لمسوا السيطرة البريطانية واضحة في تسيير دفة أمور الحياة العامة للعراق .
ولم تخف عنهم بنود المعاهدة من قيود قيدت العراق : فكان رد الفعل
عميقاً في النفوس ، وبدأ الوطنيون يهاجمون الحكومة التي غدت آلة طيعة
بيد المستعمرين ، كما هاجموا المعاهدة وأظهروا ما حاق بالعراق من تأخر
وانحطاط ، لأن الإنكليز هم الذين يصرفون أموره حسبما تقتضيه مصالحهم .
وقد شاركت الصحافة العراقية في إبراز عيوب المعاهدة الجديدة .
للشعب ، وأظهرت ما فيها من متناقضات غريبة ، فقد كتبت جريدة
المستقبل في افتتاحية لها « إن الاستقلال التام لا يجمع والاحتلال في صعيد
واحد ، ونضرب مثلاً بارزاً للعيان هو جثوم الطائرات الإنكليزية على
أرض العراق .. » ثم قالت : « .. السماء والأرض والحوادث تشهد بأن
إنكلترا لم عقدت معاهدة ١٩١٥ مع شريف مكة (سجين قبرص)
لم تفكر باستقلال البلاد العربية ، كما أنها لم تخطر لها أن تترك العراق حراً
مستقلاً ، ولكن دعاة السوء وسامرة الأخاديع يزعمون أن الوزارة
الحاضرة دخلت المفاوضات مع بريطانيا على أساس الاستقلال التام ،
فما أوقع هذا الزعم وما أفضح الدعوة الضعيفة إليه .. » (٢٣) .

إن الجهود التي بذلت للحيلولة دون المصادقة على المعاهدة ذهبت أدراج
الرياح لأن الملك فيصل كان راضياً عن المعاهدة خلافاً لموقفه في معاهدة
١٩٢٢ فقد أعلن بكل صراحة هذا الرأي وقال : « إن العراقي حر طليق
لا سيد عليه غير إرادته . وحليفنا بريطانيا ليس لها في هذه البلاد سوى
شيء واحد هو هذا الخط الجوى .. » .

(٢٢) راجع غلوري ص ١٥ - ٣٧ .

(٢٣) تحرر العراق من الانتداب ص ١٤ .

ولم يكف فيصل بذلك إنما هاجم اللين وقوا أمام المعاهدة ، وقاله « وإن الذي يؤسف له ، ألا يكون من بين رجال الأمة من يدرك حقيقة ما بينته لكم ، ولا يجروا على مصارحتكم به ، اضطرت أن أصارحكم بذق .. » غير أن هذا الرأي لم يكن يتفق ورأى زعماء المعارضة ، لأنهم وجعلوا المعاهدة جائزة وفاسدة وأنها قيدت استقلاله الموهوم ، وأرادوا أن تبطل هذه المعاهدة بمعاهدة أخرى تعطى البلاد استقلالاً كاملاً ، لانتشوبه شائبة ، وأن المجلس الذي عقد المعاهدة مجلس غير شرعي ولا يمثل البلاد (٣٤) ، وأن المعاهدة تتضمن الاحتلال الأبدي (٣٥) لأنها زادت من أغلال العراق وعزلته عن الأقطار العربية (٣٦) ، ووضعت العراق رسمياً تحت حماية بريطانيا سياسياً واقتصادياً وعسكرياً ، وقضت على الوحدة العربية وثبتت أقدام الصهيونية في فلسطين الشهيبة (٣٧) .

ولم يختلف رأى الشعراء عن رأى رجال المعارضة من القوى الوطنية ، فقد هاجموا المعاهدة والبرلمان الذي صادق عليها ، واعتبروها معاهدة باطلة لأن البرلمان الذي أقرها لا يمثل الأغلبية ، وبرلمان لا يمثل الشعب يجب ألا يقر معاهدة تقرر مصير البلاد ، ومستقبلها السيامي ، خاصة وأن الكثرة الكاثرة قد قاطعت هذه الانتخابات ، وصفحات الجرائد تطفح بأسماء الذين قاطعوها وأسماء المحتجين على طريقة الانتخابات وخاصة جرائد المعارضة ، فقد قال صالح الجعفرى بعلم شرعية البرلمان لأن إنكثرا أشرفت على الانتخابات ، وصيرتها نحو الهدف الذي تريده وجاء أعضاؤه وفقاً لرغبتها ، وكيف يوثق بمجلس طوع لإرادة الإنكليز .

(٣٤) لاحظ وثيقة التناخي بين حزبي الإغاء والحزب الوطني في جريدة الاستقلال العدد ١٧٠٣ السنة ١٣ سنة ١٩٣٣ .

(٣٥) جريدة الزمان الصادرة بطل البلاد ٢٨٤ في ١٧ تشرين الأول ١٩٣٠ ، لاحظ آراء حكمة سليمان وعبد رضا الشيبى وحسن الباجه جي وبقدر الشيبى وعبد رمان ضد المعاهدة ، كما دافع عنها نورى السيد في العدد نفسه والعدد ٢٨٥ .

(٣٦) الزمان العدد ٢٨٤ لاحظ رأى الكيلاني والمشمي .

(٣٧) المصدر السابق لاحظ رأى مزاحم الباجه جي .

موقد جاء نوابه حسب رغبتهم خاصة ، وإن أغلبية الشعب لم تشترك في هذه الانتخابات ، قال من قصيدة :

ما الانتخاب بمشروع إذا اتفقت كل البلاد على أن ليس تنتخب
أبرلمان وهذا الشعب قاطعه إلا القليل ، وقد حفت به الريب
ما مثل المجلس العقود أمته وإنما عقلوه وفق ما رغبوا
خدعهم الشعب بالأشباح ماثلة جوفاء تسترها أثوابها القشب
كان لندن مقناطيس مجلسنا فحيثما جذبته تلك ينجذب
منها القرار ومنها أن نفضه والأمر منها ومنا الطوع والأدب(٣٨)

وقد نظم في هذا المعنى جواد السوداني ، وأظهر غضب الشعب على الحاكمين ، وشرح طريقة تلقين هؤلاء للدفاع عن مصالح الدخيل فقال :
لم ننتخب نحن نواباً نوابيناً منهم ، إذا كانت الأعيان تعيينا
لا تعقلوا مجلساً ترضى مبادئه ألقاً ، وتغضب من شعبي ملاينا
رجاله تشبه البيغاء لو نطقن تلقن الأمر (منهم فيه) تلقينا(٣٩)

وقد طعن الشعراء بالانتخابات التي جرت في ظروف شاذة من التهديد والإرهاب ، وبالنواب الذين رضوا أن يمثلوا البلاد في مثل هذه الظروف ، لأنهم أصبحوا شوكة في قلب الوطن ، ينغرون في مصالحه وفي استقلاله وفي سمعته حتى جروه إلى الشقاء والفساد ، ومثل هذا الرأي جماعة منهم محمود الملاح ، قال من قصيدة ألقاها في الحزب الوطني المعارض :

لا أمان في مجلس قائم فـو ق ضروب التهديد والإرهاب
فيه تغتال للبلاد حياة وتساق البلاد نحو الحراب
أى فضل لفتية مالم من هدف غير خطمة الانتداب
ما شقاء البلاد إلا من الأذ ناب ، ويل لمعشر الأذئاب !

(٣٨) جريدة صدق الاستقلال العدد ٢٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٣٩) المصدر السابق العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

خربت في البلاد أطنساب ذل فغلبوا كالأوتاد للأطنساب(٤٠)
وقد بذل معروف الرصافي (٤١) جهداً كبيراً داخل المجلس ضد
المعاهدة لأنه كان عضواً فيه ، وألقى خطاباً ندد فيه بينودها قائلاً : « .. إن
المعاهدة كمعاهدة الحمل مع الذئب وما أدرى أية قيمة لمعاهدة تقع بين
الحمل والذئب ... » ثم بين الظروف التي حملت العراقيين على عدم
الرغبة في المعاهدة بقوله : « .. نحن في عقد هذه المعاهدات لسنا على اختيار
بل على اضطرار . كلنا يعلم أن العراق في قبضة بريطانيا الحديدية ، أو
النارية ، وأن الإنكليز لهم سلطة نافذة قهارة جبارة غدارة ، ففي هذا
الوضع تعقد معاهدة مع الإنكليز ، معاهدة بمعنى أنهم يملون ونحن
نكتب .. »(٤٢) ويتجلى ألم الرصافي الواضح في تتابع الصفات التي أسبغها على
سلطة الإنكليز ، وقد كان الرصافي ضد كل معاهدة عقدت مع العراق ،
فقد قال عن معاهدة ١٩٢٢ :

والعهد بين الإنكليز وبيننا كالعهد بين الشاة والريال
من ذا رأى ذئب الذئاب معاهداً بصداقة حملاً من الأحمال(٤٣)
وقد طفحت جرائد هذه الفترة بسيل من أسماء الشعراء الذين تقموا
على تصديق المعاهدة ، وأخلوا بها جمونها وينتقلون سياسة الحكم القائم

(٤٠) جريدة الجهاد العدد ٢٤٠ الصادر في ٢٥ آب سنة ١٩٣٠ .

(٤١) بين الرصافي يتدد بالمعاهدة طوال حياته مطالباً باستقلال العراق . لاحظ - آراء
الرصافي - جمع سيد البدرى بغداد ١٩٥١ ص ٢٠ و ٢٥ وما بعدها وعنى قصيدة محمد صالح
بحر المعلوم ضمن مخطوطة شعره يقول فيها :

عهد حزيران وكم ثائر	حول على عهد حزيران
فصله بالبنى من لندن	ووضع عني ينفذ
نواب الأمة في جانب	وأهـا في الجانب الثاني
وحكم من ترفى - وإن لم تكن	محزنة - عطف على الزاني

(٤٢) جريدة نداء الشعب العدد ٣١٠ ص ٢١ تشرين الثاني ١٩٣٠ .

(٤٣) آراء الرصافي للبدرى ص ٣١ وأدب الرصافي لمصطفى علي ص ١٠٥ وديوان
الرصافي ص ٥٠٢ .

آنذاك ، فمنهم إبراهيم أدهم الزهاوى (٤٤) ، وجواد السوداني (٤٥) ،
 ومحمد حبيب العبيدى (٤٦) وعبد الحسين الملا (٤٧) وبقاى الشيبى (٤٨)
 والصافى (٤٩) وشفيق العالى (٥٠) ، وغيرهم كثيرون ممن نشروا فى
 جرائد ومجلات أخرى . وقد اتفقوا جميعاً على أمر واحد هو التنبيد
 بالمعاهدة الجائرة ، وآلمهم أن تكون بلادهم لعبة تستغلها قوات الأجنبي
 لصالحها ، تلهى مصلحة الشعب الذى ذهب ضحية الوعود الكاذبة ،
 وضحية الانتهازين من أبنائه والمتنفعين من وجود المستعمرين فى بلادهم ،
 الذين أسلموا الوطن ، دون أن يردعهم ضمير ، أو يؤنبهم على الخيانة
 وازع ، فعاتبوا فى مقدراته دون حسيب أو رقيب (٥١) . وكان من
 أبناء هذا الوطن الوزراء الذين حصلوا على امتيازاتهم وألقابهم ورواتبهم
 من كد الشعب وعرقه ودموعه ودمه ، ولكنهم لم يرفعوا حقوقه ، وإنما
 فضلوا مصالح الأجنبي الفشوم على مصالحه وعاشوا فى العراق ، ولكنهم
 يستملون تعاملهم من خارج العراق ، فأتقوا كاهل الشعب وأرهقوه ،
 ونصبوا من أنفسهم قادة للشعب ، وحجبوا الوطنية عن غيرهم واحتكروها
 لأنفسهم دون حياة أو خجل ، فانساق بعض السذج معهم وظنوا أن
 قولهم الصديق وخالوا ما يدعون هو الصواب ، فلما تكتشفت نياتهم وظهر
 للعيان ما بيترا لهم من أغلال وقيود ، باسم التحالف وباسم المعاهدة ، تنبه
 الشعب واتجه نحو الصواب ، وتركهم وحدهم مع أسيادهم ، وقد رأى
 بعض الشعراء أن خير حل للقضاء على هؤلاء هو ثورة تطيح بهم وبأسيادهم ،

(٤٤) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى سنة ١٩٣١ .

(٤٥) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٦) جريدة البلاد العدد الصادر فى ٣ كانون الثانى ١٩٣٠ .

(٤٧) جريدة صدى الاستقلال العدد ٢١ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٤٨) جريدة الجهاد العدد ٢٣٩ الصادر فى ٢٤ من آب ١٩٣٠ .

(٤٩) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر فى ٢٢ من آب ١٩٣٠ وجريدة الاستقلال العدد

١٥٦ الصادر فى ١٦ آذار سنة ١٩٣١ وجريدة صدى الوطن العدد ٣ السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٥٠) جريدة الاستقلال العدد ١٥٨٩ السنة ١١ سنة ١٩٣١ .

(٥١) جريدة صدى الاستقلال العدد ١٩ السنة الأولى ١٩٣٠ قصيدة جواد السوداني .

وتعيد للشعب حقوقه المهبومة (٥٢) . والشعر العراقي في هذه الفترة كثير ولناخذ مثلاً واحداً من شعر أحمد الصافي النجفي ، وفيه يتجلى مقدار الخسارة الفادحة التي حلت بالعراق من جراء المعاهدة التي عقدها الوزراء من أبناء الشعب الذين حصلوا على كل ما حصلوا من ثروة باسم هذا الشعب فقال :

سرق الطامع أبهى مجملنا ومضى يعلو فأين الحرم
قد رقدنا أملاً في حرم ولقد نمنا ونام الحرم
سهرنا في أول الليل ولما نهض السارق يسعى نسموا
قد حصدا الشوك بما زرعوا وجنينا المر بما غرسوا
ويصور بسخرية لاذعة أولئك الذين ثاروا باسم الشعب وقادوه ،
ثم تركوه ، لما حصلوا على ما يريدون من مناصب وثروات ؛ لأنهم
يعتمدون على الأجنبي في جميع آرائهم فليس لهم من رأى إنما هم آلات
تنفذ رأى الأجنبي فقال :

باسم هذا الشعب نالوا ثروة ثم باعوا الشعب لما أفلسوا
كرماء لم يردوا طامعاً وأجابوا كل من يلتمس
وسخر من المجلس الذي يردد الآراء المستوردة بقوله :

أخذوا رأى شياطين لهم همسوا في أذنهم ما همسوا
ما أرى المجلس إلا جاكياً صوته - عن مجلس - متعكس
ضم آلات بسلك وصللت فإذا حرك يوماً تنبس
إن دعاها للدفاع شمعها رجبت ثم اعترها الحرم (٥٣)
لم تتحمل الحكومة معارضة الصحف الشديدة ، والوقوف أمام
الانتخابات وعدم تصديق المعاهدة ، وأفرعها النقد الشديد الموجه ضدها

(٥٢) جريدة بغداد العدد ٢ السنة الأولى ١٩٣١ قصيدة إبراهيم أدهم الزهاوي .

(٥٣) جريدة الجهاد العدد ٢٣٧ الصادر في ٢٢ أغسطس ١٩٣٠ ونشرت في الأمواج
ص ٥٤ وله في الأمواج قصائد في الصفحات ٥٠ و ٥٢ و ٥٣ .

لأن المعارضة كانت تستند على الجانب الواضح الصائب ، جانب الشعب والأكثرية المؤيدة له . وقد كان مؤيدو الحكومة أقلية ، ولكنهم أرادوا أن تكتم الأفواه وإسكات كل معارض لسياستها ، فعطلت جريدة (الرافدين) و (الاستقلال) ، وأُنزلت جريدة (المستقبل) ونفت (فهمى المنرس) و (رافائيل بطي) إلى « أبريل » (٥٤) فثارت ضجة في البلاد تطالب الحكومة بالحرية الفكرية وإفساح المجال للكتاب للتعبير عن أفكارهم لخدمة هذا الوطن ، واحتجت جريدة المستقبل التي قالت : « .. ما بال هذه الحكومات القائمة في ظل الوضع الناذ ، تضطهد الحرية في بلاد الرافدين ، وتلاحق الوطنيين بشتى الوسائل وأنواع القسوة ؟ » ماذا يبرر لتلكم الحكومات ولهذه الحكومة الحاضرة ملاحقتها لحرية الرأي وحرية النشر ؟ (٥٥) .

وسخر صالحي الجعفرى من هذه التصرفات فقال :

أراهم قيلوا الرأي فلم سموه لى حرا
وما فائدة الرأي إذا لم أبده جهرا
هل المرء سوى أن ير تأى النفع أو الضرا (٥٦)

يمتاز العرب بحب الحرية الفكرية حرية الكلام والتعبير ، لأن حرية التعبير عن الرأي عزيزة في نفوس الأحرار ، وقد أكد الإسلام على هذه الحرية في أحاديث الرسول وفي سير الخلفاء ، لذلك كان كبت الحريات الفكرية يبوء بالفشل دائماً ؛ ونجد المطالبة بالحرية في كثير من دواوين الشعراء ؛ ففي ديوان الرصافي عدة قصائد (٥٧) ، ولعل أشهرها تلك

(٥٤) جريدة بغداد العدد ٢٦ السنة الأولى ١٩٣٢ ؛ وقد أصبح المتمد العام لحزبه الإخاء الوطنى ياسين الهاشمى ، أما الهمة التي وجهت للكاتبين فهمى (المس بالذات الملكية وقلب نظام الحكم) راجع حاشية مقالات فهمى المنرس ص ١٢٣ .

(٥٥) جريدة المستقبل العدد الثامن السنة الأولى ١٩٣٠ .

(٥٦) جريدة النجف العدد ٧٥ السنة الثانية ١٩٣٧ .

(٥٧) ديوان الرصافي ص ٥٠ .

التي نظمها سنة ١٩٢٢ م والتي أخذ هذا العصر يرددها (٥٨) ، ورددتها العراق في كل دور من أدوار كبت الحريات والتي غدت أغرودة بضم العراقيين ومضرب الأمثال دائماً :

يا قوم لا تتكلموا إن الكلام محرم
ناموا ولا تستيقظوا ما فاز إلا النوم
وتأخروا عن كل ما يقضى بأن تتقدموا
ودعوا التفهم جانباً فالخير ألا تفهموا(٥٩)

ولم تنطرق إلى تأييد الحكومة التي عقدت المعاهدة غير قصائد محدودة (٦٠) ، فكانت جريدة العراق تعوض عن ذلك بمقالاتها ، فتهاجم المعارضة ، وتنشر بعض الرسائل المفتوحة أو البرقيات مثل (أخاديعهم لا تتطلى على الشعب) أو (ما هذه المهازل) وتحمل تواقيع متنوعة مثل (فريق من الشيبة المعتقدة بتلاعبيهم) أو (فريق من شبيبة الحلة) (٦١) ، وتسلمهم بافتتاحيات عنيفة مثل (يفترون) و (هل تستمر المعارضة في طغيانها الأثيم) وإذا اعتقلت الحكومة المعارضين تقول (الحكومة تقضى على الدسائس والمكائد) و (ماذا يريد المفتونون) و (يغالطون ويموهون) (٦٢) وكانت جرائد المعارضة ترد عليهم وتنشر أخبار الاجتماعات وتنشر الخطب ، وتعنون مقالاتها بعناوين مثل (الحرس لهذه الأفواه) و (يكيلون للشعب) (٦٣) ، كما كانت تنشر أخبار الإضرابات التي يقوم بها الشعب وتعلق عليها فترد عليها العراق (٦٤) ومن المقالات التي نشرتها ، مقالة

(٥٨) أدب الرصافي ص ٧٧ .

(٥٩) ديوان الرصافي ص ٤٤١ .

(٦٠) مثل عبد الرحمن البنا و عبد المجيد الملا . والجواهرى .

(٦١) جريدة العراق الأعداد ٣٣٣١ و ٣٣٣٢ و ٣٣٣٣ السنة الحادية عشرة ١٩٣١ .

(٦٢) جريدة العراق ٣٣٧٣ و ٣٣٧٥ و ٣٣٧٦ - ١١ - ١٩٣١ .

(٦٣) الإخاء الوطني أعداد السنة الأولى وغيرها من جرائد المعارضة الصادرة ١٩٣٠

١٩٣١ كالاستقلال ، والبيان ، والأخبار ، والبلاد .

(٦٤) دراسة هذه الفترة تستحق عناية من أحد الباحثين لوجود أشياء طريفة وجديدة .

تهاجم فيها المعارضة ، وتتهمها بأنها تعارض للحصول على كراسي الحكم ، وقالت (إن مناحة المعارضين يوم الجمعة الماضي لم تختلف بشيء عن مناحاتهم المعروفة فقد بكوا كثيراً على القضية المضاعة ، والوطن المحروب ، والحرية المضطهدة ، والصحافة المصفلة ، والآمال الفاشلة ، وحاولوا استبكاء الجمهور على غير جلوى ، وكانوا في الحقيقة ينوحون على كراسي لهقت أعينهم بقوائمها وعلى مناصب ضخمة ، ومراتب جزيلة (١٥)) وعندما ينشر الجواهرى قصيدة يؤيد بها المعارضة تثور الجريدة عليه ، وتعجب كيف ينظم قصيدة في تأييد المعارضة ، وهو الذى أيد الحكومة بالأمس وضحى في سبيلها بوظيفة يتهافت عليها المعارضون ، ثم تنشر له قصيدة هاجم فيها المعارضة ، وأيد فيها الحكومة من قبل قال فيها ساخراً منهم :

فقد علم الأقوام أن ليس عندكم سوى خطف كرمى ومنضدة قصد
وهيات هيات الكراسى ولمسها فمن دونها سد ومن دونكم سد (١٦)

(١٥) جريدة العراق ٣٤٧٧-١٢-١٩٣١ للمقال الاقتصاحى .

(١٦) جريدة للعراق المبد ٣٤٨٧-٢-١٩٣١ ولاحظ جريدة الزمان العدد ١-٢-١٩٢٧

ويلاحظ جريدة الإخاء الوطنى العدد ١-٢٤-١٩٣١ وجريدة العراق ٣٤١٩-١٢-١٩٣١ .

عبد المحسن السعلون

لاحظنا الصدام العنيف الذي حدث بين القوى الوطنية والقوى الأجنبية ، فلم يكن العراق هادئاً مستقراً ، وكان الرأي العام مضطرباً ينذر بالعاصفة ، فقد كانت البلبلة متفشية بين الصفوف والحياة الحزبية مضطربة متفككة . وكان العراق يريد أن يأخذ لنفسه ما استطاع من الحقوق ، وبريطانيا تحاول جاهدة استبقاء سيطرتها بطرق شتى ، وفي مثل هذا الجو المتوتر التائر القلق طلب إلى عبد المحسن أن يؤلف الوزارة لعقد المعاهدة ، فاشترط أن يحصل على وعد صريح بإلغاء المعاهدة والاتفاقيات السابقة ، وأن يدخل العراق عصبة الأمم بدون قيد أو شرط ، وأن تكون المعاهدة الجليدية على أساس الاستقلال التام . وكانت بريطانيا تبحث عن مخرج تخلص به من التوتر السيامي فأظهرت استعدادها لقبول شروط السعلون ، فألفها معتقداً بأن بريطانيا سوف تحقق للعراقيين أمنيتهم ، حتى قال في حفلة لإجراء مراسم تشكيل الوزارة : « لقد أمعنت أنا وزملائي النظر ملياً في جواب الحكومة البريطانية هذا ، فأقنعنا بأنه محقق لشطر كبير من رغائب الأمة العراقية التي لا ترضى عن الاستقلال التام بديلاً » (١) . وأعتقد أنه سوف يقدم لبلاده ما يريد له من الاستقلال التام والكرامة . ويبدو أن رجال السياسة قد أدخلوا في روعه أنه المنقذ الوحيد للعراق من البلبلة والتوتر السيامي ، وكأني بالسعلون قد وعد بتحقيق هذه الأمانى

(١) ذكرى السعلون - تأليف علي الشرق - بغداد ١٩٢٩ ص ٥٦ . لاحظ خطاب السعلون جميعه . وقد أكد هذا المعنى في الخطاب الذي ألقاه في حزب التقدم وكرر الفقرة نفسها . ذكرى السعلون ص ٦١ وفي الكتاب ترجمة وافية لحياة السعلون .

لأتمته ، وإذا فشل فسوف يؤازره الشعب ويأخذ استقلاله بالقوة وبالتضحية والقداء . ولعل مظاهر الحماس التي رآها على الشعب أوجبت في قلبه هذه الرغبة تستند الوعود التي بذلت له بصورة سرية (٢) فاندفع وصرح بوجود أخذ الاستقلال بالقوة . ولولا رغبته وما جال وراء الستار لما اندفع هذا الاندفاع ، حتى ظن أن الاستقلال أصبح ملك يمينه ، ولكنه اصطدم على صخرة رغبات بريطانيا ، وصعب على المرء أن يرى أحلامه العراض تتحطم ، ويهوى مابناه بيده فتنتابه المذلة والألم . وقد حدث ذلك السعدون ، فلم يقدر على إقناع رجال السياسة البريطانيين الذين تقلبوا في السياسة وعاشوا فيها ، وعرفوا خباياها ، ولم يقف الشعب العراقي وراءه ثائراً مقاتلاً (٣) لأن هناك قوى أخرى غير الشعب تقف ضده ، هناك أذناب المستعمر الذين يملثون بلاده ، وهناك الملك الذي لا يريد أن يفرط بالعرش ، وهناك عقبات أخرى في الشعب العراقي لم يقدرها السعدون حتى قدرها ، وكانت خيبة الأمل مريرة في نفس السعدون (٤) نجحت في الوصية التي تركها عنلما انتحر قال فيها :

« إني شئت هذه الحياة التي لم أجد فيها لذة وذوقاً وشرفاً . الأمة تنتظر الخليفة والإنكليز لا يوافقون ، ليس لي ظهر . العراقيون طلاب الاستقلال ضعفاء عاجزون ويعيدون عن الاستقلال » (٥) فوجد السعدون واضحاً كل الوضوح من أنه ورط في تأليف الوزارة ، وترك وحده في المعركة ، ولم يوفق بين رغبات الشعب العراقي الضعيف العاجز

(٢) قال علي الشرق (لكن المقامات المالية حركت نخوته وإخلاصه ، واستتبخت حركه الكرم ، وناشدته بالروية والوفاء لما) ص ٥٥ .

(٣) سأله الرضا عن مدى استجابة أعضاء حزب التقدم لأرائه السياسية فقال : الاعتقاد بضمين الأمل وطيد بأن الحزب يكوى بجمرة الإخلاص التي أحمله ، وغالباً أجد روي تنوزع عليه ويتبلغ بقوة الحق إلى مشاركتي .

(٤) قال السعدون في معرض حديثه مع زميل له « أنا مثل معكم مثل موسى مع أصحابه إذ قالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، ماذا أكون وحدي وإنكم ما فيكم إلياسل . . . » (٥) جريدة العراق الأعداد ٢٩٢٢، ٢٩٢٣ ، من السنة الماشرة ١٩٢٩ . كتب السعدون وصيته باللغة التركية وترجمت بعد ذلك .

البعيد عن الاستقلال والحرية وبين رغبات الإنكليز الذين لا يوافقون على منح الاستقلال .

أعد السعلون كل شيء وفكر في كل الاحتمالات ، ففض المجلس النيابي وجاء بنواب أكثريتهم معه ، فاستند على قوتهم وصدق له حتى المعارضون عندما عاهد الله والوطن على الجهاد والتضحية ، وقد اعتمد الملك عليه للخروج من المأزق بل أثار نخوته ليدير دفة البلاد ، وقد كان السير « كلبرت كلايتون » المندوب السامي يؤيد المطالبين العراقية وقد رأى السعلون في جواب بريطانيا تحقيقاً لشر من رغائب الأمة العراقية وقال : « إن الاستقلال أصبح وشيكاً وإن المعاهدة تنتهي مع الاتفاقات برمتها وستعقد معاهدة جديدة أساسها الاستقلال التام (٦) » لكنه باء بالفشل ، ولم يحصل على شيء . وقد كان السعلون أياً كريم النفس فاسودت الحياة بعينه بعد أن ضاع منه ما يريد أن يحققه لشعبه ، وآتهم بالحيانة وبأنه خادم الإنكليز وعبدهم (٧) ، مع أن الرجل يحمل مالا يطاق وزج بنفسه في مأزق أراد به خلة الأمة .

لم يمت السعلون دون أن يترك أثراً عميقاً وراءه هو وصيته التي هزت الشعب العراقي ، لأنها أطلعت على ضعف الشعب ونخاذله وقت الشدائد ، وحقيقة الصراع الذي كان ناشئاً بين السعلون وبين الإنكليز .

والشعب العراقي شعب مستعجل لا ينظر إلى الماضي ولا يتعظ . ينسى بسرعة ، فهو يلقي كلمات الحمد والثناء على من تملق عواطفه وينسى إساءته سريعاً ، وهو يغضب سريعاً ، وينسى جميع ما يقدم له ، ويتمسك بآخر غلطة للإنسان ويريد أن يتدخل في كل الأمور صغيرها وكبيرها . وقد كان السعلون كئيباً لأسراره فاتهم بالحيانة ، وكان رزياً فباعده بينه وبين أبناء الشعب ، فاستيقظ الشعب على صوت انتحاره وهاجت

(٦) لاحظ خطاب السعلون في جلسة حزب التقدم الأول في اليوم الأول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٩ ، ذكرى السعلون ص ٥٨ وما بعدها .

ر (٧) جريدة العراق لاحظ الأعداد التي ذكرت الوصية .

عواطفه الطيبة في ضميره ، وخاصة سبب الانتحار كان علم موافقة الإنكليز على إعطاء العراق استقلاله التام . وقد نسي الشعراء جميع حياة السعلون واتخذوا الفرصة نبراساً يهتلون بهديه في شعرهم ، وأصبح السعلون رمزاً قومياً كريماً ونموذجاً صادقاً في الوطنية والتضحية ، فانتشرت صورته في كل مكان ورسمت على علب « السيكابر » وورق لف « السيكابر » والأواني الفخارية ، وعلى كثير مما يستعمله الشعب ، وعلفت على بضائع التجار لزوج ، وقد أقيم له تمثال في خير بقاع بغداد وأضحى مكان (٨) ، وسمى باسمه شارع كبير وحديقة . وأول الشعراء الذين أصابتهم الحسرة ، وأمضت لهم اللوعة كان معروف الرصافي ؛ فقد كان عبد المحسن صديقاً له يواليه بحفظه ورعايته وجاهه وماله (٩) ، وكان الرصافي بمقت الإنكليز الذين استعمروا بلاده ، فاستحال هذا المقت إلى كراهية عميقة ، فقد أجهزوا على صديق عزيز عليه ، وسند قوى يركن إليه ، فأهاجت ميتة السعلون كوامن الألم في الرصافي ، فصنبا سيلاً من الحمم والقذائف على الإنكليز (١٠) ، فوصف عظم التضحية التي قام بها السعلون ، ومقدار خسارة الوطن بهذه التضحية ، ثم هجا الإنكليز الذين سببوا هذه الكارثة . وأشهر قصائده وأطولها الرائية ، وقد بوبها الشاعر أبوياً ، ووضع لها العناوين المتنوعة فوصف أولاً منظر الزافدين يوم وفاة السعلون وهما يجريان دماً ، بعد أن أمضيهما الحزن واللوعة ، ووصف الحزن الذي انتاب الشعر بهذه الكارثة ، وذكر الميزات التي امتاز بها السعلون والسجيا الكريمة والمزايا العالية التي فضلتها على سواه ، وخير هذه المزايا وأسمائها التضحية الكبرى بنفسه في سبيل الوطن ، ثم خاطب أهل لندن وما جرت سياساتهم من آلام وأحزان على العراق ، وفي القسم الأخير قارن بين سعد

(٨) غير محله وحرك قليلاً حيث وضع في مكانه الحال بمنخل الشارع المسمى باسمه عندما افتتح الجسر الجديد في الباب الشرق .

(٩) بشأن صداقة الرصافي والسعلون لاحظ (الرصافي) تأليف مصطف على مصر ١٩٤٨ ص ١٩٤ .

(١٠) ديوان الرصافي ص ٣١٠ و ٣١٦ ولاحظ ذكرى السعلون ص ١٢٧ .

زغلول وعبد المحسن السعلون ، وما قلم كل زعيم لبلاده من تضحيات
وخدمات وفضل السعلون على سعد زغلول ، لأنه كان أكثر تضحية
إذ فدى الشعب العراقي بنفسه والجود بالنفس الأخير أقصى غاية الجود ،
ويدخل ضمن موضوعنا القسم السيامي الرابع الذي خاطب فيه الإنكليز
بقوله :

يا أهل لندن ما أرضت سياستكم أهل العراقيين لابلوا ولا حضرا
إن انتدابكم في قلب موطننا جرح ندأويه لكن لم يزل غبرا (١١)

ويشرح أعمالهم التي ارتكبوها في العراق من تقييد الحرية الرأي ،
ووقوف في طريق تقدم العراق ، ورقبه ، وتفريق لصفوفه ، ليتسنى
لهم الحكم ، ثم بثهم الكراهية والبغضاء بين أبنائه بدل الحب والوئام
والعطف ، لأن الاستعمار لا يقدر أن يعيش إلا في القوضى والاضطراب
والبلبلة النفسية والربح والفزع ، ثم يذكرهم بمعاهدتهم مع العراق فيقول :

في كل يوم لنا معكم معاهدة نزداد منها على أوطاننا خطرا
جفت بها سرحة استقلالنا عطشا حتى إذا ما مسنا عودها انكسرا
ويصف قسوة قلوب الإنكليز في سبيل مصالحهم ، ويلهم الوعود
السخية دون أن يفوا بها ، فيقول :

تقسو قلوبكم لما تفاوضكم كأننا نحن منكم نقر الحجر
أما مواعيدكم فهي التي انكشفت عن مين من مان أو عن غلوم غلرا

ويقارن بين وطنه الضعيف الواهي القوى وبين قوة الإنكليز الجبارة
التي تسيطر على العراق ، ثم يتهددهم تهديد الضعيف الوهن ؛ فيصف الشعب
باللبابة التي تزعج الأسد ، وكان الأجدر بالرصافي أن يتهدد الإنكليز بأن
المستقبل للشعب الذي سوف يقوى ويشند ساعده ويقضى على قوة الإنكليز ،
ولا شك بأن الرصافي كان قريبا جدا من الواقع الذي بعد عنا اليوم حينما قال :

(١١) المرح الذي اتسل على قصاد ثم انفجر .

لا تفخروا إن كسرتم غرب شوكتنا لا فخر للصقر في أن يقتل النعرا (١٢)
لا تستهينوا بنا من ضعف قوتنا فكم ذبابة غاب أزعجت نعرا
وقد أبدى الرصافي تساعاً وتساهلاً عندما عرض على الإنكليز صداقة
الشعب ، بعد أن يثس من قوة الشعب وعلم قلوبته على مقارعة قوة الخصم
الجبارة والكفاح في سبيل الأهداف السامية ، ولعله كان يأمل أن يحصل
باللين وبالتساهل ما لم يحصل عليه بالكفاح والقتال فقال :
هذى البلاد اغرسوا فيها مودتكم ثم اقطعوا من جناها ودنا ثمرا
نكن لكم حلف صديق في سياستكم نمشي إلى الموت من جرائها زمرا
لسنا نقوم إذا معاهلوا نكسوا ولو جرى الدم حتى أشبه النعرا (١٣)
وقد رثاه كثير من شعراء هذه الفترة مثل محمد هادي البغدر (١٤) ،
وأكرم أحمد (١٥) ، وعبد الرحمن البناء (١٦) ، ومحمد بهجة الأثري (١٧)
ومحمد حبيب العبيدي (١٨) ، وكال نصرة (١٩) ، وعبد الكريم العلاف (٢٠)
وناجي القشطيني (٢١) ، وخضر القزويني (٢٢) ، وعمود الملاح (٢٣) ،
ومحمد مهدي الجواهري (٢٤) ، ومحمد علي اليحوي (٢٥) ، وأحمد حتى

-
- (١٢) النثر : يضم الميم وتشديده الفرخ الصغير أو البليل .
(١٣) ديوان الرصافي ص ٣١٤ وقد نشرت القصيدة في جريدة البلاد في العدد الصادر في
٢٧ كانون الأول سنة ١٩٢٩ .
(١٤) جريدة المراق العدد ٢٩٦٩ السنة المائثة ١٩٣٠ .
(١٥) جريدة المراق العدد ٢٩٢٥ صدر في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٢٩ .
(١٦) جريدة النور العدد ١٣٩ صدر في ١٧ تشرين الثاني ١٩٢٩ .
(١٧) جريدة البلاد العدد ٣٠ في كانون الأول ١٩٢٩ .
(١٨) جريدة البلاد العدد ١٥ كانون الأول ١٩٢٩ .
(١٩) جريدة البلاد العدد الصادر في ٢٩ تشرين الأول ١٩٢٩ .
(٢٠) جريدة المراق العدد ٢٩٥٧ الصادر في ٢٧ كانون الأول ١٩٢٩ .
(٢١) مخطوطة شعره في مكتبي الخاصة .
(٢٢) شعراء القرى ج ٢ ص ٣٧٢ .
(٢٣) ذكرى السعدون ص ١٢٢ .
(٢٤) ذكرى السعدون ص ١١٥ ، ١١٩ .
(٢٥) ذكرى السعدون ص ١٢٩ .

الحلى (٢٦) وغيرهم .

وقد بدأ موقف الزهاوى قائماً حائراً ، فقد ساهم الشعراء في تأبين السعلون . أبقى دون أن ينظم شيئاً وأشد ما يحشاه أن يعطن في ولائه للوطن ، ولا يريد أن يعيد ما قيل عنه وما يقال ، أم ينظم ويعطن الإنكليز ولا تزال القوى بيدهم والحول ملك عيניהم . أراد أن يشارك الشعراء كيلاً يقال فضبت قريحة الزهاوى ، وهو الذى يجب أن يذكر اسمه ويمجد ويقرضه النقاد (٢٧) . نظم قصيدة واستبعد مهاجمة الإنكليز ، وكان حذراً فأثر أن يسلك أسلم طريق فنظم الوصية وحاول أن يرسم صورة صادقة مكبرة لها ، وبذلك يتخلص من مهاجمة الإنكليز صراحة ويرضى الوطنيين ، قال :

ماذا تفيد سلامتى من شرها إذ كان منه موطنى لايسلم
الشعب ذو حرص على استقلاله لايرضى أحداً سواه يحكم
الشعب يطلب أن أقوم بحقه والإنكليز على التفاضى يرغم
للشعب أبرم ما أراه صالحاً والإنكليز يحل ما أنا أبرم
للإنكليز فى الانتداب سياسة أما السياسة فهى ليست ترحم (٢٨)

وكان على الشرق من أقرب الناس إليه ، وأشدهم حسرة على موته ، حتى ألف كتاباً عنه وعن آل سعلون ، فإنه لم ينهم الإنكليز فى قتله ، مع أن السعلون قال صراحة فى وصيته إنهم السبب فى انتحاره ، بل لم أجد له قصيدة فى تأبين السعلون اللهم إلا قصيدة واحدة نظمها بمناسبة نصب تمثاله (٢٩) ، كانت موحلة الموضوع لم تخرج عن السعلون نفسه ،

(٢٦) ذكرى السعلون ص ١٣٥ وأخبرنى الشاعر بأنه نظم قصيدة أخرى .

(٢٧) حشنى أحد معاصرى الزهاوى ومن المتصلين فى جريدة العراق وأظنه الأستاذ وقائيل جعلى أن الزهاوى كان يأتى إلى الجريدة ويكتب أمام اسمه الأستاذ الكبير الفيلسوف إلى غير ذلك من الألقاب والتموت .

(٢٨) البلاد العدد الصادر فى ٢٧ كانون الأول ١٩٢٩ وقد نشر فى ديوانه (الأوشال) المطبوع فى بغداد ١٩٣٤ ص ٤٤ وله قصيدة أخرى فى ص ٤٥ .

(٢٩) ديوان على الشرق ص ٢٠٧ .

وإن حمدنا له هذه الوحدة في المعنى نراه لم يستغل القرصة ليؤلب الشعب على المستعمر الجاثم على صدر العراق .

أما الجواهرى فقد نظم قصيدتين لام فيهما الشعب وقرعه ، كما لام الساسة في الأولى ، وفي القصيدة الثانية صب جام سخطه على انثواب الذين كانوا خشباً مسندة ، وكان رثاء عبد المحسن رثاء عاماً لم يأت بجديد فيه ، ووصف وجوم الشعب حول قبره وسماه (ضريح أمة يعرب) الذى سيركع عليه التاريخ والجليل (والنخوة والعروبة والشهامة والصرافة) وأن (تكله ثكل العروبة) ، وخص الملك فيصل وتوجهه بأبيات ومن ثم توجه إلى المعارضين بقوله :

يتساءلون بأى علم نخنقى من شعبنا وبأى وجه تطلـع
واسترجعوا أحكامهم مرفوضة ناس بحكمهم عليك تسرعوا
ثم طالبهم بالانتحار إن كانوا مخلصين لبلادهم ليطمئن الشعب إليهم :

قالوا لأشباه الرجال تصنعاً إلا تكونوا مثله فتقنعوا
لا تبرمونا بالتشديق ، شعبكم بسوى انتحاركم له لايقنع
سلفاً يقرم بالدم استقلاله فإذا صلحتم بادعاء فادفعوا

وسخر من مجلس النواب وطالب أن تكون محاكمة الخصم بريئة عادلة ليفسح له المجال في الدفاع عن نفسه ، ولا يضغط على حريته فقال :

لتكن محاكمة الخصوم بريئة في قاعكم وليحسن استجواب
تأبى المروعة أن يتدنس خائن أو أن يطول على البريء حساب

ويضعف الجواهرى ويلين حينما يريد من الشعب العراق أن يتروى في قصده ، ولا يتهور مستعجلاً فيقول :

أوحى الزعيم إلى الجزيرة كلها أن ليس يدرك بالكلام طيـلاب
يا هذه الأمم الضعاف تروياً لاتنهضى صعداً وأنت زغاب
لا تقطعى سبباً ولا تنهوى نزقاً إذا لم تكمل الأسباب
لاتدن من ظفر القوى ونابه إن لم يكن ظفر لديك وناب

لأن محاربة الحصون في غير أوقاتها معناه الخسارة فيجب أن يستعد الشعب فقال :

وإذا عتبت على القوى فلا يكن إلا بأطراف الحراب عتاب (٢٠)

وقد اغتم محمود الملاح انتحار السعلون ، فجال جولة سريعة ذكر فيها فوادم البلاد العربية المتتالية في فلسطين وسوريا ومصر والمغرب ، إذ ثن العروبة من هذه المصائب المتوالية ، وكأن الشرق براكين هذه المصائب ثم ينظر نظرة الأمل الباسم فيقول :

سيتبه النوم من غفلاتهم قياماً فلا يبقى على الأرض هاجع
ثم يتطرق إلى نكبة العراق وما أصابه ، ويهاجم الذين عارضوا السعلون في سياسته واضطروه إلى الانتحار ، يقول :

أراد أناس أن يماروه في العلاء وكيف يجارى الجون صفراء فاقع (٢١)
ضحية قوم ما دروا كنه فضله ولا عرفوا سر الذى هو شائع
ورب كريم ضاع بن معاشر كعقد قيس فهو في الفحم ضائع
ويتحدى أولئك الذين انتحلوا الوطنية بالانتحار ، والملاح مسلم متدين يعرف جيداً أن الانتحار إثم لا يرضاه الشرع لذلك استرجع فقال :

فمن يتحل من بعد ذا وطنية ولا يتحر فهو الكلوب المخادع
وليس مرامى أن تضحى خلائق ولكن مرامى أن تضحى المنافع
قياس صحيح لا ينافيه منطق وإن خالفتني في القياس المنازع
ويطلب من الشعب العربي أن يتحمل كل جفوة حتى يتم له الأمر
ويصبح قوياً :

فيأشعب قحطان احتمل كل جفوة إلى أن تماشى جانبيك المدافع
وحق ترى في ساحتيك فيألتى يناهون لا استقلال إلا المعامع

(٢٠) ذكرى السعلون ص ١١٩.

(٢١) الجون - الفرس الأدم .

ويريد الملاح أن يسمع « رمزي مكثولند » رد فعل المصاب الذي حل بالعراق فيقول :

دوت طلقه ليلاً بأفاق دجلة قيا (مكثولند) هل لما أنت سامع
تعملل منها راكد وتحركت شجون وهاجت بالنيام المضاجع
وطلقة نار في غمارم شاق سيلي صداها شامع ثم شامع
رأيت رخيصاً كل ما العرب قلموا وهذا دم غالٍ فهل أنت قانع
وفي القصيدة الثفانة لمربعة إلى ما حل بالعراق من انتهازية ، فأثري
فيها الانتهازى والأجنبي ، أما أبناء البلاد الذين يتحفون عن الإثراء العاجل
فقد أصابهم الطوى فقال :

تأثل ملكاً فوقها كل ناكث وصار له فيها قرى ومزارع
وأثري بأموال البلاد أجانب ومات مديناً رهن المدافع (٢٢)
ولم يكن انتحار السلون عائقاً عن إنجاز ما صممت عليه الحكومة
البريطانية ووافق عليه الساسة في العراق ، إذ سارت المعاهدة في طريقها ،
وعقدت في ١٦ من تشرين الأول سنة ١٩٣٠ م ، وبعدها أدخل العراق
في عصبة الأمم عضواً مستقلاً .

وقد أقامت الحكومة العراقية مهرجانات رسمية ، خرجت فيها
المدارس تنشد أن العراق أصبح مستقلاً ، وأذكر ونحن طلاب في المدرسة
الابتدائية أن قد خرجنا وطفنا في المدينة نشد نشيداً منه :

بمثل اليوم يا عرب دعاة الجبد قد وثبوا
خيولاً فوقها وثبوا فنالوا منه ما رغبوا
غير أن النبأ لم يهز شعور الشعراء في العراق إذ لم أعثر على شاعر نظم
في هذه المناسبة غير حسين بستانة قال فيها :

بغداد وافتك البشائر فابسمي وترنحي مسرورة وترنمي

ولتلبس للمهرجان مطارقاً ولتخلع ثوب الحداد الأسحم (٢٣) وبعد دخول العراق عصبة الأمم ساد العراق هلع سياسي نسبي ، فقد حل محل النظام القديم نظام جديد ، حاول السيطرة على العراق سيطرة تامة بكل الوسائل ، لكي يخلق له وحدة إقليمية جديدة ، وحدثت بعض الثورات الداخلية والرجعات مثل ثورات العشائر في الشمال والجنوب و ثورة الآثوريين ، غير أن الحكومات كانت تمنع تسرب الأخبار عنها إلا التزير اليسير ، وكانت تقابلها بالشدة والقسوة ؛ لذلك خلت هذه الفترة من شعر منشور يمثل هذه الثورات إلا التزير القليل الذي لا يمكننا اعتباره ظاهرة جديدة بالدرس .

غير أن الأحداث العربية كان لها صدى عميق الأثر في اتجاهات الشعر العراقي جديدة بالدراسة فهي تمثل جانب الإحساس القومي بهذه الأقطار وقد كانت الاستجابة لمشكلات العرب أعمق من الاستجابة لغيرها من الأحداث فنحن نجد آثاراً ظاهرة واضحة لفلسطين وتونس والجزائر ومصر وسوريا والأردن وعدن أكثر من غيرها . ومع ذلك فلم يخل الشعر العراقي من روح إنسانية عالية ، فقد كانت حوادث الاستقلال والثورات على المستعمرين تجد لها صدى ، فقد استجاب للمشكلات الإسلامية والمشكلات الشرقية والمشكلات العالمية كاليونان والهند والصين .

والاستقرار النسبي العام كان سبباً واضحاً في اتجاه بعض الشعراء إلى الوجهة الاجتماعية . وبذلك نجد الشعر التزم جانباً في صميم حياته الداخلية الأحداث الاجتماعية .

أثر الحياة الاجتماعية في الشعر

١ - مشكلات الحياة الاجتماعية :

٢ - مشكلة المرأة :

٣ - الفلاح والإقطاع :

٤ - مشكلة الفقر :

مشكلات الحياة الاجتماعية

لاحظنا من الفصول المتقدمة أثر الحياة السياسية في الشعر ، وكيف استحوذت مشكلاتها على جزء كبير من تفكير الناس ، وشغلتهم عن معالجة المشكلات الاجتماعية . ومع هذا فقد كان هناك من يحس بضرورة إصلاح الحياة الاجتماعية ، وينعى على الناس هذا الاستغراق في السياسة والانصراف عن المجتمع ، فقد كتب الشيخ علي الشرقى ، يصف هذه الحالة بمقال منه « .. فلا نرى في الأمة إلا سياسياً وسياسة حتى كأن الجمهور العراقي كله طائفة سياسية » ، فالسياسة في الجوامع والمخادع والمقاهي والأسواق والطرق والمدارس وغرف المحاماة والثكنات العسكرية ، فالبقال والفلاح ورجال العلم ورجال الدين والمحامون والضباط ورجال المال والحوذية وسواق السيارات كلهم سياسيون ، وكل العراق موجات سياسية ، وقد عمّ الطوفان السياسي حتى حانوت الحياز .. (١) » لأن مشكلات الحياة السياسية كانت أشد بروزاً للعيان ، وأكثر تماساً بحياة الشعب بعد الاحتلال الإنكليزي فقد أثرت تأثيراً كبيراً في حياته اليومية في رزقه وعواطفه ومشاعره ، وهدد الطمأنينة في نفسه فقد شعر أن كرامته قد هدرت ، وأمانه العزيزة قد جرح ، فهو عرضة للسجن والنفي والتشريد والتعذيب ، دون أن يعرف سبباً لما يترد به . فاحتل بعيد عنه في الدين واللغة والتاريخ والتقاليد ، وكان هذا المحتل قوياً ضارباً تؤثر قواه المادية والمعنوية في حياته ، وتسيطر عليها ، فيجب أن يكرم جزءاً كبيراً من نضاله ليعيد المهلوع إلى قلبه ، والأمان والحرية والدعة لوطنه ، ويتخلص من الجنود الذين يسرحون على أرضه ، والطائرات

(١) جريدة النهضة العراقية العدد ٣٠ السنة الأولى ١٩٢٧ .

التي تتر في سمائه ، ومن موظفيه الذين يتحكمون في مصيره وحياته ، فأنجاه الشعب نحو السياسة كان ضرورة حتمية للتخلص من المستعمر ، الذي يقف حائلاً دون أي إصلاح جنري ، فلا غرو إن عزی كل تأخر المستعمر . ومشكلات العراق الاجتماعية لا تختلف عن مشكلات البلدان المتأخرة الأخرى فهي الفقر ، والمرضى ، والجهل ، ومشكلة الإقطاع والفلاح ، والمرأة ، ولا تزال هذه المشكلات قائمة حتى الآن ، برغم ما بذل في إصلاح بعضها ، ولكنها لم تصل إلى ما يهدف إليه العالم الاجتماعي بعد ، فقد كان لتوالي الغزوات على العراق أثر كبير عميق الأثر في تأخر العراق الاجتماعي . فالمستعمر تركيا كان أم فارسياً أم إنكليزياً لم يكن يهيم غير استمرار حكمه ، فلم يكن بمشكلات البلد الداخلية ، ففي القرن التاسع عشر لم يكن في العراق غير مستشفى واحد ، ومن الطريف أن تكون مؤهلات مدير المستشفى البراعة في لعب الشطرنج ، فهو لاعب شطرنج ماهر لم يكن الوالي بقادر على الاستغناء عنه ، فأعطاه هذا العمل ليكون إلى جانبه . وقد بقيت حالة العراق متأخرة حتى بعد الحرب العظمى الأولى فقد بدأ بإنشاء أول مستشفى عام ١٩٢٨م (٢) وبقيت أكثرية الشعب فترة طويلة تحت سيطرة المشعوذين والدجالين من محترفي الطب ، وغالباً ما تؤدي معالجتهم إلى عی العیون ، وجلد الأبدان وموت المريض يضاف إلى ذلك كله ما يصفه بعض الشيوخ من ذوی الطرق الذين يبلوون المريض بالأدعية والطلاسم والبصق في الماء (٣) . ولما انتشر الوعي الطبي أخذت المستشفيات تنتشر في ربوع العراق حتى بلغت ٨٩ مستشفى (٤) ، وقد بقيت حالة التعليم متأخرة في العهد التركي ، ولم تؤثر دعوات الإصلاح ، لأنها كانت محلولة الأثر ويساير إصلاح الفساد الإداري والخلق ، وتحت ستار الدين الإسلامي خوفاً من أذى الوالي الذي يعد النصيحة انتقاصاً

(٢) مجلة عالم الفن العدد ٧ السنة الأولى مقال الدكتور معمر خالد الشاذلي .

(٣) لا تزال هذه المداواة لدى كثير من أبناء الشعب في القرى والأرياف ، وهناك من يثق بالطب القديم حتى في المدن وبين المثقفين . وقد قتل أحد الشيوخ في لواء ديالى قبل سنوات أحد المرضى بالأصابع لاستخراج الروح الشريرة من يده فأدى ذلك إلى سجنه .

(٤) نشرة الإحصاء الصحي والحیاتی سنة ١٩٥٢ بغداد ١٩٥٥ ص ٣٦ .

لكرامته ، حتى جاء دستور ١٩٠٨ ، فارتفعت أصوات الناس عالية تطالب بالإصلاح ، وتجرات بعض الجرائد على السخرية من المرتشين والمستغلين^(٥) وأخذت بعض الجرائد تنشر بعض الرسائل المفتوحة تشكو ماحل بالبلاد من تأخر شمل جميع نواحيها^(٦) . وقد كان لتنفق جرائد سورية ومصر وتركيا ، وما تحمل في طياتها من أنباء التقلع والازدهار أثر في يقظة الفكر وازدهاره .

وعندما فتح الإنكليز بغداد نشطت سياسة التعليم بتأسيس دائرة المعارف ، فقد وصل عدد المدارس في نيسان عام ١٩٢٠ إلى تسعين مدرسة^(٧) . وازداد نشاط فتح المدارس عندما تولى العراقيون الإشراف على سياسة المعارف حتى بلغ عدد المدارس التابعة لوزارة المعارف عام (١٩٥٣ - ١٩٥٤) مايلي :
المدارس الابتدائية على اختلاف أنواعها ١٤٥١ مدرسة
المدارس الثانوية والمهنية ١٤٣ مدرسة^(٨)

. وإذا قورن هذا العدد بمساحة العراق ، وبعدد نفوسه ، فهو عدد ضئيل . ثم إن أكثرية هذه المدارس مركزة في المدن ، أما القرى والأرياف فهي محرومة من التعليم ، ففي العراق ١٦٠٨ مدرسة تابعة لوزارة المعارف من مختلف درجاتها ، ولا يوجد في القرى التي يحوي أكثرية السكان غير ٥٧٤ مدرسة^(٩) ، ولم ترتفع نسبة التعليم في العراق عن ٨٪ (سنة ١٩٤٩) ، وكانت أعلى نسبة للتعليم في لواء بغداد قد وصلت إلى ١٨٪ وهو اللواء الوحيد الذي حصل على هذه النسبة المثوية . وقد تلذت في بعض الألوية

(٥) يلاحظ الفصل الأول .

(٦) جريدة الرقيب العدد ١١٤ السنة الأولى .

Henry A. Foster, The Making of Modern Iraq (London (v) 1936) p. p. 15,20.

ولكن تقرير وزارة المعارف يتص على وجود ٨٨ مدرسة .

(٨) التقرير السنوي ص ٧ .

(٩) المصدر السابق .

إلى ٣٪ . والإحصاء التالي يعطينا فكرة عامة عن التعليم في العراق عام ١٩٥٣ -
: ١٩٥٤

نوع الدراسة	عدد المدارس				عدد الطلاب
	الذكور	الإناث	المختلط	المجموع	
الدراسة الابتدائية الرسمية	١٠٩٤	٢٥٦	١٠١	١٤٥١	٢٥٨٣٣٣
الدراسة الابتدائية الأهلية	٣٥	٣	٩٣	١٣١	٢٠٢٦١
الدراسة الابتدائية الأجنبية	٥	—	٥	١٠	١٧٨٤
المجموع	١١٣٤	٢٥٩	١٩٩	١٥٩٢	٢٨٠٣٧٨
الثانوية على اختلاف أنواعها	١٤٧	٥٠	—	١٩٧	٤٦٤٦٣
المدارس المهنية على اختلاف أنواعها	٨	٢	١	١١	١٨٧٤
دور المعلمين	٢	١	—	٣	٨٦٣
المعاهد العالية	٣	١	٨	١٢	٥٢٥٥
المجموع العام لجميع المدارس والنوات	١٢٩٤	٣١٣	٢٠٨	١٨١٥	(١٠) ٣٣٤٨٣٣

وقد أيقظ فتح الإنكليز بمظاهره المادية الفكر العراقي برويته مستوى
عالياً من الحياة لم يره عند جنود الدولة العثمانية كالنظافة والأناقة وكفاية في
المال . وكانت مجالاً واسعاً للمقارنة بين الجيشين ، وتمنى المثقفون أن ترتفع
حالة الشعب المادية ، وأن ينتبه على صوت سنابل خيل المحتل ووطء أحذيته
على أرض الوطن .

أما الأدب فقد تغير مجراه العام ورافله الذي كان يتسرب فيه ، فابتعد
عن خدمة السلطان والوالي والحكومة واتجه للشعب وخطمته ، وأصبحت للشعب
مترلة محترمة . وبدأ الشعراء وقادة الرأي في معالجة مشكلاته الاجتماعية
والسياسية لرفع شأنه ، وخلق شعب قوى صحيح غنى مثقف . وقد كانت
هذه المشكلات الاجتماعية متشابكة مع المشكلات السياسية . وكان الشعب
جاهلاً مريضاً فقراً . والشعب الضعيف المتأخر ، المتخاذل ، لا يقدر على
إصلاح نفسه ، لأن قوة الشعب تأتي من قوة أفرادها ، ومتى قدر الضعيف
الواهن على المقاومة والنضال لاستخلاص حقه ؟ . والمؤلم أن هذا الشعب

(١٠) التقرير السنوي عن سير المعارف ١٩٥٣ - ١٩٥٤ بغداد ١٩٥٥ ص ٦ .

ملك أرضاً تفيض بالخيرات خصبة تتدفق فيها الأنهار ، وتضيق خيراته
ويذهب ماؤه عبثاً ؛ لأن المستعمر اللخيل حال دون استغلال هذه الثروات.
قال الصافي النجفي مستنكراً ذلك بقوله (١١) :

ما للفرات يسيل عذباً سائغاً عجباً ، وورد نبي الفرات أجاج
الفقر أخلق في بنيه وإنما ماء الفرات العسجد الزواج
جاءته (حوت البحر) ظامئة له أو ماكفاها بحرها العجاج
قد شب فيها فقطنا ناراً فهل يطنى لظاها ماؤها الشجاج
والنقط يجري في العراق ومالنا ليلاً سوى ضوء النجوم سراج
وتهكم على الاستعمار الذي كبل الشعب ويقول إنه مطلق السراح يفعل
ما يشاء بحرية تامة بينما هيمنت رقابته على كل صغيرة وكبيرة ليسبره حسباً
يريد ويهوى :

قد أقلوه من القيود بمرهق وأحاط فيه من العداة سياج
زعموه مختاراً وقد وضعت له تحت الصوارم والمدى أوداج
أيكون ذا رشد بعقد عقودهم وبغير ذلك لقيم يحساج
نمّ الخلداع بما تكبّن صلورهم إن الخلداع لدى الليب زجاج
أسروا العراق وكم فدينا أنفساً عنه ، فهل لأسيرنا إفراج
وبيعت الأمل في نفس الشعب ، وبدله على الطريق السوى في سبيل حقه
المطالبة المحقة ، وبالشجاعة والإقدام يضرب له الأمثلة من عبر الأيام
التي حطمت العروش ، وسحقت التيجان لأن الشعب لم يكن ركيزتها فقال :
لا تبش من اللجاج فإنما سبل الحياة شجاعة ولحاج
لا تبشوا فلحادثات بمرصده ولكم هوى عرش وحطم تاج
وكان التأخر والانحطاط مهيمين على ربوع العراق ، وليس هناك
من يصلحه لأن المتحكمين في مصير الشعب هم اللخلاء والانتهازيون ،

(١١) جريدة النهضة العراقية العدد ٢٥٦ السنة الثانية ١٩٢٨ والأمواج ص ٥٠ .

وخشى الشعراء أن يصرحوا بذلك خوف أذى السلطان ومكره ، وبطش
القوة وقساوتها فانصرفوا إلى تفريغ الشعب الذي تحمل الذل صابراً ، وماتوا
واستردحوا ، وأصلح أمره بقوته . فعند ما جاء أمين الريحاني إلى بغداد عام ١٩٢٢ ،
كان الأمل يملأ قلبه من ذكريات بغداد في عهدها الذهبي الزاهر أيام كانت
مشرق الأمل للعالم في الحضارة والرق والتقدم ، وقد صدمه واقعه المريع
الحاضر ، فنظم الرصافي قصيدة يرحب به ويعتذر إليه عما حاق بوطنه ،
فقال :

أمين جئت إلى العراق لكي ترى مافيه من غرر العلى وحجوله
عفواً .. فذاك النجم أصبح أفلاً والقوم محتربون بعد أفوله
أما الحيا فلدياك الحيا لكل مسيل الماء غير مسيله
ورببعه ذاك الريح وإن شكا من جهل ساكنه اشتداد محسوله

وكانت نفس الرصافي تفيض حسرة وهو يعدد مآثب العراق التي تدمى
القلوب أمسى ، وتعلأ القلوب لوعة فقد أصبح القطر الذي كان يدوى صيته :
ويزهو يرقيه وحضارته وعمارته في مباءة للاختلاف والتنازع ووكراً للتنابد
والتناحر والبغضاء والشقاق . فالحار يخشى من جاره ، والصديق يشك في أعز
أصدقائه وأهليه ، فقد اختلف أبناء الوطن الواحد وأصبحوا كتلاً وجماعات
فالنصراني يشك في سلامة نية المسلم ، والمسلم لا يطمئن للنصراني ، وقد
بلغت الفوضى حداً لم يبلغه قطر من أقطار المعمورة ، فقد انتهكت حرمة
العلماء والأساتذة ، ولم تبق لهم كرامة أو قيمة ، وخشى العامة الأفضاذ
وأصحاب الرأي فيه إبداء آرائهم ، لفساد الأحوال وتدنيتها ؛ كيلا يتهموهم
بالروق والكفر وبالخروج عن تعاليم الدين . إنه لوضع مؤلم وآلم منه
الاعتراف به ، لكن مما يخفف عن النفس أجزائها وعن النفس شجونها
وشجوها ، ومن القلب لوعته وأساه أن يسجل الشاعر ما يجتسم في صدره ،
ويجد تعليلاً لهذا الأمر كله بقلمه الريحاني ، هو أن العراق لا يتصرف حسب
أهواء أبنائه ورغباتهم ، إنما هي توصيات العميل المستوردة وشعب هيم
عليه المستعمر لن ينال الخير والرفاهية فقال :

من أين يرجى للعراق تقلم وسيل ممتلكيه غير صيله !
 لاخير في وطن يكون السيف عن د جباهه ، والمال عند بخيله
 والرأى عند طريده ، والعلم عن د غريبه ، والحكم عند دخيله
 وقد استبد قليله بكثيره ظلاماً ، وذل كثيره لقليله (١٢)
 وقد كانت آراء الرصافي سائدة بين شعراء هذه الفترة مثل عبد الحسين
 الملا (١٣) ، وعلى الشرقى (١٤) ، وصالح الجعفرى (١٥) ، وعبد الحسين
 الأزدى (١٦) ، ومهدى الجواهرى (١٧) ، فكلهم يرجع سبب تأخر
 العراق إلى المستعمر الذى رتع بحيرات الوطن ، وتصرف بجميع مقدراته
 دون أن يحس بمايعانيه أبناءه من الشقاء ، فقال كمال نصرة بصراحة تامة ،
 يصف فوز الأجنبي وتنعمه بالعراق :

بلادى بها فاز الغريب بقصده فما خانه جسد ولا عز مطلب
 له راتب ضخّم وعيش مرفه وأمر مطاع واحتكام ومنصب
 وإن له عند الحكومة حرمة وقلراً تسامى وهو منها مقرب
 أفى الحق أن نشقى ويسعد غيرنا ويفصب منها الحق والرزق يسلب (١٨)
 وصور على الخطيب آلام الشعب العميقة تحت وطأة الدخلاء والمستعمرين
 الذين اكتسحوا أرضه ونعموا بحيراتهم ، دون أن يصلحوا من أمره ، ويرفعوا
 من مستواه عندما اختلطوا به ، وهز قلبه أثنين وياواه فقال :

(١٢) ديوان الرصافي ص ٤١٥ - ٤١٧ . سمعت أن الملك فيصل لما سمع (والحكم عند
 دخيله) ترك عمل الاحتفال احتجاجاً .

(١٣) جريدة النهضة المراقية العدد ١١٦ و ١٢٦ السنة الأولى والعدد ٢٨٢ السنة الثانية
 من سنة ١٩٢٨ .

(١٤) المصدر السابق العدد ١٤ السنة الأولى ١٩٢٧ .

(١٥) النجف العدد ٤ و ٧٥ السنة الثانية سنة ١٩٢٧ .

(١٦) جريدة النهضة المراقية ٩٧-١-١٩٢٨ والزمان ٣٩-١-٩٢٨ .

(١٧) المصدر السابق العدد ٢٦٠-١-٩٢٨ وجريدة المفيد للعدد ٢٥٧-٢-١٩٢٤ .

(١٨) جريدة النهضة المراقية العدد ٢٨٢ السنة الثانية ١٩٢٨ .

فخالط الشعب واسمع ما يئن به وافصح بحالك المظلوم بالكلم (١٩)
وألقى بعض الشعراء تبعة تأخر العراق على أبناء الشعب ، الذين شاركوا
المستعمر في حكمه فقال (ميمون بن قيس) -- ولعله خبرى الهنداوى -- مخاطب
الوطن :

حتى بنوك مع الدخيل عليك متحدى الأيادي
ويصم أبناء الوطن بالخور والضعف ؛ لأنهم لم يقاوموا المستعمر وأذئاب
المستعمر الذين عمت قلوبهم عن مصالح وطنهم ، ونفذوا رغبات الدخيل
دون تفكير ، فهم المستولون عن كل ماحل بالبلاد من فساد وفوضى ،
فقال :

هم علة الوطن العزيز وهم جرائم الفساد (٢٠)
وقد أكد هذا المعنى محمود الملاح في شعره ، ومن طريف شعره بيت
قال فيه :

الخير في هلى البلاد مقمّم بين (المسائر) من (سمث) (وكوك)
ويرجوك الشاعر أن تتلمس الواقع بنفسك في الأسواق بالاحتكاك بأبنائه
الشعب وتسقط حالته الاقتصادية والعلمية ، وما وصلت إليه من التلذذ
والتأخر فيقول :

انزل إلى الأسواق تلق متاجراً أربابها في رثّة الصعلوك
العامل المسكين يئذل جهله ويعيش عيش البائس المنهوك
والعلم في أوطاننا متقهقر مغمورة أرجاؤه بالنوك (٢١)
أما مصطفى جواد فقد حار في أمره واندهش من تصرفات الدخيل الذى
ظن نفسه صاحب الدار ، ولم يرع لرب البيت حرمة ، فقد تنعم بالخيرات

(١٩) جريدة الزمان العدد ٤٤ السنة الثانية ١٩٢٨ .

(٢٠) مجلة المعرض العدد المزدوج ٩ و ١٠ السنة الثانية ١٩٢٧ .

(٢١) جريدة البلاد العدد ١١٠ - السنة الأولى - ١٩٣٠ وجريدة النهضة المراقبة العدد

٢٩٧ السنة الثانية ١٩٢٩ له قصيدة أخرى .

وترك الفضلات لأصحاب النعم الذين هم أحق بها منه ، ولم يرسيلاً إلى التخلص منه بغير الطرد والضرب والصفق فقال :

فأعجب بضيف صار للدار صاحباً وتساءل له قد باء بالطرد والصفق (٢٢)
وقد وجه الصافي النجفي لومه للشعب ، لأنه هو الذى خلق الحكومات
ولو كان الشعب عادلاً لما جاءت إلا حكومة عادلة ترحمه وترأف به ،
ولكن متى كان الشعب ظالماً كانت الحكومات التى تحكمه ظالمة مثله فقال :
دافع الشعب بالحكومة إن يظلم لملك وادفع بالشعب ظلم الحكومة
واحذر الكل فالحكومة بنت الشعب بخلقاً والشعب أم ظلومه
ثم يعزو تكوين الحكومات الظالمة إلى ظلم الشعب وعدم نضجه فيقول :
إن ظلم الشعوب «سوى» الحكومات وأنشأ لنا الطقوس القديمة
ففى الشعب للحكومة لا يحد نتاج لو كان ذا قلوب رحيمه
فالحكومات مثل أشواك سم أنبتتها أرض الشعوب الوخيمة
ونصح الشعب بإصلاح خلقه حتى يمكن أن تلغى الحكومات فقال :

أصلحوا خلقكم لتلغى الحكومات وعيشوا بؤى قلوب سليمه (٢٣)

وهذه القاعدة صحيحة متى كان الشعب قادراً على أن ينتخب حكومتهم
صميم أبنائه ، أما الحكومات العراقية فلم تكن تختار إلا بإرشاد من حكومة
بريطانيا وليس للشعب أى رأى فى اختيارها، ولكن يأسه من إصلاح الحالة
العامة دفعه لإلقاء اللوم على الشعب بعد أن رأى عدم عناية الحكومة الحاكمة
بأموره وعدم ثورة الشعب على الحكومة الظالمة الأجنبية .

(٢٢) جريدة النهضة العراقية العدد ١٣١ السنة الأولى ١٩٢٨ وله قصيدة فى العدد ٦٨ من

السة نفسها .

(٢٣) الأمواج ص ٦٤ .

مشكلة المرأة

من الفترات التي الحالكة مرت بها المرأة في العراق فترة القرن التاسع عشر (١) وأوائل القرن العشرين فقد كانت محجبة لايسمح لها بالخروج من الدار إلا في النهار وتحت مراقبة شديدة ، وقلمما كنا نرى امرأة مسلمة تمر في السوق ، بل إن مجرد سماع العراقيين ذلك يهز أعصابهم ويخيفهم (٢) ، وإذا أرادت الخروج كانت تسدل عليها العباة السوداء أو العباةتين وتبرقع ببرقع أسود لا يرى منه شيء ، وعليها أن تمر في الدروب الضيقة والأزقة المتعرجة ، وتتجنب المحلات العامة والمقاهي ، وإذا لم يكن غير طريق واحد كانت أمهاتنا يطلبن إلينا أن نسبقهن إلى المحل الذي ستزوره ؛ كيلا يعرف الرجال من مصاحبتنا لمن هويتهن . وقد يبلغ التعصب بالرجل أن يمنع زوجه الخروج من البيت لأي سبب وقد سمعت أحد الشيوخ قبل سنوات يتحدث مفاخرأ بأن زوجته لم تر عتبة الباب ، وخير وصف لحالتهن قول محمد بسم اللبيب :

ظلموك ، سجنوك ، زوجوك شر زوج في الوجـود
قائلاً زوجي لا تخرج إلا يوم تدعوها اللحد (٣)
ولايزال بعض الرجال ينجعل من ذكر اسم الأم أو الزوجة أو الأخت

(١) الشعر العراقي في القرن التاسع عشر ط ١ ص ٢٤ .

(٢) Foster, H., The Making of Modern Iraq (London 1938) p. 217.

(٣) مجموعة خطية بقلم الشاعر في مكتبتي الخاصة ويلاحظ ديوان نزهدي ص ٢١٦ .

أمام الغرباء ، ولما انبثق القرن العشرون ودوى صوت قاسم أمين في مصر تردد صدى صوته في العراق ، فقد طالب بوجوب تعليم الفتاة وتخفيف الحجاب أوقفه عنها وإعطائها حقوقها الاجتماعية ، وحريتها الطبيعية مستنداً إلى تعاليم الدين الإسلامي التي تمنح المرأة مثل هذه الحقوق (٤) ، وقد ساعد على نشر هذه الآراء عناية الجرائد المصرية بها والرد عليها ونشر أخبار المؤيدين لها . وكانت هذه الجرائد تصل العراق (٥) وتؤثر في القراء ، فكان منهم المستحسن والمهاجم وقد انقسم الرأي كاتقسامه في مصر ، فنادى بعض القوم بوجوب تعليم المرأة وإعطائها حريتها ، واعتبارها إنساناً لها بالرجل من حقوق وواجبات ، وإفساح المجال لها لتكون عضواً عاملاً لبناء المجتمع في العراق ، واتخذ الدين الإسلامي وتعاليمه سنداً لهذه الآراء ، وضرب الأمثلة الحية من تاريخ العرب ، فقد حاربت النساء مع الرسول وظهرن سافرات معه وذفن آلام الأسر والتعذيب كالرجال .

أما الذين كانوا يقفون أمام التيار فأكثرهم من رجال الدين ، الذين يرون في سفور المرأة واختلاطها بالرجال خطراً سيكلف المجتمع مشكلات خطيرة ، وعلوا السفور مخالفاً لتعاليم الدين الإسلامي ، وقالوا بأن السفور يقود الناس إلى المجون ، وأن إباحة النظر للمرأة سيهمل القيم الاجتماعية ، وقد اتهم دعاة السفور بأنهم دعاة فساد يريدون التمتع بالمرأة دون قيد أو شرط ، وهذه أمور لا تفرها التقاليد العربية ، ودعاة السفور كفار ، وذكروا في دفاعهم فوائد الحجاب فهو يصون المرأة من الفجور ويكسر حلقة الشهوة الجنسية (٦) وغير ذلك من الحجج .

كانت دعوة السفور دعوة جديلة هاجمت معايير المجتمع العراقي التي

(٤) الانجازات الوطنية في الأدب المعاصر الدكتور محمد حسين (القاهرة ١٩٥٤) ج ١ ص ٢٧٧ خير من كتب في هذا الموضوع ولا حظ الانجازات الأدبية تأليف أنيس المقتضى ج ٢ ص ٤٨ .

(٥) كان عدد ما يرد إلى العراق أسبوعياً نحو خمسة آلاف نسخة يضمها الجرائد غير العربية يلاحظ مقال عن الصحافة في جريدة البلاد الصادر في ٧ شباط ١٩٣٥ ومقال عن (أثر الصحافة المصرية) في (دار السلام) المجلد ٨-١-١٩١٨ .

(٦) تنوير الأفكار المجلد ٣ السنة الأولى ١٣٢٨ هـ .

اصطلاح عليها وارتضاها ؛ لذلك كان من الصعب عليه أن يتخلى عنها بسرعة ، لأنها دعوة لم يألفها من قبل ، واهتر لها واضطرب وعاش في دوامة من الحيرة والقلق ؛ لأنه كان بين نارين : العقل ومتطلبات الواقع من تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ، وبين التقاليد والتربية الاجتماعية التي ألفتها الفرد . ومشكلة المرأة مشكلة حساسة في المجتمع العراقي الذي يرى أى خلدش في كرامتها خدشاً لكرامته ولكرامة الأسرة كلها . والأسرة العراقية متماسكة كل التماسك فأى عار يصيب امرأة من الأسرة فهو يصيب الأسرة كلها ، ويمنع المجتمع العراقي المرأة التحدث مع الرجل الغريب ، فكيف بالخروج معه ومخالطته والعمل معه ؛ لذلك فقد وجدنا حتى الداعين إلى السفور أرادوه بشروط ، كيلا يؤثروا مشاعرهم الاجتماعية التي نشئوا عليها فقد طالبوا بتعليم المرأة ومراقبتها ، وأن يكون سفورها محدداً بالوجه ، متعللين بالخوف من نكسة تصيب المرأة ؛ وطالب قسم بتعليم المرأة أولاً ثم سفورها حتى تتمكن من المحافظة على نفسها من الرجال .

وقد كان على رأس المناصرين لحركة تحرير المرأة الرصافي والزهاوى ؛ فقد نظم الرصافي قصيدته الثائية عام ١٩٠٩ وقد آزرته جريدة الرقيب وما قالته : « إن حالة المرأة في مدينة بغداد حالة يستحي القلم من تحريرها لأنه لا يوجد بينهن واحدة من عشرة آلاف من تحسن القراءة ، والسبب الأعظم هو تعصب مادتنا علماء الدين ضد تعليمهن .. » (٧) . وقد كان لهذه القصيدة أثر كبير في الحياة الاجتماعية العربية فقد تناقلتها الجرائد السورية وبادر بعض الشعراء يرد عليها مفتنداً آراءها محرمات تعليم المرأة لعدم قنوتها على التعلم ، ولأنها من سقط المتاع (٨) ، وقد استمرت هذه الدعوة طويلاً ولم تنته (٩) ، مع أن المرأة قد حصلت على كثير من حقوقها ، وقد جرت بعض

(٧) جريدة الرقيب العدد ٧٤ السنة الأولى ١٩٠٩ العدد الصادر في (٦ ذى الحجة ١٣٢٧هـ).

(٨) المصدر السابق .

(٩) حدثني المرحوم الأستاذ خيرى المتناوى أن المرحوم يوسف الطاهر - من أبرز رجال الدين آنذاك - استغل قصيدة الدفاع عن السفور عندما هجاه الرصافي فذهب إلى الملك على وكان يؤثر رجال الدين وأمنه بكثرة الرصافي وطلب إليه مناقبته بقطع راتب قدره ٥٠٠ روبية كان يتقاضاه بتأثير أخيه الملك فيصل بعد أن أقسم عليه بقطعه .

المتاعب على الرضاقي (١٠)، وديوان الرضاقي يطفح بموازرة المرأة، حتى إنه أفرد لها باباً أسماه (النسائيات) إضافة إلى وجود بعض قصائد فيه (١١)، وقد بحث الرضاقي جميع مشكلات المرأة الاجتماعية فكان اجتماعياً وخبيراً بهذه المشكلات، ولم يكنف بمشكلة المرأة في العراق، إنما ساهم في البحث عن مشكلتها في الشرق، فذكر غمط الرجل لحقوقها واحتقاره لها، وجهلها الذي جر إلى ذلك الشرقيين وشقاؤهم (١٢)، ولما أرسل قصيدته إلى صاحبة مجلة (الخلود) شكها لما سوء حالة المرأة في العراق كثيراً، وشبه المرأة كالنحلة إذا لم تكن قوية فلن يكون ثمرها يانعاً طيباً (١٣)، وبحث في مشكلة حرية الزواج التي اشترطها الدين الإسلامي والتقاليد العربية الأصيلة ولم يمنحها المجتمع لها منذ حجبتها عن الرجل، فمنعها من اختيار شريك حياتها فلا يراها إلا ليلة البناء، وقد يكون عجوزاً أشيب أغرى أمرتها بالمال أو بالجاه أو كان للأسرة مصالح في هذا الزواج فقال :

ظلموك أنتها الفتاة يجهلهم إذ أكرهوك على الزواج بأشييا (١٤)
والطامة الكبرى أن تمنع حتى من إبداء رأيها بهذا الزواج، لأن رفض المرأة يعد عاراً عليها وعلى أمرتها. وقد تحدثت مع أحد أبناء الجيل الذي سبقني بهذا الأمر فقال بصلف وكبرياء «لم تأت البنت التي تجرؤ على رفض رغبة أهلها»؛ لذلك هاجم الرضاقي هؤلاء وتساءل كيف تحب الزوجة زوجها إذا زفت إليه غصباً، ولن يسود الوثام والسعادة بين الأسر إلا بإفساح المجال أمام تعليمها وسفورها، حتى تختار من تريد فتتملأ بيت الشرق بالسعادة فقال :

هل يعلم الشرق أن حياته تلو إذا رنى البنات وهذبنا
وقضى لها بالحق دون تحكم فيها وعلمها العلوم وأدبا (١٥)

(١٠) ديوان الرضاقي ص ٣٣٢-٣٤٥.

(١١) ديوان الرضاقي ص ١٥٤ و ١٥٦.

(١٢) ديوان الرضاقي ص ٣٣٢.

(١٣) المصدر السابق ص ٣٣٤.

(١٤) المصدر نفسه ص ٣٣٦.

(١٥) القصيدة نفسها.

ويتخذ من ظهور كتاب (السفور والحجاب) للآنسة نظيرة زين الدين سبباً يتحدى به الرجال - الذين يناوئون السفور-إن كان بينهم رجل يحاكي لمؤلفة ذكاء وعلماً وأدباً (١٦)، وهى نموذج رائع على قلرة المرأة المسلمة على التعلم وعلى الحرية (١٧) ، وقد أفرد للمرأة المسلمة قصيدة وصف فيها جهلها ويؤسها مع أن الإسلام يفرض تعليمها. ولعل الثانية هى الجامعة لكل رأى فى سفور المرأة فقد حشد فيها الأدلة والبراهين والشواهد لتأييد رأيه فى سفور المرأة ، واعتبرها المدرسة الأولى التى يجب أن يعنى بها لينشأ الطفل مهذباً مثقفاً ويحزنه انحطاط المرأة المسلمة فيخاطب أم المؤمنين عائشة زوج النبي ويشكو إليها ما حاق بالمرأة ، ويرد على المدعين بأن الدين الإسلامى منع تعليم المرأة فقال :

وقالوا شرعة الإسلام تقضى بتفضيل الذين على اللواتى
لقد كذبوا على الإسلام كذباً تزول الشم منه منزلات
ويقرع المسلمين الذين لم يلتزموا بتعاليم الدين الإسلامى لانصرافهم
عنه ، فظنوا أن منع المرأة من حريتها من صلب الدين ، ولم يقتلوا برسول الله
ولا بنسائه وعناية السيدة عائشة بالعلم فقال :

أليس العلم فى الإسلام فرضاً على أبناؤه وعلى البنات
وكانت أمنا فى العلم بجزأ نحل لسائلها المشكلات (١٨)،
وقال : إن تعاليم الدين قد نصت على تعليم المرأة وإعطائها حقوقها ،
وفى التاريخ العربى خير برهان ، ويشير إلى حياة المرأة البدوية الحاضرة

(١٦) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

(١٧) للسفور والحجاب معاصرات ومناظرات تأليف الآنسة نظيرة زين الدين بيروت ١٩٢٨ لاحظ الصفحات ١٤٨ و ٢٧٥ و ٢٨٠ بشأن شعراء العراق وكتابه . وقد أثبتت الكاتبة على الرصافى وعلقت على شعره واستحسنته ص ١٤٨ وقد جاء فى الكتاب على حرية السفور وحرية العمل فى الإسلام وناقشت آراء مستحسنى الحجاب ، واستنتت إلى القرآن والحديث وأخبار العرب وشعر شوق [واسماعيل صبرى] والرصافى والزهراوى وحافظ وأعلام الإصلاح الدين مثل الأفغانى وعبد عبه وبرهنت على التابلية للكيرة فى تعاليم الدين الإسلامى على السفور وحرية المرأة وحقوقها .

(١٨) ديوان الرصافى ص ٣٣٩-٣٤١ وقد أتى هذه القصيدة عام ١٩٢٢ .

ولا يكتفى بذلك بل يلقى قصيدة يدعو فيها إلى رأيه في أحد الاحتفالات ، يندد فيها بجماعة الحجاب ويهاجم المحافظين والمتعصبين فيقول :

إلاما لأهل الشرق في برحاء يعيشون في ذل به وشقاء
لقد حكموا العادات حتى غلت لهم بمزلة الأقياد للأسماء
وفي القصيدة يقول :

ألم ترهم أمسوا عبيداً لأنهم على الذل شبوا في جحور إماء
أقول لأهل الشرق قول مؤنب وإن كان قولي مسخط السفهاء
ألا إن داء الشرق من كبرائه فبعداً لهم في الشرق من كبراء (١٩)
ويلاقى الرصافي حملة عنيفة من الحجابيين ويسمونه المارق والتافه الذي خرق العادات ، وغير ذلك من التعوت مثل قول إبراهيم الرحيمي :

تجاهلت في كل الأمور سفاهة وما أنت إلا تافه الرأي جاهل
خرقت بنظم الشعر عاداتنا التي بها محمد العقبى وترضى الأوائل (٢١)
ومن الشعراء المشهورين الذين هاجموا الرصافي محمد السماوي ، ولم أطلع على قصيدته غير أنني وجدت قصيدة لخيري الهنلاوي يرد بها على السماوي ، الذي قال بأن المرأة ناقصة عقل ودين ، ولا يجوز أن تمنح الحرية لأنها لا تحسن استعمالها (بنفس البحر والروى) :

تقول بنقصهن إذن فلم لا تكمل بالعلوم الناقصات
وهل عدت سكيئة حين تبلو وتنتقد الكلام من السراة (٢١)
وهل عدت صفيه يوم قامت لقتل العليج كالنبرجات (٢٢)
ورد على قصيدته الهمزية عبد الحسين الأزري فخطب فيها بنت بغداد (كريمة الزوراء) وحذرهما من شاعر خيالي بعيد عن واقع الحياة هو الرصافي ، ووقف موقفاً وسطاً ، فهو ما أراد أن تسفر الفتاة فقال :

(١٩) ديوان الرصافي ص ٣٤٤ .

(٢٠) الناشئة الجديدة العدد ١٧ السنة الأولى ١٩٢٣ .

(٢١) السراة : المترجمة .

(٢٢) ديوان خيري الهنلاوي (المخطوط) .

أولم يروا أن الفتاة بطبعها كالماء لم يحفظ بغير إناء
من يكفل الفتيات بعد ظهورها مما يجيش بخاطر السفهاء
ومن الذى ينهى الفتى بشبابه عن خلخاع كل خريصة حسنة
ولكنه أرادها أن تتعلم وتتصف على شريطة الاحتفاظ بالنقاب حتى
لا تختلط بالرجال فقال :

ليس الحجاب مانع تهذيبها فالعلم لم يرفع على الأزياء
أولم يسخ تعليمهن بدون أن يملأن بالأعطاف عين الرأى
لأن السفور يملأ قلوب الرجال عشقاً وفتنه ، وعلى أبناء الوطن الحارمن
دعاة السفور ؛ لأنهم كاللصوص يريدون أن يعيشوا بالوطن فساداً فقال
متسائلاً :

ماذا يريك من حجاب ساتر جيد المهابة وطلعة الذلفاء
ماذا يريك من لذار مانع وزر الفؤاد وضلة الأهواء
ويقول صراحة إن اجتماع الفتاة بالفتى مجلبة للهوى :

هل فى جماسة الفتاة سوى الهوى لو أصلقتك ضمائر الجلساء (٢٣)

ولعل أعنف رد على الرصافى هو رد صديقه محمد بهجة الأثرى ، فقد
هاجمه عندها نظم قصيدته العينية (٢٤) ، فقال إن الرصافى طالب خلاعة
وإنه جاهل ثم رماه بالكفر والضلال والمروق ، ومن الطريف أن ينشر الرد
فى جريدة الرصافى (الأملى) ويرد عليه الرصافى رداً لطيفاً هادئاً ويعتبره
فيما ذهب إليه ، لأنه حماس الشباب دفعه إلى مقال وختم مقاله بالرجاء
له بالخير (٢٥) ، وقد صلب جانب كبير من رجاء الرصافى فقد وجدت
فى مجموعة شعر الأثرى الخطية قصيدتين إحداهما نشرت فى مجلة الرسالة

(٢٣) الأدب المصرى ج ٢ ص ٥٥ و ٥٦ وقد جمع مصطفى عبد الجبار القاضى (مختارات
فى الحجاب والسفور) وطبعها فى بغداد سنة ١٩٢٤ وأعاد نشر هذه القصيدة ، وقال فى مقدمة
ها « وحسبى بكل أديب أو أديبة يجان اللغة والفضيلة أن يجملها هذه المنظومة دستوراً لتعاليم الفتاة
الشرقية » ص ١٣٠ .

(٢٤) ديوان الرصافى ص ٣٣٤ .

(٢٥) جريدة الأملى العدد ٦٣ السنة الأولى ١٩٢٣ .

العدد ١٣٣ وصف ماتعانيه المرأة من مشاق وعذاب ، ووصف في الثانية الرجل الذي إذا بشر بالأنثى (ظل وجهه مسوداً وهو كظيم) وإن لم يكن الأثرى فيهما من دعاة السفور فإن فيهما دعوة إلى إنصاف المرأة قال :

عجبت للمرأة وكـم داعية العجب
إن بشروه بابنة بيت صريع الغضب

وكان الزهاوى مندفعاً في تأييد حقوق المرأة وسفورها ، فقد قال عنه رفائيل بطي أنه نشر مقالاً في جريدة المؤيد الأسبوعية المصرية في عددها ٦١٣٨ بعنوان (المرأة والدفاع عنها) ، ولم يكن المسلمون على استعداد لتقبل هذه الآراء ، فقامت ضجة هاج لها المسلمون ، وأشاعوا بأن الشاعر تحامل على الدين الإسلامي في مقاله وذهبوا متجهرين إلى وإلى بغداد العثمانى ، وطالب أحد المبعوثين (٢٦) وإلى بغداد بعزل الشاعر من وظيفته فأجيب إلى ماطلب ، ولزم الزهاوى دأبه خوفاً من أذى الناس (٢٧) . ولتعد نتلمس بعض الحقائق ، ونر الجو الذى أحاط بالزهاوى ، فقرأ مقاله في جريدة الرقيب والذى وجهه إلى وناظم الحكومة في بغداد ، فقد قال فيه : .. أسمع أن أحد المشايخ المتلبسين بالتقوى في بغداد — هذا البلد الذى يسيطر عليه حكم الدستور ، وعدلك الواقع — أخذ يدير رحي فتنة ، فقام يجرس الجاهلين على الإيقاع في باسم الدين البريء من الظلم ، جزاء مقالة اجتماعية نشرت بإمضائى في المؤيد الأسبوعى — كما في تنوير الأفكار — دفاعاً عن المرأة .. ثم أخذ يشكك بكتاب المقال وشخصيته فقال : ... وهى عدا كونها شبهات ضعيفة استفهامية تزول من نفسها لم يتعين بعد أكانها أنا ، أم هى مزورة على لسانى من علولى في العراق ؟ والذى أرجو من الحكومة المستورية أن لا تقتص من الصابغين أكثهم بلعى إذا كان ما يريد المحرضون — أظنهم أكثر من واحد — بل تعنى بتعليمهم وإقناضهم من

(٢٦) السيد مصطفى الواظظ .

(٢٧) الأدب المصرى ج ١ ص ٩ ويلاحظ المقال في عدد (المؤيد) للرقم ٦١٣٨ الصادر

في السابع من أغسطس ١٩١٠ .

الجهل لئلا تمتد أيديهم في المستقبل إلى منكذ آخر مثل يتمنى في كتاباته إصلاحاً للأمة اجتماعياً . . (٢٨) وقد نظم الزهاوى قصة ذكر فيها أن الناس تجمهروا ثم جاعوه غضاباً صاخين ، وكان منظرهم مضحكاً كما وصفه الزهاوى ، فهذا سائر على مهل وذلك يحبو وذلك يعلو وذلك يقفز (٢٩) ، وكأنهم ذاهبون إلى دعوة فرح لا إلى الانتقام من شخص كافر ملحد ، وقد كرر الزهاوى هذا المعنى في قصيدة أخرى ، وعزا تجمهر الناس إلى أحد رجال الدين الذى أوغر صدورهم بأنه زنديق ، ومن يفتك به يدخل الجنة (٣٠).

هذه ثلاثة مراجع ذكرت تألب الناس على الزهاوى ، وتظاهروا ضده لفتك به وقتله وهدر دمه ، ولتناقش هذه المصادر وقضية المظاهرة ضد الزهاوى :

المصدر الأول رفائيل بطل وقد أخذ معلوماته من الزهاوى مباشرة وقد صاغ الزهاوى ما أراد وأسبغ على نفسه ما شتهى ، وهو لا يخرج عما نظمه الزهاوى .

المصدر الثانى ما كتبه الزهاوى في جريدة الرقيب وفيه يعبر عما حدث له من آلام ، شاكياً للوالى طالباً حمايته متبرئاً من أقواله ، وليس في النص شيء عن تجمهر الناس وقيام مظاهرة ، وإنما هناك من يحرض الناس للإيقاع به ، وهذا كثيراً ما يحدث . فالمصدر الأول والأخير عن قيام مظاهرة ضد الزهاوى هو الزهاوى فى شعره ونثره ، وليس من المقول أن يحدث مظاهرة ضد الزهاوى ، ولاتقف بجانبه جريدة الرقيب وتسند كاسانددت الرصافى ، لذلك فأنا فى شك مريب من جلوث مثل هذا الأمر وكل ما حدث للزهاوى لإرسال كلمة تهديد مغفلة التوقيع (٣١) ، فصور خياله جلوث مظاهرة تريد الفتك به ، فنظم قصيدة رسم ما تخيله فيها واستحلى الأمر وكرره واعتقد هو بصحته . وقد يرد قائل لم يعزله ناظم باشا من منصبه ،

(٢٨) جريدة الرقيب العدد ١٧٢ السنة الأولى ٧ شوال ١٣٢٨ هـ .

(٢٩) ديوان الزهاوى (مصر ١٩٢٤) ص ٣٠٧ إلى ٣٠٩ .

(٣٠) نفس المصدر ص ٩٠ إلى ١٩٢ .

(٣١) حقيقة الزهاوى المبدى ص ٦٠ .

والجواب عنه بأن الزهاوى كتب المقال ولم يتفق مع رأى ناظم باشا ، وربما استرضى بعض رجال الدين ، وقد كان ضد الزهاوى لأنه كان يكره الاتحاديين الذين كان الزهاوى منهم ولكن لم تحدث مظاهرة ضد الزهاوى ، ولو كان رأى إلى نشر شعره ، ثم إن الرقيب أزرته بمقال نشر في ٦ ذى الحجة ١٣٢٧ ، ونشر الزهاوى قصيدته ثم كلمته الموجهة إلى ناظم باشا في ٧ شوال ١٣٢٨ وهناك فرق زمني بين نشر القصيدتين ، ولعل ما أثار رجال الدين على الزهاوى هو تطرفه في الدعوة التي لم تؤد إلى مظاهرة .

الزهاوى بطبعه خائف شكاء بكاء يهول الأمر ، لإبراز نفسه بصورة البطل لكي يغطي على خوفه ، وهو مريض مقيم إذا أصيب بألم صرخ وجأر ويكي واشتكي فيقول :

أشكو إلى أى هذى الناس مظلمتى وقد جرى باضطهادى الترك والعرب (٢٢)
وفي قصيدة أخرى يصف جزعه وكأنه طفل يبكي فيقول :

لى تحت أستار اللجئة رنة مشفوعة بتهلى . وزفرى
مرفوعة لحنى سمع راحم ملغوعة من قلبى المكسور (٢٣)
بل يتصاغر في هذه القصيدة حتى يصف نفسه بالعصفور الذى تهاجمه الغربان والنسور ، فيهرب متوارياً خائفاً في جحر جدار ، ومن كانت هذه صفاته لاشك بأنه يحاول أن يجعل من نفسه بطلاً بعد فوات الأوان ، ويسبغ على نفسه صفات الزعامة والإصلاح . ولو كان وجود المظاهرة حقيقة ، وأن الوالى عزله بسبب مطالبته في الإصلاح ، فلم لم يذكر ذلك في قصيدته التي سب بها ناظم باشا بعد عزله وكان سبب نكبته (٢٤) . وتظهر أخلاق الزهاوى جليلة في شعره فقد وجلناه بين ويكي ويزفر طول الليل ويترقب النبع السخين خوفاً وعلماً ، أما الرصافي فقد كان معتزاً بنفسه ويكرامته ، ويفخر بما يصيبه من الأكم ويتحمله ولا أشك في أن الرصافي

(٢٢) ديوان الزهاوى ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٢٣) المصدر السابق ١٠٩ .

(٢٤) المصدر السابق ص ٧٣ وقد فرقها في الليزان حسب موضوعاتها في الصفحات ١٩٠

و ١٩٣ و ٢٧٦ و ٣٠٧ .

كان يتألم ويبكى ويهلع شأن كل إنسان ، ولكن الرصافي لم يحاول أن يرسم في شعره شخصيته قلقة خائفة .

ولست أنكر فضل الزهاوى على تحرير المرأة وصدق دعوته ونضاله في سبيلها ، فشعره يطفح بالأمثلة الحسنة ، ولكن لم يكن مركز الآراء موحد الموضوع عميق الفكرة ، فهو يطالب بحرية المرأة وسفورها وإعطائها المركز اللائق بها ولكنه يعالج بنفس القصيدة مشكلات أخرى ولا ينسى أن يحشر نفسه ، فمن شعره في مهاجمة الحجاب يخاطب فيه الفتاة :

مزق يا ابنة العراق الحجابا واسفري فالحياة تبغى انقلابا
مزقيه واحرقيه بلا ريث فقد كان حارساً كذابا
مزقيه وبعد ذلك أيضاً مزقيه حتى يكون هبابا
وانزعيه بقوة وطئيه واجعلي في فم الخنيق ترابا
ويهاجم دعاة الحجاب ويرد عليهم فيقول :

زعموا أن في السفور سقوطاً في المهاوى وأن فيه ضرابا
وإذا ما طالبتهم بدليل يثبت الدعوى أوسعوك سبابا
كذبوا فالسفور عنوان طهر ليس يلقى معرة وارتيابا (٣٥)
ويتلخص رأى الزهاوى في السفور بقوله :

قال هل بالسفور تقع يرجى قلت خير من الحجاب السفور
إنما في الحجاب شلّ لشعب وخفاء وفي السفور ظهور
كيف يسمو إلى الحضارة شعب منه نصف عن نصفه مستور (٣٦)
وقد عالج الزهاوى في شعره مكانة المرأة ويبحث ما تعانيه من سوء المعاملة وتطرق إلى تعليمها وعكس لنا أحاسيسه الشخصية أكثر مما عكس لنا مجتمعه ، فقد كان الزهاوى مريضاً مصاباً بالأوجاع والأسقام ، ولا يخفى عليه ويرأف به سوى زوجه ، وكان صدى هذه العناية عميقاً في نفسه فأراد

(٣٥) الباب من ٣٢٥-٣٢٩ .

(٣٦) الأوتال من ٣٢٥-٣٢٩ .

من تعامل المرأة معاملة مثلى ، ولم يكن له من شفيق إليها غير لسانه فأطاك،
 فيها القول وأشاد في شعره في الدفاع عنها ، وطالب بمعاملتها برقة وحنان ،
 ولم يكتف بذلك بل هاجم الرجال وقال إنهم قساة غلاظ القلوب ، مع أن-
 الرجل في كل زمان ومكان يلوب رقة مع المرأة ويعاملها معاملة تختلف-
 عن معاملة الرجال وخاصة في المجتمع العراقي ، ولم يكتف بذلك بل بالغ-
 في أوصاف المرأة فوصفها بالريبع والأزاهر ، وأن صوتها الموسيقي الرائعة ،
 وهي التي ترعى زوجها بقلب محب عميق الحب ، ولولا وجودها لما طابت-
 الحياة وأنه عبد مطيع لها ، ثم يحمل سعادته النفسية بأن تطيعه زوجته وأن-
 يطيعها فقال :

سعادة المرأة زوج يطيعها وتطيع (٣٧)

فسعادته هو أن يطيع زوجته ثم استترك وأضاف أن تطيعه لاستكمال-
 البيت . وقد كان الزهاوى يعطى زوجته كل الأهمية في شعره ، وكأنى به-
 كان ينظم وأمامه زوجته وقد نسي فضل الأم التي لا تقل قيمة في أهميتها-
 عن الزوجة ، ولعل حرصه على رضا زوجته هو الذي دعاه إلى ذلك ..
 وقد كرر هذه المعاني كثيراً في شعره وأكد على ضراوة الرجل وصبر-
 المرأة كما بحث مشكلات المجتمع كالطلاق وزواج الفتاة بعجز (٣٨)
 ويؤانسان تكرمه ، أو برجل سيء الخلق شرس الطباع (٣٩) ، وقد طالب-
 الزهاوى بمساواة المرأة بالرجل واتخذ من الغرب نموذجاً لهذه المساواة فقال :-

للرأة اليوم في مجلس القضاء محل

للرأة اليوم في البرلمان عقد وحل

الرأة اليوم في استكشاف الحقائق شغل (٤٠)

ورأى صورة الأميرة السعيدة الناجحة هي في أوروبا ، والبيت يقطر-
 سعادة وهناء حين يمرح فيه الأطفال ، فقال :

(٣٧) ديوان الزهاوى ص ٣١٠-٣١١ .

(٣٨) المصدر السابق الصفحات ٢٨ و ٢٩-٣٠ و ٣١٧ و ٣١٨ والأوشال ص ٧١ .

(٣٩) ديوان الزهاوى ص ٣١٠ و ٣١٤ .

(٤٠) المصدر السابق ص ٣١١ .

بيت نظيف وأولاد قد ازدهروا. كأنهم زهر في الروض ينتقل
 «والبيت فيه نظام حين تبصره وإنه لنظام ما به خلل
 :تبقى المودة حتى الموت بينهما فما هنا شتان ولا ملل (٤١)
 وكما هوجم الرصافي فقد هوجم الزهاوي وأتهم بالإلحاد والكفر
 «والزندقة (٤٢)، وكان مركز دعاة السفور بغداد لأنها أكثر تأثراً بالحضارة
 والحركة ومركز الثقافة (٤٣).

أما دعاة الحجاب فقد قاوموا الدعوة إلى السفور منذ ظهورها في يومها
 الأول ، وبقي هؤلاء صامدين يحاربون الدعوة للسفور وحرية المرأة وتعليمها ،
 ومن ثم بدموا يتساهلون ويعلمون المرأة ، فقد تغيرت الأحوال العامة
 ودخلت الحضارة في الشرق ، وتطورت المجتمعات الشرقية بصورة عامة ،
 وأخذت تنخر في القوى المحافظة يوماً بعد يوم . وقد كان من أشد المعارضين
 للسفور رجال الدين ومن أقواهم أسلوباً الشيخ جواد الشبيبي ، فقد وضع مشكلة
 السفور في مصاف مشكلات الوطن وخطوبه الجسام التي أقلقته وأرقت ،
 فهي مشكلة لا تقل قيمة في نظره عن الاستعمار وفساد الحكم وفقر العمال ،
 وقد وصف السافرات بأنهن داعيات إلى الخلاعة وأن السفور منعه الرسول
 ، والقوآن ، وسفور الوجه يكشف حمرة الخلود وزهو الوجوه ، وقد تشدد
 الشيخ جواد في رصمه للطريق الأمثل الذي يجب أن تحتليه في الكلام واللبس ،
 ولو عدنا بأذهاننا إلى العصر الذي عاش فيه الشبيبي لوجدنا مقدار أهمية هذه
 القصيدة ، فقد كانت الهوة سحيقة بين حياة الرجل وحياة المرأة ولكل من
 حياته ما يختلف عن غيره ، ولعل وجود (الحرم) و (الدبوةخانة) يعطينا
 فكرة واضحة عن هذين العالمين اللذين ابتعد بعضهما عن بعض . ولم يكن
 دعاة السفور يطلبون إلا كشف الوجه والاحتفاظ بالعباءة أو العباءتين ،

(٤١) الأرشال ص ٧٠ .

(٤٢) لاحظ قصيدة محمد رشيد الشيخ داود مدرس جامع الحيدريانة في (التجف) العدد

٥٤ السنة الثانية الصادر في ٥ أيلول ١٩٢٦ .

(٤٣) توجد إشارة للسفور في شعر الصافي النجفي في ديوانه الأمواج ص ٧٩ .

نفلا نعجب أن قاوم المحافظون السفوريين ، وفي قصيدة (الجواد) نموذج رائع لما كان يفكر به آبائنا ، قال :

منع السفور كتابنا ونيننا فاستنطق الآثار والآيات
تلك الوجوه هي الرياض بها ازدهت للناظرين شقائق الوجنيات
كانت تحكم في البراقع خفية من أن تمس حصانة الخفريات
واليوم فتحها الصبا فتساقطت بعواطف الأحاظ والقبيلات
ضوني جمالك بالبراقع إنها ستر الحسان ومظهر الحسنات
ويمنع الفتاة من أن ترفع صوتها لأن الجهر بالصوت ليس للفتاة ، إنما للفتى المحاج أو الخطيب ، ويوصي الفتاة في ملابسها فيقول :

بوضعي الصدار على التراب إنه حق عليك فحقن نهسدك نافي
بوتائلي في البيت صورة دمية مكنونة الأعضاء في الحبرات (٤٤)

وقد كانت أكثر الصحف تؤيد الدعوة إلى الحجاب ، فإذا قرأنا الجرائد التي صدرت بعد عام ١٩٢٢ نراها تحمل علم الثورة على السفور ، ومن هذه الجرائد والمجلات : تنوير الأفكار والرشاد والمفيد والبائع . أما الجرائد التي كانت تؤازر حركة السفور فكانت أولها جريدة العراق والصحيفة والعالم العربي وليلى . وقد كان أنصار الحجاب توفيق الفكيكي وجميل المدرس وخليل إسماعيل ومصطفى عزة عبد السلام ومحمد بهجة الأثرى والملا عبود الكرخي وعبد الرحمن البناء وحسين الظريفي وغيرهم . وكان من دعاة السفور حسين الرحال ورزوق غنام ومصطفى علي وعوني بكر صديق ورفائيل بطي ومصطفى عبد الجبار القاضي وغيرهم (٤٥) . وقد كان كل مطبوع ينشر ما يراه ملائماً لخطته فكانت مجلة تنوير الأفكار

(٤٤) ديوان الشاعر المخطوط في مكتبة الشاعر محمود الجبوري .

(٤٥) لاحظ (مختارات في الحجاب والسفور) جميعها مصطفى عبد الجبار ، ففيها نماذج قريبة مما نشر وقيل عن السفور والحجاب حتى ١٩٢٤ (بغداد ١٩٢٤) وقد كتب الصديق الأستاذ غيوري العمري مقالات متتمة عن هذه المشكلة نشرت في ملحق جريدة الشعب التي كان يصدر باسم (عند الأسبوع) في الأعداد ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ صدرت عام ١٩٥٨ .

تقول إن الحجاب مشروع وتذكر منافع الحجاب للفتاة والمجتمع (٤٦) -
وتهاجم مجلة الرشد رزوق غنام لأنه طالب بإرسال الفتاة إلى أوروبا لكي تتعلم،
أسوة بالرجل ، فرد المجلة قائلة: إن إرسال البنات إلى أوروبا معناه إرسالهن
للمتمرين على الخلاعة والفساد (٤٧) ، وتنتشر قصيدة البناء يهاجم بها
السفوريين بقصبيتين ويعتبر كشف الوجه أمراً لا تقره الشريعة الإسلامية ،
وخشى على نفسه من الفتنة والغواية والانصياع لداعى الهوى ، ولم يخف على
المرأة من الفساد والتهتك واعتبر دعوة السفور شركاً لاصطياد الضعافه
للمتنع بالمرأة ، لذلك خاطب المرأة بقوله :

وجوه الغانيات بلانقاب تصيد الصيد في شرك العيون
إذا برزت فتاة الخلد حمري تقود ذوى العقول إلى الجنون (٤٨)

ثم يحلر الفتاة من الفخاخ المنصوبة لها ، وفي القصيدة الثانية يظهر ألمه
واضحاً ، واعتبر السفور فتنة وشرّاً ، وشبه المرأة بالزهرة في كمها فإذا
تفتحت قطفت أو كالجزرة يراد كسر قشرها لتوكل ويبدو تمسكه بالحجاب
في قوله عن لسان الفتاة :

برقى وسط محيطى شسرفى لم أحد عنه ولو ذقت العذابات
ولم يكف بهذا إنما خاطب العراقيين بقوله :

أيها القوم أصلحوا أنفسكم خاب من رام سفور الوجه خاباً (٤٩)

وقد كانت جرائد دعاة السفور تتناغل في اللود عن كيان السفور
وتستحسنه ، وتنتشر أخبار نساء العالم ، وتذكر تقدمهن في حركة الإصلاح
في تركيا ، وما تحوزه في أمريكا وأوروبا من المناصب بعناوين ضخمة .

(٤٦) تنوير الأفكار العدد ٣ السنة الأولى الصادر في ١٩٢٨ .

(٤٧) مجلة الرشد العدد ٨١ السنة الثانية الصادر في ٣١ تموز ١٩٢٨ .

(٤٨) مجلة تنوير الأفكار العدد ١٠ السنة الأولى ١٩٢٩ .

(٤٩) المفيد العدد ٢٧٠ السنة الثانية ١٩٢٤ ونشرت في الديوان ص ١٦٥ ج ٢ ونشرت
في مختارات من الحجاب والسفور ص ١٢٠ .

التدلل على مكانة المرأة وقدرتها ، وتصف حالة المرأة الاجتماعية ، وتبحث
 في أنجح الطرق لإصلاحها والدعوة إلى السفر لأنه التجديد والبناء ، غير
 أن أكثر هذه الجرائد لم يكتب له الاستمرار ولعل اختصاصها الزائد بالمرأة
 وعدم وجود المناصرين لها هما اللذان قضيا عليها ، لأن الشعب العراقي آنذاك
 شعب جاهل تؤثر فيه الخرافات ، ويسير دون تفكير مع الذين يراهم زعماءه.
 ومن الطريف أن يشارك الشعر العامي في هذه الدعوة ، فقد هاجم الملا
 جعوب الكرخي دعاة السفر بقصيدتين عنوان الأولى (بعدا ثم بعدا ياسفوريين)
 والثانية عنوانها (حرية النسوان وفتاة غسان) (٥٠)، وكانت الدعوة إلى تعليم
 المرأة تسير جنباً إلى جنب مع الدعوة إلى السفر ، فقد اتفق أكثر العراقيين
 بعد تشكيل الحكم الوطني على ضرورة تعليمها سواء منهم من يدعو إلى
 السفر ومن يدعو إلى الحجاب . فقد كان الإنسان لا يجرؤ على الدعوة إلى
 تعليمها خوف أن تؤدي معرفتها بالكتابة إلى فساد أخلاقها . ولما احتل
 الإنكليز العراق فكروا في إنشاء مدارس للبنات أسوة بمدارس البنين ،
 ولكنها لم تفاجئ الناس بفتحها ، وإنما أعلنت نظارة المعارف في ١٩١٩ إعلاناً
 في الجرائد قدمت له بمقدمة قالت فيها : وإن الهيئة الاجتماعية لكل أمة
 تتقدم برجالها ونسائها معاً ، فلا يصلح الرجل وحده إذا لم يستعن بالمرأة التي
 هي أساس العائلة وسعادة الأمة ، فالمرأة الجاهلة لا تعرف شيئاً من مطالب
 هذا العصر ، عصر الحضارة والعلم ولقد أسهب علماء التربية والاجتماع في
 أنصائحهم عن ضرورة تربية المرأة تربية صحيحة ، لأنها محور سعادة العائلة (٥١).
 ثم ذكرت الدروس التي ستدرس وقد سار تعليم المرأة سيراً بطيئاً ، فلم
 تؤسس في سنة ١٩٢٠ - ١٩٢١ غير ثلاث مدارس ، بينما كان عدد مدارس
 البنين ٨٥ مدرسة ووصل في السنة الثانية إلى ٢٧ مدرسة حتى وصل العدد
 عام ١٩٥٣ - ١٩٥٤ إلى ٢٥٦ مدرسة ابتدائية وتأخرت مدارس البنات

(٥٠) مخدرات في الحجاب والسفور ص ١٢٣ - ١٢٨ .

(٥١) جريدة العرب العدد ٧٠١ السنة الثالثة ١٩١٩ .

الثانوية حتى علم ١٩٥٣ - ١٩٥٤ (٥٢) . وقد كان لدعوة الجرائد إلى نشر التعليم بصورة عامة ودعوة السفور عامل حسن الأثر ، وقد آزر الدعوة كثير من الشعراء ، ولم يقلر المعارضون على وقف عجلة الزمن والتقدم ، وقد اكتسحهم سيل المدنية ، فانتشرت المدارس ، وشاركت المرأة الرجل في الحياة العامة ، وفي كل الكليات عبا (الشرطة والجيش والشرطة) وقد برزت في الحياة الاجتماعية برغم حملات الصحف التي كانت تثيرها النسوة ليسمعن صوتهن ويثبتن وجودهن .

الفلاح والاقطاع

حالة الفلاح العراقي تدعو إلى الألم والحسرة الموجهة ، فلم يصبه أي تطور اجتماعي ملموس طوال هذه الفترة ؛ لأن أكثرية مالكي الأرض أو المهيمنين عليها هم من رؤساء العشائر الذين يستغلون أبناء العشيرة لمنافعهم الخاصة . وقد فقد الفلاح الضمان الذي يحميه من الرئيس الذي كان يعطيه أيام النولة العثمانية (١) بعض الدخل ليعيش عليه ، لأنه كان يعتبره فرداً من أفراد العشيرة وعليه أن يضمن له شيئاً من المورد . غير أن هؤلاء الشيوخ أخذوا يستولون على الأرض ، ويسجلونها بأسمائهم ، بعد أن كانت تسجل باسم العشيرة وتبقى باسم النولة . وقد ساعد قانون تسوية الأراضي الشيوخ على استملاك الأراضي . وتسجيلها بأسمائهم ، وحوّل أبناء العشيرة إلى فلاحين ليس لهم غير جزء من الإنتاج ، فتحول ابن العشيرة الذي كان له أرض يملكها إلى أجير يتقاضى أجرته كمية محدودة من الإنتاج ، مع أنه يقوم بكل ما تحتاجه الأرض من حرث وبنر وعناية طول الموسم الزراعي ، ثم يحصل الإنتاج فيأتي شيخ القبيلة ويأخذ أكثره . ولم تجده (٢) عوامل الرفاه المتيسرة في العراق ، من وفرة المياه ، وخصوبة الأرض ، وتدفق

(١) كانت الأرض في العهد العثماني ملك السلطان ، ولما غمرت تركيا الحرب ودخل العراق تحت سيطرة الاستعمار الإنكليزي ثم الحكم الوطني أصبحت الأرض ملكاً للدولة ، وكانت تؤولها لشيوخ العشائر وقد كان يدخل في الاستئجار عدة عوامل كنفوذ الشيخ وعدد أفراد العشيرة ومقدار خطره .

Land Reform & Development in the Middle East p. p. (٢)
135, 136, 137.

اللفظ في رفع مستواه وإسعادته (٣) فما يزال الجوع القاتل ، والمرض الفتاك والجهل المطبق تعبت به ، فيعيش في فقر لم ير الغرب مثله (٤) ، وكثيراً ما اضطر إلى ترك الأرض التي بذل جهداً في شق ترعها ، لأنه عاجز عن «شراء البنود اللازمة» (٥) لها لتحكم رجال الإقطاع والمرابين في موارده (٦) .

وقد ساعد ضعف الحكومات المركزية المتوالية في العراق على توسيع نفوذ الإقطاع ؛ إذ أخذ كل إقطاعي يوسع أراضيه دون حسيب أو رقيب (٧) بطرق شتى، مرة بإغراق الفلاح بالديون وأخرى بأخذ الأراضي بنفوذه وقوته ، حتى غدا الفلاح أجيراً مستمراً، يشتغل عند الملاك والشيخ ، للاستحالة تسديد ديونه من الحصة الضئيلة التي يتسلمها من الحاصل ، فهو لا يأخذ إلا حصصاً تتراوح بين ٥٠٪ - ٤٠٪ وقد لا يتجاوز حقه من الإنتاج ٢٥٪ (٨) وقد قدرت الباحثة الإنكليزية «دورين وارنر» دخل الفلاح العراقي بين خمسة باونات وخمسين باوناً (٩) ، ومن هذا «المبلغ يصرف لطعامه ولشرابه وكسوته له ولأسرته . فلا نعجب إذا سادت الأمراض بين الفلاحين ، وتفشى سوء التغذية بينهم ، إذ قلما يأكل الفلاح طعاماً يسمن من جوع ، أو يغذى حاجة الجسم المجهد الضرورية، ويتبلغ بالخبز وحده في أكثر الأحيان ، أما اللحم فلا يفكر فيه يوماً من الأيام ، لأنه لن يجده إلا على موائد الشيخ الإقطاعي الذي يقم الحفلات للنوى

(٣) المصدر السابق .

(٤) مقدمة كتاب وارنر Land & Poverty in the Middle East.

ونظرات في إصلاح الريف - عبد الرزاق الحسني ص ٢٦ و ٢٨ (بيروت ١٩٥٤) ومجلة عالم المتمدن مقال بقر الديبل .

(٥) راجع الأسباب الموجهة لمن قانون استئجار أراضي النجيلة .

(٦) الملكية الصغيرة في العراق - بغداد ١٩٥٣ الصفحات ١ و ٢ و ٣

(٧) بحث مشكلة الإقطاع في العراق يراجع الإقطاع والديوان في العراق لعبد الرزاق الظاهر . ونظرات في إصلاح الريف لعبد الرزاق الحلال . والإقطاع في العراق لإبراهيم كبه .

(٨) نظرات في إصلاح الريف (بيروت ١٩٥٤) ص ٢٦ و ٢٨ وعالم المتمدن العدد ٢٣-١٠ مقال لباقر الديبل .

(٩) الأرض والفقر لاحظ المقدمة .

السلطة ، ويعطى الفضلات للفلاحين الذين ينتظرون فروغهم من الأكل بصبر زائد .

وليس للفلاح قانون يحميه من الإقطاعي ، فهو يطرده متى أراد ويلاحقه بالديون التي أخذها ليأكل بها ، وليعيش ، وقد حكمت بعض القوانين عليه بالبقاء في خلعة الإقطاعي حتى بسدد ديونه ، ولا يجوز للمالك آخر أن يستخذه ما دام مديناً بمبلغ لمالك غيره (١٠) ، ومن هجر القرية تخلصاً من هذا الرق فالسلطات تلاحقه وتحجز أجرته اليومية لتسديد ديون الإقطاعي (١١) ، أما الماء النقي فهو من الكماليات التي لم يفكر فيها الفلاح ، فقد اعتاد على الماء يشربه من الأنهار مباشرة ، يحمله في جرار وحجاب لحفره لا لتصفيته ، ويسكن في بيوت مبنية من الطين وسقفها من الجريد ومن جلوع النخل ، ويعيش مع حيواناته في حجرة واحدة لا نوافذ لها لأنه يخشى البرد القارس إذا فتح نافذة ، وفي بعض المناطق من جنوبي العراق يسكن الفلاح في صرائف معمولة من الحصر والباريات ، وقد يفرش الأرض أو يبنى له دكة من الطين مرتفعة عن الأرض قليلاً (١٢) . وقد انتشرت هذه الصرائف حوالى بغداد هرباً من جحيم الإقطاع وأملأ في الكسب من العاصمة بما يقوم به الفلاح من أعمال في مختلف مناحي الحياة . وقد حاولت بعض الحكومات العراقية لإصلاح حال الفلاح العراقي بتشديد بعض القرى الحديثة لرفع مستوى حياة الفلاح وتشجيع الملكية الصغيرة في مشروع الدجيلة (١٣) ، غير أن الإقطاعيين وكبار الملاكين كانوا يقاومون هذه الإصلاحات بقوة خوفاً من أن ينتبه الفلاح ويحد من سلطانهم ، وقد ساعد على موازرتهم تشابك مصالح رجال الحكم مع مصالح الإقطاع (١٤) ؛

(١٠) قانون حقوق واجبات الزراعة رقم ٨ لسنة ١٩٣٣ .

(١١) للمادة ١٦ ب من القانون المذكور .

(١٢) الملكية الصغيرة في العراق ص ٢٦ و ٧٨ ومقدمة الأرض والفقر .

(١٣) قانون تشييد القرى الحديثة رقم ٧٠ لسنة ١٩٣٦ .

(١٤) الأرض والفقر ص ١١٩ ونظرات في إصلاح الريف ص ٤٢ و ٤٦ .

لذلك لم ينفذ قانون تشييد القرى بالرغم من مرور عشرين سنة على تشريعه (١٥) ، لعدم وجود قوة تضطر الحكومة إلى العمل به ، والحد من شهوات هؤلاء ، ولن نجد من أطماعهم وسلطانهم غير صديق النية والقوة (١٦) .

أما التعليم بين الفلاحين فمتأخر جداً ، وشيوخ القبائل يكافحونه مكافحة جيازة فهم يرتعبون من تعليم الفلاح خوفاً من أن يشعر بالغبن الواقع عليه من قبلهم . ومما يؤسف له أن يساعد الإقطاع وشيوخ القبائل موظفو الدولة ليحصلوا على رضا الشيوخ وهداياهم ، وكثيراً ما هددت أرواح المعلمين ومرتقت أمتعتهم حتى جزعوا وتركوا العمل من بين ظهرانيهم ، ولا ننسى معاملة المعلم بالاحتقار والازدراء ، وعدم حمايته من موظفي الإدارة ورد الأذى عنه وكثيراً ما يتعامون عما يصيبه ويلقون اللوم على المعلم نفسه (١٧) .

هذه حال الفلاح العراقي العامة انعكست في الشعر العربي في العراق ، وقد حاول الشعراء إسعاده لأنه جزء من هذا الشعب الكبير . والملاحظ أن شعراء الفرات ولا سيما النجف هم أكثر عناية بمشكلات الفلاح ، لاحتكاكهم المباشر به ، ولأن أكثرية الشعراء هم من طبقة فقيرة لهم صلات وثيقة به ، ويقابل هذا الأمر شعراء المدن الذين عنوا عناية خاصة بالفقر والفقراء ومشكلاتهم. ولعل أبرز شاعر عالج مشكلة الفلاح بعمق وبإخلاص هو محمد صالح بحر العلوم فقد أهلى ديوانه « العواطف » إلى الفلاح قائلاً :

تقبل أيها الفلاح مني عواطف يُستبان بها شعوري
ولا تحزن إذا لم تلق ثوباً يقيك ، وثوب غيرك من حرير
فشأن الدهر لم يعرف ضعيفاً ولم يألف مجارة الفقير
وقد فاض الديوان بوصف حالة الفلاح عامة ، وما أصابه من بؤس
وشقاء وجهل واستغلال ومرض وتأخر والمخاطات في حياته ، ففي إحدى

(١٥) وقت كتابة هذا البحث كان أغسطس ١٩٥٦ .

(١٦) حدث ثورة ١٤ تموز الخالصة من هذه الشهوات وحدث سلطانهم .

(١٧) قضى الكاتب بعض سني حياته معلماً في قرى ديالى وتلمس مشكلات الفلاح بنفسه .

قصائده سمي الفلاح (الحى المقيور) (١٨) ، وصف بها ما يعانيه الفلاح من الآلام وكيف استغله أصحاب القصور ولم يعطوه ما يقابل أجره وكده ، إنما كان جزاؤه الحرمان والجوع ، فهو يأكل أردأ الأطعمة ، ويتحمل برد الشتاء وزمهريره ، وحر الصيف ورمضاءه ، صابراً على عيشه مع الحيوانات ، وبعد أن أتم وصفه حفر الفلاح وأثاره على أولئك الذين تأمروا على قتله البطيء ، لأن قلوبهم خالية من الشعور ونفوسهم مجردة من الأحاسيس والعواطف ، مبتعدة عن الإنسانية والرحمة . وفي قصيدة أخرى يحكي الثورة ويسمى الثورة العراقية ثورة الفلاح (١٩) اعترافاً بما بذله من جهد ، فقد ضحى بروحه وبماله ، وحارب المحتلين لكي يجلبهم عن أرضه يعزيمه لم تعرف الكلل وقوة لم تعرف التواني والملل ، وناضل بصبر ما عرف المهادة حتى انتصر على اللخيل وأذله ، لكن عاد إلى الكوخ المهديم يعيش مع السوائم ، فقد أذله السادة ، وهدر كرامته الجاكون ، فقد غنموا الهناء وعاد هو يجر رجليه للشقاء ، وفي قصيدة ثالثة سماها (الفلاح) استعرض مشكلات الفلاح العامة وقارن بين حياته وحياة أولى الترف والنعيم الذين سرقوا كده وتعبه ، وقد ألقي هذه القصيدة في النجف وكان من جرائها أن حكم المجلس العرفى العسكرى عليه بالسجن المؤبد سنة ١٩٣٥ ، خاطب الفلاح بها قائلاً :

أنت يا فلاح عانيت البلاء واجتنى غيرك أثمار التعب
تسهر الليل بلجل الأغنياء بارتياح وهناء وطرب
وفيها يقارن بين النعيم الذى يرغل فيه أصحاب القصور وبؤس الفلاح الذى يروى تحت وطأته ، مع أن هذا النعيم هو من عمل الفلاح ومن كده وهو أجدر به وأحرى بالانتفاع منه فقال :

كم نعيم أحرزته فشة هو من دونك بؤس فاتك
وقصور سلبتها سلطة منك بالجور وأنت المالك

(١٨) المواظف (النجف ١٩٣٧) ص ٢٠ - ٣٢ .

(١٩) نفس المصدر ٨٩ - ٩٥ .

ومصاييح علتها بهجة هي لولاك ظلام حالك
 أبهذا الوضع تحيا أمة وبها الظلم وباء هالك
 غير أن هؤلاء المتنعين لا يعرفون له حقاً ، فيجب أن يفرضه عليهم
 ويأخذه منهم ، فقد سرقوا هذا الحق منه فيجب أن يترك المنجل جانباً ،
 ويفرض قوته عليهم لأنهم قوم لا يعرفون غير القوة قال :

حلفت آهات [شكواك على جاحدى فضلك ليلاً في السما
 فاستحالت شهباً ترعى الملا وتسرى من لا يراعى الذمما
 فاترك الزرع ونسج المنجلا عنك حيناً واملاً الأرض دما
 وبحد السيف حاسب دولا بينها حقت أضحي مغنيا (٢٠)

وليس في الديوان طول لمشكلات الفلاح ، أو تركيز على فكرة مخلودة
 للإصلاح ، إنما عواطف ناثرة اتقدت عند ما رأى حالة الفلاح المتردية ،
 فأراد أن يصلحها بإسعاد الفلاح ورفع مستوى حياته ، وليس من عمل الشاعر
 أن يقدم مشاريع إصلاحية ، إنما عليه إبراز الحالة السيئة لينبه الشعور ، وقد
 كان محمد صالح بحر العلوم عميق الشعور صادق الإحساس ، فاندفع
 بشعوره وإحساسه للمطالبة بالإصلاح وتغيير الأوضاع السيئة التي يئن منها
 العراق . والشاعر عنيف في المطالبة صريح في الدعوة إلى الثورة ومخاطب
 كل ما يقف أمام رغبات الشعب ؛ لذلك لم تكن دعوته في يوم من الأيام
 تلاقى بالقبول من الحاكين فقد قضى جل حياته سجيناً معذباً منكلاً به
 أشد التنكيل ، حتى ابتلى بأمراض وأسقام وأصيبت أعصابه بالأمراض ،
 ولكنه لا يزال يناضل بصبر وجلد وعزيمة ومضاء ولا يزال مودعاً في السجن
 من جراء المطالبة المستمرة في سبيل الإصلاح والتي تبلورت فيها آراؤه
 أخيراً (١٩٥٦) ، ولعل ما يربع قابوب الحاكين منه الثرة العارمة التي
 تكتنف شعره ، فهو يقول :

يا ابنة الريف اجمعي لي حطاً وخلى من رفراقي ضميرما

واحرقى كل ظالم غاشم يحمى اللذة في أن يظلم
واتركى الرحمة فالناس هنا همج يحرقون الرحما (٢١)
والشاعر النجفي الثاني الذي عالج مشكلة الفلاح ، هو محمد مهدي
الجواهري ، فقد عالجهما بهدوء وسكون ووصف المشكلات ، وحذر مما
تتول إليه مثل هذه المشكلات فالترف العاطر والبطر المترف والهناء المغرور ،
إلى جانب الجوع الكافر ، والعري الخزي ، والمرض الفتاك ، والفاقة
المهلكة ، أمور ستؤدي بالبلاد إلى أسوأ النتائج وأفظع العواقب ، فسيأتي
اليوم الذي يستفيق فيه هؤلاء الفلاحون الفقراء الجياع المعذبون بسياسات
الجشع ، ويقف متسائلاً كيف ترضى دولة تحترم نفسها أن يكون شعبها
متأخراً إلى درجة الفلاح العراقي فقال :

ألا قوة تستطيع دفع المظلّم وإنعاش مخلوق على الذلّ نائم
ألا عين تلقى على الشعب هاوياً إلى حماة الإدقاع نظرة راحم
وهل ما يرجى المصلحون يرونه مواجهة أم تلك أضغاث حالم
تعالّت يد الإقطاع حتى تعطلت عن البت في أحكامها يد حاكم
ويتحدث عن الأرض التي هي ملك الجميع فيقول :

هي الأرض لم يخصص لها الله مالكاً يصرفها مستهتراً بالجرائم
ويصف حالة الفلاح وكوخه المظلم وجوعه ويستثير همم ذوى النخوة
والضمير بقوله :

حنانيا من الأكواخ تلقى ظلالها على منزل جب باهت النور قائم
تلوّت سياط فوق ظهر مكرم من اللوم مأخوذ بسوط الألائم
ربانت بطون ساغبات على طوى وأنحمت الأخرى بطيب المطاعم
أهلدى رعايا أمة قد تهيأت لتستقبل الدنيا بعزم المهاجم
وحاول إقناع الحاكمين بالمنطق والحجة بوجوب مساعدتهم ورفع مستوى
حياتهم ، ليكون شعبهم قوياً يدافع عنهم يوم الكربة ، إذ كيف يحمى

الضعيف وطنه وهو الخزيل الخاوى ، وهل يرضى أولو الأمر أن تكون
للعرايا جياحاً عراة متهمين ؟ ، فقال ، :

أمن ساعد رخو هزيل وكاهل عجوز نريد الملك ثبت الدعائم (٢٢)
ويضرب الأمثلة على تردى الحالة العامة وإلى أين وصلت من التدهور
والانحطاط ، فقال :

ومروا بأنحاء العراق مضاعة وزوروا قرى موبوءة وبقاها
تقروا ما يثير الصابرين أقله عراة حفاة صاغرين جياحاً
[وإن شباباً يرقب الموت جائعاً متى اسطاع عن حوض البلاد دفعا] (٢٣)

وقد أدرك الجواهري أثر الإقطاع في تأخير الفلاح ، وأثر الإقطاع في
الدولة ، عندما أصبح بمقتضاه شيخ القبيلة صاحب الملك والإقطاعى الكبير
وأصبح أبناء القبائل والفلاحون لا يملكون المأوى ، فوصف الحالة التى
شملت الفلاحين بعد الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العراق وصفاً
براعاً فريداً ، قال :

جل معى جولة تريك احتقار الشعب والجهل والشقاء جماعا
تجد الكوخ خالياً من جطام الدهر والبيت خاوياً يتداعى
واستمع لاتجيد سوى نبضات القلب دقت خوف الحساب ارتياحا
فلقد أقبلت جباة تسوم الحى عنفاً ومهنة واتضاعا
إن هذا الفلاح لم يبق إلا العرض منه بجله أن يباعا (٢٤)

وقد عالج على الشرقى مشكلة الفلاح وأهم بها اهتماماً كبيراً ، واعتبرها
من المشكلات الجديرة بالاهتمام ، فهى ليست مشكلة الفلاح إنما هى مشكلة
الشعب جميعه ، والفلاح عنوان رقى الأمة ومظهر من أبرز مظاهر حضارتها ،

(٢٢) ديوان الجواهري ص ١٩ ج ١ بغداد ١٩٤٩ .

(٢٣) لاحظ تصويته مقابل ص ١٤٥ ج ١ بغداد ١٩٤٩ .

(٢٤) نفس المصدر ص ١٦٢ ج ١ . وقد نشرت في جريدة الإعلاء الوطنى العدد ١٨-١-١٩٣١ .

وركيزة من ركائز التقدم ، إذ ليست المدنية الحقيقية هي المركزة في المدن الكبرى ، إنما يقاس تقدم الشعب بقراه وأريافه ، فقال :

إن تفتش عن ارتياح بلادٍ فضقد شئونها والنواحي.
وإذا ارتاحت البلاد تبليت في قراها علائم الارتياح.
ووصف ما يعانيه الفلاح العراقي من حرمان من خيراته التي يكند في سبيلها ، ولكنه لا يفوز إلا بما يسد الرمق فهو يعيش في جنة ، ولكن حياته العذاب والآلام ، وقد وصف قرى الفلاحين بقرى النمل ، وهو وصف جميل فقال :

ما لهذا الفلاح في الأرض روح أهو من معشر بلا أرواح
هو في جنة ينال عذاباً وهو تحت الأشجار أجرد ضاح
وقرى النمل لطف نفسى أئثرى من قراه إلا من الأثران
ويثير مشكلة من المشكلات التي كان يئن منها الفلاح العراقي طويلاً وهي فرض الضرائب الثقيلة التي أرهقته حتى اضطر إلى الدين ، فزادته ديونه عبئاً جديداً على أعبائه ، وأخذ يضمحل شيئاً فشيئاً ويقتل بغير سلاح ، وهل هناك أنفد من الفقر سلاحاً ؟ لذا فقد غدا قلبه الجريح ينتري الآلام ويفيض حسرة ولوعة وكيف لا يطفح هذا القلب بالحسرة ، والحيوانات والبهايم راضية معبدة ، فقد أكلت وشبعت ، أما الفلاح وهو الإنسان ذو المواهب الفذة والقيمة العالية ، فقد حرم حتى من ضروريات الحياة ، ولم يظفر بالعناية اللازمة ، فقال :

يا ضعیفاً أرى الولاة علیــــه
لم يفسده سلاحه فهو ليث
لو نفلنا لقلب ذاك المعنى
لوجدناه مشخناً بالحرار
بخسيس المرعى والضاحضاج
بخص من نهرة ومن شاطئه
في مروج من حولها قد تناغت
كل صداحة إلى صداح

يا ربوعاً حيوانها يتغنى بسرور وأهلها في نباح (٢٥)

وقد وصف أثاث كوخ الفلاح عندما فاض نهر الفرات ، فقال :
طافت حنايا الكوخ فوق خصاصه إلا [تغرق] وعام البيت بالأخشاب
ولقد نظرت أثاثه الطافي فلم أبصر سوى حصير وجرد ثياب (٢٦)
والشعر النجفي في الفلاح كثير ، وكله عالج مشكلات الفلاح ،
ومن الشعراء حسين كمال الدين (٢٧) ومحمود الحوي (٢٨) ومحمد رضا
المظفرى (٢٩) ومحمد جواد السوداني (٣٠) ، كما عالجه من العمارة حسين
الحاج وهج (٣١) ، ومن كربلاء عباس حلمي (٣٢) ، ولعل قصيدة
أحمد الصافي هي القصيدة التي حوت جميع المعاني التي تطرق لها الشعراء
وهي رائعة الفلاح بحق ، فقد افتتح بها ديوانه (الأمواج) وخطب فيها
الفلاح طالباً منه أن يترفق بنفسه ، ولا يحملها كل هذا التعب لأن جميع
سعيه ذاهب إلى غيره ، ولا يعود عليه إلا بالفقر المدقع والعيش الحزير
والبيت المظلم الداكن الذي يطير إذا هبت الرياح عليه ، فقال :

(٢٥) جريدة العراق العدد ١٨٩٨-٧-٢٦ ونشرت في ديوان على الشرق ص ١٦٣ ولاحظ
من السنة نفسها العدد ١٩٦٨ والعدد ١٩٨١ ومن الديوان ص ١٠٢ و ١٠٩ .

(٢٦) ديوان على الشرق ٢٠٣ ولاحظ ص ١٢٨ .

(٢٧) النهضة العراقية العدد ٢٧٢-٢-١٩٢٨ ولاحظ قصيدة هادي الشجاع العراق ٣٨٣٧-
١٣-٣٤ .

(٢٨) ديوان الحوي ص ٢٨ ج ١ النجف ١٩٤٨ .

(٢٩) الأدب الجديد ص ١٣٠ النجف .

(٣٠) النهضة العراقية العدد ٣٢٥-٧-١٩٢٩ ، ولاحظ العدد ٢٨١-٢-١٩٢٨ .

(٣١) النهضة العراقية ٢٥٤-٢-١٩٢٨ ، وقصيدة ابن الفرات العدد ٤٠٣-٢-١٩٢٩ ومن
طريف قول حسين الحاج وهج :

تَحْلُلْنَا مِنْ نَبَاتِ الْأَرْضِ قُوَّةً
جَهْدُنَا زَارِعِينَ يَكْمُلُ أَنْ
يَسْلُتْنَا النَّفْسُ فِي جَدِّ وَجْهٍ
وَلَمْ نَشْبَعْ بِمَكْنَسِ الْبُطُونَا
فَلَسْنَا فِي الْمَزْرَاعِ نَاجِحِينَ
وَعَدَّ الْحَاصِلَاتِ (غُلْسِينَ)

(٣٢) العراق ١٨٦١-٧-١٩٢٦ .

رفقا بنفسك أيها الفلاح تسعى وسعيك ليس فيه فلاح
 لك في الصباح على عنائك غلوة وعلى الطوى لك في المساء رواح
 هذى الجراح براحتيك عميقة ونظيرها لك في الفؤاد جراح
 في الليل بيتك مثل دهرك مظلم ما فيه لا شمع ولا مصباح
 فيخر سقفك إن همت عين السما ويطير كوخك إن تهب رياح

وبالرغم من هذا العناء والعيش الدليل في الكوخ الحقيق فإن الإقطاعيين
 لم يتركوا له حتى حرته ، فقد أقتلوه بالديون بعد أن أخلوا حصه الأمد
 من الإنتاج الذى أذاب لأجله قلبه ودمه وعرقه ، فجاءه الطامعون يستغلون
 هذا الريح دون رحمة :

هذى ديونك لم يسدد بعضها عجزاً فكيف تسدد الأرباح
 بغضون وجهك للمشقة أسطر وعلى جبينك للشقا ألواح
 عرق الحياة يسيل منك لآثاً فيزان منها الغنى وشراح
 أتصد جيش الطامعين ولم يكن لك في الدفاع سوى الصباح سلاح

ومتى سمع القوى الطامع الصباح والبكاء فهو في شغل شاغل عنه في
 لذاته وشهواته ، يستبق الكأس المترعة والحان المغرية في قصر يفيض بالنور
 المشرق ، ويتلأأ بالسعادة الهانية ، ويطفح بجمال الرياش وغالى الأثاث
 ويدبح الثياب والسناير . ومتى استمع مستغل جشع إلى صوت ضعيف
 معذب أحرق به البؤس وأضناه المرض وأقعده الفقر وإن كان هذا الضعف
 هو الحق الصريح ، لذلك وجدنا النجنى يثور ثورة عارمة بعد أن استحال
 الإصلاح في ظل السلم والمنطق ، وطلب من الفلاح أن يترك العمل الذى
 لا يعود نفعه عليه ، ويعيث بالزروع فساداً ؛ لأنه لا يستمتع بجاصله ، وهلك
 الضرع الذى يدر على المالكين الخير ، فقال الشاعر والألم المرير واليأس
 الحزين في شعره :

يا غارس التمر المؤمل نفعه دعه فإن ثماره الأثراح
أقلعه فالتمر اللذيذ محسوم للغارسين وللقوى . مباح
ومستحق مشكلة الفلاح الذى لم يطرأ على مستوى حياته الاجتماعية أى
تقدم محسوس إن بقيت سلطة كبار الملاك مهيمنة على دفع الأمور النحلة في
العراق (٣٢) .

(٣٢) أصدرت حكومة الثورة في العراق قانون الإصلاح الزراعي لتوزيع الأراضي على
الفلاحين للقضاء على الإقطاع . .

مشكلة الفقر

إن مشكلة الفقر من المشكلات المتمركزة في مدن العراق فهي مثل مشكلة الفلاح في الريف . تعيش أغلبية الشعب العراقي في فاقة لامتثل لها في العالم المتقدم ، فهم محتاجون إلى الطعام الضروري بله المسكن والملبس . ويوت الفقراء قلرة ، يعيش الفقراء جماعات متكئة في أعرف غير صحية مظلمة ، فإذا أمطرت السماء امتلأت الدور بالأوحال والأطيان . وقد لا يغير الفقراء ملابسهم حتى تلبس ، وأكثرهم يستعمل ما يرد من أوربا من الثياب المستعملة ، ولولا النوم في الهواء الطلق وحرارة الصيف التي تستمر حوالي ستة أشهر ، فقتل كثيراً من الأمراض وتغذى الجسم بالشمس ، بلغت نسبة الوفيات علداً هائلاً . وغالباً ما يموت المريض دون أن يرى الطبيب ، إما للضعف المادي أو لعدم العناية فيترك المريض للقضاء والقدر ، ولا يزال هؤلاء يطيبون مرضاهم بالتعاون والطلام والأدعية . ونسبة وفيات الأطفال مرتفعة جداً (١) وأكثر الأطفال يموتون من سوء التغذية ، وأكثر والالدين مصابون بأمراض معدية ، ويرزحون تحت وطأة الملاريا والبهارزيا والانكلستوما ، وإذا استثنيت المدن الكبيرة فلا تزال بعض أفضية العراق لا تعرف المياه المعقمة ولا الكهرباء ، فهم يشربون الماء بعد تصفيته في الحباب ، ويستعينون في المدن بالإضاءة البدائية اقتصاداً في نفقات إيصال النور الكهربائي إلى بيوتهم . وجل الشعراء كانوا من الطبقة المتوسطة أو الفقيرة ؛ فقد كان

(١) نشرة الإحصاء الصحي والحياتي ١٩٥٢ ، أصدرته وزارة الصحة العراقية (بغداد

١٩٥٥) الصفحات ١٥ و ١٢٧ و ١٢٩ .

شعورهم عميقاً وإحساسهم صادقاً . وعلى رأس الشعراء الذين عاجلوا مشكلة الفقر كان الرصافي ، الذي عاش في محيط فقير ، فالقره غول محله الأولى هي النبع العذب الذي تلتفت فيه أشعاره واصفة عذاب الإنسانية وأنيبها ، فقد عكس لنا صورة حية صادقة من حياة هؤلاء الفقراء . وديوان الرصافي فياض بوصف الفقر والفقراء تارة في صورة اليتيم في أيام العيد ، الذي لا يملك ما يملكه أبناء الأغنياء من غالي الثياب ونفيسها ، وهو يرى أترابه يزفون بالملابس الزاهية الجديدة ، فيعود إلى أمه خزين القلب كسر الفؤاد هضم الآمال (٢) . ومرة يصور الفقير الذي يموت جوعاً ومرضاً ، لأنه لا يملك أجر الطبيب (٣) ، وآونة يصف أرملة تريد الغذاء لولدها (٤) ، وقد عالج الرصافي هذه المشكلات معالجة دقيقة ونظمها على شكل قصص مبرزاً كل العواطف والأحاسيس ، والقصة أشد أثراً في النفوس ثم يمزج القصة بالدعوة إلى الإصلاح ويرسم سبل الإصلاح شأن الاجتماعي الماهر الخبير . وقد كانت أكثر قصص الرصافي واقعية مستمدة من الحياة . فقد سئل مرة لماذا نظم (اليتيم في العيد) فقال خرجت لصديق لي بائع تبغ أمام جامع الحيدر خانة ليلة عيد الأضحى ، وبينما كنت جالساً في حانوته أشارت إليه امرأة متحجبة بدا فقرها من عبايتها أن ينزل فتهاوسا وانصرفت فسألت صديقي عن خطبتها ، فقال إنها أرملة تعيل يتيمين وجاءت بصحن لترهته لقاء أربعة قروش ، لأنهما جائعان فلاحقتها مسرعاً وسلمت لها اثني عشر قرشاً وهي جميع ما أملكه فأخذت المبلغ بتردد وخوف ، ثم ناولتني الصحن قائلة : الله يرضى عنك ، خذ الصحن ، فرفضت ذلك وعدت إلى بيتي والدمع ينهمر من عيني راسماً للبشرية الملعونة صورة حقيقية من صور (اليتيم في العيد) . وسرد قصص الرصافي كثير ، وسأخذ صورتين من الصور التي رسمها الرصافي . فمن هذه الصور صورة فقير جائع ، ليس له من يساعده في

(٢) الديوان ٥٨ .

(٣) ديوان الرصافي ٩٤ .

(٤) » » ٢٠٤ .

مرضه غير أخت يعولها غير أن المرض حال دون ذلك فاشتد به الجوع
والمرض ، وعند ما طلب الخبز للأكل قلعت له الماء لعدم وجود كسرة
خبز في البيت :

رام خبزاً والجوع أذكى الأوارا في حشاه فعللته اضطراباً
ثم جاءت بالماء تبدى اعتذاراً وهل الماء وهو يطقى أوارا
يطفى الجوع ذاكياً في التهاب

إنها صورة راثية للفقر في أجسم مظاهره ، عندما يدهم الإنسان الجوع
والمرض والعوز ، فما كان من أخته المسكينة إلا الاستعانة بالجيران ،
ولكن هل يساعدها الجيران ويحسنون إليها كل يوم ، وإذا أملوها بالطعام
فمن أين الطبيب المداوى . ويصور الرضاقي المريض وهو يشرف على
الموت بعد أن اتحد المرض والجوع عليه وجلست أخته القاصرة عن عمل
أى شيء ، وهى ترى ميعلها يزحف الموت نحوه ، وتصاب ببيلة أخرى
بعد موته هى بقاؤه بدون كفن أو دفن حتى يحسن أحد الأغنياء إلى الميت
بالكفن . فيؤنب الرضاقي الأغنياء فيقول :

أيها الأغنياء كم قد ظلمتم نعم الله حيث ما قد رحمتم
سهر الناسون جوعاً ونعم بهناء من بعد ما قد طعمتم
من طعام منوع وشراب

كم بذلتم أموالكم في الملامى وركبتم بها متون السفاه
وبخلتم منها بحق الإله أيها الموسرون بعض انتباه
أفتلرون أنكم في تباب (٥)

وبالعلاج الرضاقي مشاكل العراق الاجتماعية متأثراً بالدين وإن صلحت
معالجته في العصر الإسلامى . فلا تصلح لعصره ، فالتاس غدوا لا يخافون
الحساب ولا يرهبون سوء المصير ، فالقليل منهم يذل في سبيل الله

ومرضاته ، وجلهم منصرف إلى نفسه إذ لم يبق من القرون المثل الفاضلة ، فيعتمد على إحساس الناس وإحسانهم وإنصافهم للفقراء وشعورهم بالآلام الفقير أملاً برحمتهم للأرامل (٦) ، لأن الإحسان إلى الفقراء حلو جميل يقيد النفوس بالحب ، ويطلق الألسنة بالثناء والحمد ، ويكون الفوز المبين للرجل المحسن (٧) . ولم يكن الرصافي ثائراً في شعره الاجتماعي كتورته في شعره السياسي ، ولعل نظرية القضاء والقدر هي التي أثرت في تفكيره ؛ فهو يطالب بالإصلاح ولكنه يطالب الأغنياء بمساعدة الفقراء وهذا شيء غير واقعي لأن الأغنياء إذا لم تكن هناك قوة تجبرهم لا يحسنون ولن يجودوا .

أما الزهاوى فعلى كثرة ما نظم من الشعر وما طبع من النواوين فلم يكن العناية الكافية بالفقر ، وكأني به لا يحس ولا يشعر بالآلام . وله بعض قصائد نظمها قبل الاحتلال الإنكليزي عالج فيها مشكلة أرملة جندي مات زوجها وخلف لها راتباً تقاعدياً لا يفي بحاجتها ، وكانت قد أصيبت بالسل ، وذهبت وهي مريضة تطلب من المستولين استعجال دفع الراتب التقاعدي ، بعد أن تحلى عنها الأهل والأصدقاء لفقرها . ويصف في القصيدة قسوة موظفي الحكومة العثمانية وشتهم المراجعين لقضاياهم (٨) ولم يعالج الزهاوى مشكلة الفقر على أنها مشكلة اجتماعية ونما باعتبارها مشكلة فردية قد تكون له صلة بها ، وآله أن تكون زوجة ضابط فقيرة بعد غنى وذليلة بعد عز ، ويبعد في قصته هذه عن المشكلة الاجتماعية ويبحث في أشياء بعيدة عن الموضوع ، ويضرب الحكم والأمثال في غير حاجة لها . وفي القصة موضوع من أرق الموضوعات الإنسانية ، وهو موضوع الأمومة وجوع الطفل ، وقد تطرق له الزهاوى ، ولكنه لم ينجح في إبرازه بإطار عاطفي رقيق ، فيصور اختلاج العواطف الرقيقة مع أنه وصل إلى كبد الموضوع وتلمسه فأفلت من يده ، وأخيراً تضطر

(٦) ديوان الرصافي ٢٠٦ .

(٧) الرصافي ٢٢١ .

(٨) ديوان الزهاوى ٢٤٧ .

امرأة الضابط إلى الاستجداء وطلب الرحمة من الناس لكي تغذى ولدها بالمائع في البيت ، وهذه نقطة إنسانية أخرى تعالج بأرق انعطاف وأسماء . وهي نقطة حساسة في الشعور الإنساني ، غير أنها أفلتت منه مرة أخرى . وأجدر نقطة التفت إليها الزهاوى وبحوثها بحثاً وافياً هي لقاء اللوم على كاهل الحكومة التي لم ترع حقوق الجنود ، ولو كان الزهاوى يملك الشعور الاجتماعي العام ، لألقى جميع تبعات الفقر على الحكومة ، ورسوم بعض طرق الإصلاح التي يراها ، كما فعل الرصافي . وأخيراً ختم القصة واصفاً آلام الاستجداء ، والاستجداء وحده مشكلة اجتماعية نتيجة للفقر ، قال :

عليها ثياب رثة ومـلـاعة كأحشائها في كل حين تنزل
تـكـيـف دمعاً بالبنان وكلما مشت خطوة أو خطوتين تمهل
تـمـد مـيـناً للسؤال ، ضعيفـة وتـنـجـل منهم حيناً هي تـسـأل
أرـمـلة الجنـدي لا تنجلي فمن حقوق العـلا أن الحكومة تنجل^(٩)

ولا بد لي أن أشير إلى محاضرات الزميل الكريم الدكتور ناصر الحاني التي ألقاها عن (جميل صدق الزهاوى عام ١٩٥٤) . والتي أفرد جانباً منها في أثر الفقر والمرض والفلاح في شعره واعتبره ذا قيمة اجتماعية ، إذ لم يكن الزهاوى يكترب كثيراً بالطبقة الفقيرة ، وينصرف إلى مشكلاتهم كما انصرف إليها الرصافي والبناء وغيرهما ، فقد كان في سعة من العيش . أما الإشارات العابرة التي تمر في شعره فليست لها القدرة على جعله من الشعراء الاجتماعيين .

ولعل البناء أكثر احتكاكاً من غيره من الشعراء بالطبقة الفقيرة ، فقد كان بناء ولا بد أنه اشتغل كثيراً أجيراً يحمل الطين (طياناً) ، وذاق صنوف العذاب والإرهاق الذي يقاسمه العمال الصغار في العراق من جور البائس ومساعدتهم وتحكم أصحاب المال . وطبقة البائس دائماً في العراق من أفقر الطبقات . ويبدأ البناء حياته طياناً ، وكلما طالت به الأيام وأبدى

(٩) ديوان الزهاوى ص ٨٦ .

براعة وذكاء ووجد أستاذاً يراعه ويقدمه تقدم في الصنعة حتى يتقنها فيكون بناء مستقلاً بذاته . وقد ظهرت آثار هذه البيئة في شعر البناء واضحة المعالم صادقة الصور ، ولو أتيج للبناء الوقت الكافي للدراسة أساليب اللغة العربية وتمكن من السيطرة عليها لأصبح من خيرة شعراء العراق فهو شاعر بالفطرة ، ذو ملكة متأججة ، وعاطفة دافقة ، ولكن العاطفة والفطرة جانب من جوانب الأداء وإذا لم يملك الشاعر لغة سليمة واتساعاً في مفردات اللغة ، وعلماً بأساليب الشعراء ، فالأداة تكون ضعيفة وهذا ماحدث للبناء . فقد كان عليه أن يكد ويكدح ليكسب قوته ويعيش ، ولكن العاطفة المتدفقة كانت تسيطر عليه والملكة كانت تدفعه لأن ينظم شعره خلال مراقبة العمال ، فقد رآه الأستاذ الأثرى يوماً واقفاً يدير أمور العمل والعمال ويبلده صفيحة من الطابوق الأصفر يلون فيها شعره (١٠) وعلى الرغم من أن شعره لم يكن متين الأسلوب رائع الديباجة ، إلا أنه رسم لنا خير الصور الواقعية وأصدقها عن حياة الفقير في العراق ، فقد وصف امرأة فقيرة أنهك جسمها الذل تعيش في كوخ مهلم ، وابنها الطباوى الجائع يطلب الطعام وهي تعله ، ولكن لا تقدر على إطعامه فقد نصب الحليب في ثديها ، لأنها جائعة مثله وقد عالج مشكلة الطفل الجائع الرصافي في الأرملة المرضعة ، فوق وعالجها الزهاوى في قصيدة أرماة الجندي فأخفق وعالجها البناء فخانته التعبير ، وبقيت صورة بدائية تتدفق منها الحياة ، قال البناء :

رأيت فتاة أنهك الذل جسمها يحيط بها كوخ هنالك مهلم
ووصف الطفل الجائع وكيف تعله أمة الجائعة :

تعالج طفلاً يشتكى شدة الطوى وتحنو عليه والمدامع تسجم
وتعطيه ثدياً أذهب الجوع دره فينظرها تبكي عليه فيبغم
تعله واليأس ملء جفونها يكلم عنها وهي لا تتكلم (١١)

(١٠) لاحظ مقالة ديوانه الثاني .

(١١) ديوان البناء الثاني .

إنها أم جائعة معها ولدها جائع ، وهي موزعة الأحاسيس بين نفسها وولدها . ويتطرق البناء إلى مشكلة مؤلة في العراق هي مشكلة معاملة الموظفين للفقراء واحتقارهم ، وكأن الموظفين من علم غير علم الشعب ، وكثير من هؤلاء كانوا من نفس الطبقة .

وقد لاحظنا أن أكثرية الذين عالجوا مشكلة الفقر كانوا يحملون عواطف كريمة ، يريدون أن يحصل الفقير على حظ وافر من الغذاء والكساء ، وألا يُستغل ولا يُستثمر ، غير أن هذه العواطف كانت عواطف ذاتية تمثل حالة مر الشاعر بها ف شعر بشعور الآخرين ، فكان من ذلك أن شعر بالرحمة والحنان ، فجاء بشعره مطالباً الأغنياء بالإحسان إلى الفقراء والرحمة بهم ، مع أن حق الحياة الكريمة حق طبيعي لكل إنسان في كل بلد متقدم ، وكان الأولى أن يطالب الشعراء بتغيير نظام الشعب الاجتماعي ليشمل العدل الاجتماعي الجميع ، غير أن الظروف التي نظم فيها الشعراء شعرهم ، كان شعرهم متأثراً بمثل محدودة الفكرة لعدم تبلور افكرة الاشتراكية وظهور المطالبة بحقوق الشعب ، وأخذ العالم هذا الاتجاه بعد الحرب العالمية الثانية ، فمن أمثلة العطف على الفقراء قول محمد المايشي :

سألني نظرة ملئت حناناً على بؤساء من طرف خشوع
يعيش الأغنياء على رخاء ونحن نعيش في بؤس وجوع

والقصيدة وصف لحالة الفقير ومسكنه القلندر وأطفاله العراة النائمين على الأرض الجائعين بالليل ، يقضون ليلهم بالنموس والحشرات (١٢) . كما أوصى الأزدى الناس بالإحسان إلى الفقراء أو اليتامى لأن الله أوصى بهم فقال :

لو تنطق الأموات عن حال الألى ذهبوا ضحايا ذلة وخمول
لبكيت من ألم المصيبة رحمة وكفأك مجملها على التفصيل
إني لأشعر في اليتيم إذا بكى خوف الأسير وذلة العلول

والله أوصى في اليتيم عباده في محكم القرآن والتنزيل (١٣)
وتردى حالة العراق وانتشار الفقر بين أبناء الشعب آثار الشعراء ،
فسرت في شعرهم روح النقمة والثورة على سوء الوضع الاجتماعي ،
فأخلوا يشنون حملة شعواء على الترف الذي يرفل فيه الأغنياء ، بينما الفقر
المدقع يصل بالفقراء إلى الجوع المهلك ، وأخلوا يقارنون بين حياة المترف
والفقير التعس ولم يكن يخلو شعر شاعر من العطف على الفقراء . قال
الجواهري :

ألم تر أن الشعب جل حقوقه هي اليوم للأفراد ممتلكات
وطالب بالعدل بين الفقراء والأغنياء فقال :

ولو كان حكم عادل لتهدمت على أهلها هاتيك الشرفات
ويصف بيوت الفقراء فيقول :

بيوت على أبوابها البؤس طافح وداخلهن الأنس والشهوات (١٤)
وفي قصيدة أخرى يفضل الفقير على الغني ويدعو إلى احترامه
وتقديره (١٥). وبحث مشكلات المجتمع العراقي بحاجة إلى دراسة وحدها
ولكننا نوجز فنقول بأن الشعراء عالجوها بروح مخلصه ومنهم : محمد بهجة
الأثري (١٦) وعمود الجبوي (١٧) وإبراهيم الباجه جي (١٨) وجواد
الشيبي (١٩) وكاظم النجيلي (٢٠) وعلى الشرقي (٢١) والشيبي (٢٢)

(١٣) الأدب المصري ص ٦٦ و ٦٧ ج ٢ .

(١٤) الديوان الثاني بغداد ٩٥٠ ص ١٦١ - ١٦٥ العراق الممد ٢٥٨٥ - ١٠ - ٢٩ .

(١٥) العراق الممد ٨١٢ السنة الثامنة ١٩٢٣ .

(١٦) مجموعته الخلية .

(١٧) القرى الممد المزدوج ٢٩ و ٢٠ - ٩ - ٩٤٨ .

(١٨) العراق الممد ١٢٣٦ - ٥ - ٢٤ .

(١٩) ديوان الشيخ جواد المخطوط .

(٢٠) دار السلام الأعداد ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ - ٢ - ١٩١٩ .

(٢١) ديوان الشرقي ص ١٨٨ .

(٢٢) ديوان الشيبي ص ١٠٩ .

والزهاوى (٢٣) ومحمد صالح بحر العلوم الذى وصف حال الفقير وما يقاسيه ووصف رب القصر وما يرفل فيه من النعم ، وألقى تبعة ذلك بصراحة على الحكومة والبرلمان الذى لا يجلى الفقراء فقراً ، فعليهم أن يخرجوا الأخشاب المسندة ، فقال :

فالظلم منتشر والعنيد مندرس والزيف متبع والحق مهتضم [-
حكومة صوت من يشكو ظلامته لما يبعثه عن سمعها الصميم]
ومجلس فيه أخشاب مسندة بلا حراك فأين النفط والضرر (٢٤)

وبعد الحرب العظمى الثانية تبلورت مُثل الرحمة بالفقير والعطف والإحسان إلى الفقراء ، فقد أخذ المفكرون يطالبون بالمساواة وإتاحة العيش الشريف للشعب أجمع لأن الشعب هو صاحب الحق ، وإن الظروف الشاذة التى مرت بالعراق هى التى خلقت طبقة من الأغنياء استغلت الأكرية بطرق متنوعة ، ويجب أن يعود الحق إلى أهله ، وأن ينال هؤلاء قسطاً وافراً من الرفاه والسعادة . وكان من طليعة هؤلاء المفكرين جماعة عادت من أوروبا ، وأدخلوا يقارنون بين حالة الشعب السيئة وحالة أوروبا ، وما حصلت عليه الشعوب من هناء وسعادة ورفاه ، وقد تبعهم جل الشعراء الشباب والطبقة الواعية المثقفة في البلد .

وختاماً يا قارئ العزيز

هذه جولة سريعة قدمتها لك عن الشعر العربي في العراق في تياراته السياسية والاجتماعية وقد ذكرت لك أهم هذه التيارات التى هيمنت على الشعر العربي ، وأثرت تأثيرها العميق في توجيهه ، وهو بحاجة إلى دراسة أكثر تفصيلاً واتساعاً من كتابي هذا فقد كنت مضطراً إلى العناية بالاتجاهات أكثر من عنايتي بالشعراء أنفسهم وقد سرت والتاريخ في

(٢٣) الباب ص ١٧١ .

(٢٤) المواقف ص ١١٨ .

دراستى هذه لتكون على بينة من أمر وطنك ولتعلم مقدار تأثير التاريخ
فى حياتك وشعبك وأثر الأدب فى تاريخك ، وقيمة أحاسيس الشعراء
الغالية وإخلاصهم العميق لتربة هذا الوطن .

ومعلنة مما وقعت فيه من أخطاء ولكل عالم كبوة فكيف بى وأنا
طالب ببحث مستجد فخذ بيدى وعاوئى على الصواب ، ولك من الله العلى
الكبير والتاريخ القامى فى عدله المنصف فى حكمه ومنى أجزل الثواب .

يوسف عز الدين السيد أحمد

المصادر (*)

١ - المخطوطات

أنتاس ماري الكرمل	أمثال بغداد والموصل
نسان غير الدين الأكرسي	الإحصاء في منح النساء من الكتابة
عبد الفتاح الشواف	حديقة الورود
محمد الباقر الحل	مجموعة الأشعار والخطب
خيرى الهنداوى	ديوان الهنداوى
أنتاس الكرمل	ديوان التفتاف
مصطفى جواد	الشعر المنسجم
محمد بسم اللبيب	مجموعة شعر
محمد صالح بحر العلوم	» »
حسن الجواهري	» »
فاجى القشطيني	» »
عففر القزويني	» »
محمد هجة الأثرى	ديوان الأثرى
معروف عبد الله الرصافي	مذكرات الرصافي
هياص البندادي	نيل المسراد
يوسف عز الدين	العراق في القرن التاسع عشر
يلسين المبسرى	غاية المرام
عيسى عبد القادر	قصائد من شعر

(*) هذه المصادر التي أمكن الاستفادة منها مباشرة وهناك مصادر أخرى لم أذكرها لأن فائدتها لم تكن مباشرة .

٢ - الكتب المطبوعة

أدب الرصافي	مصطفى علي	القاهرة ١٩٤٠
أعلام العراق	محمد بهجة الأثري	القاهرة ١٣٤٥ هـ
الأدب العصري	رفائيل بطي	جزءان القاهرة ١٩٢٣
الأخبار في سير الرجال	خالد حمادي	بغداد
الأدب الجديد	محمد جمال الهاشمي	النجف
الاتجاهات الوطنية	الدكتور محمد حسين	جزءان القاهرة ١٩٥٦ و ٥٤
الاتجاهات الأدبية	أنيس المقدسي	ج ١ بيروت
التيارات الأدبية الحديثة في العراق	جميل سعيد	مصر ١٩٥٤
الاتجاهات الجديدة	جميل سعيد	ج ٢ مصر ١٩٥٢
الأمواج	أحمد الصافي النجفي	دمشق ١٩٢٢
الأوشال	جميل صدقي الزهاوي	بغداد ١٩٣٤
آراء الرصافي	سعيد البدرى	بغداد ١٩٥١
أربعة قرون من تاريخ العراق ترجمة جعفر الحياط		بيروت ١٩٤٩
أمثال وأقوال بغدادية	ظافر الآلوسي	بغداد ١٩٥٦
أدب العصر	سعد ميخائيل	مصر ١٩٢٢
الانقطاع في العراق	إبراهيم كيه	بغداد ١٩٥٧
تاريخ الصحافة العراقية	عبد الرزاق الحسيني	النجف ١٩٢٥
تجارة العراق	يوسف غنيمه	بغداد ١٩٢٢
تحرر العراق من الانتداب	محمّد خلوصي	بغداد ١٩٣٥
تذكرة الشعراء	عبد القادر الخطيب	الشهرباني بغداد ١٩٢٥
تاريخ الشعر السياسي	أحمد الشايب	القاهرة ١٩٤٥
الترباق الفاروقى	عبد الباقي العمري	القاهرة ١٣١٦ هـ
تاريخ القضية العراقية	محمد مهدي البصير	بغداد
تاريخ مقدمات العراق السياسية أمين العمري (١)		جزءان بغداد ٩٢٤ و ٩٢٥
تكوين العراق الحديث	«فوستر» ترجمة عبد المسيح جويعة	بغداد ١٩٤٦
تقرير حول العراق	أحمد فهمي	١٩٢٦
الثورة العراقية	عبد الرزاق الحسيني	صيدا ١٩٣٦
الثورة العربية الكبرى	أمين سعيد	ثلاثة أجزاء القاهرة ١٩٣٤

(١) كتب المؤلف عليه اسم اخيه محمد طاهر العمري لانه كان موظفا
عندما ألف الكتاب

ثورة العرب مقدماتها اسبابها نتائجها

أحد أعضاء الجمعيات العربية مصر	١٩١٦:	جنايات الإنكليز على البشر
بيروت	١٩١٦:	وعلى المسلمين خاصة محمد حبيب العبيدي
مجلدان بغداد	١٩٥٣	الحقائق الناصعة في الثورة
بغداد	١٩٣٦:	العراقية
فريق مزهر الفرعون		حرب العراق
بغداد	١٩٣٦:	حبل الاعتصام ووجوب
بيروت	١٩١٦:	الخلافة في دين الاسلام
بغداد	١٩٤٧:	حقيقة الزهاوي
بغداد	١٩٤٨:	حالة العراق الصحية في ربع قرن موسى ديرهاكويان
مصر	١٩٥٣	دراسات في الشعر العربي المعاصر شوقي ضيف
بغداد	١٩٤٩:	ديوان كاظم آل نوح
المجموعة الاولى دمشق		ديوان الكاظمي
المجموعة الثانية القاهرة	١٩٤٨:	ديوان الكاظمي
القاهرة	١٩٤٧:	ديوان الرصافي
القاهرة	١٩٤٠:	ديوان التسيبي
التنجف	١٩٤٨:	ديوان التميمي
بغداد	١٩٢٨:	ديوان الجواهري
بغداد	١٩٤٨ و ١٩٥٠:	ديوان الجواهري
بغداد	١٩٣٢:	ديوان البناء
بغداد	١٩٤٨:	الدولة العثمانية قبل الدستور وبعده سليمان البستاني مطبعة الأخبار
بغداد	١٩٣٣:	ذكرى فيصل الاول
بغداد	١٩٣٣:	ذكرى الخالسي
بغداد	١٩٢٥:	ذكرى استقلال العراق
بغداد	١٩٢٩:	ذكرى السعدون
بغداد	١٩٣٠:	ذكرى يوسف السويدي
القاهرة	١٩٤٨:	الرصافي
بغداد	١٩٥٠:	الرصافي في أعوامه الاخيرة نعتان مطهر وسميد البكري
الموصل	١٩٤٨:	الروض الأثر
بغداد	١٩٣٩:	زنايق الحقل
		ابراهيم منيب الباجه جي

بغداد ١٩٥٠	عباس علي	ثيم الثورة العراقية
القاهرة ١٩٢٩	رفائيل بطي	سحر الشعر
القاهرة ١٩٤٩	مظفر حسين الجميل	سياسة العراق التحررية
بغداد ١٩٤٩	محمد علي كمال الدين	سعد صالح
القاهرة ١٩٥٥	رفائيل بطي	الصحافة في العراق
بغداد ١٣٤٠ هـ	محمد مهدي البصير	الشذرات
١٢ ج. النجف ٥٤ - ١٩٥٦	علي الخاقاني	شعراء الغرى
٥ ج. النجف ٥١ - ١٩٥٣	علي الخاقاني	شعراء الحلة
بغداد ١٩٥٨	الشعر العراقي في القرن التاسع عشر يوسف عز الدين	الشعر العراقي في القرن التاسع عشر يوسف عز الدين
مصر ١٩٤٤	شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ثعلب	شرح ديوان زهير بن ابي سلمى ثعلب
الاستانة ١٣٠٤ هـ	عبد الفتاح الاخرس	الطراز الانفس
بغداد ١٩٣٦	متى عقراوي	العراق الحديث
النجف ١٩٣٧	محمد صالح بحر العلوم	المواظف
بغداد	فسراتي	على هامش الثورة العراقية
		العراق في دوري الاحتلال
صيدا ١٩٣٥	عبد الرزاق الحسني	والانتداب
بغداد ١٩٣٥	عبد الفتاح ابراهيم	على طريق الهند
بغداد ١٩٣٥	علي الشراقي	عواطف وعواصف
الموصل ١٣٥٩ هـ	ياسين العمري	غرائب الاثر
بغداد ١٣٢٧ هـ	أبو الثناء الالوسي	غرائب الاقتراب
بغداد ١٩٥٢	سليمان فيضي	في غمرة النضال
القاهرة ١٩٠٥	جميل صدقي الزهاوي	الفجر الصادق
		فيصل بن الحسين في خطبه
بغداد ١٩٤٥	مديرية الدعاية العامة	واقواله
بغداد ١٩٥٤	طلعة الشيباني	القوى المؤثرة في الدساتير
بغداد ١٩٢٨	جميل صدقي الزهاوي	اللباب
بغداد ١٩٣٣	محمد صالح السهرودي	لب الالباب
بيروت ١٣٢٨ هـ	جميل صدقي الزهاوي	الكلم المنظوم
بغداد ١٩٥٤	محاضرات عن جميل الزهاوي ناصر الحاني	محاضرات عن جميل الزهاوي ناصر الحاني
بغداد ١٩٥٦	(تسكر) ترجمة باقر البجلي	المعدن أو سكان الاهوار
		مشروع اصلاح القرى في
بغداد ١٩٥٤	محمود نديم اسماعيل	العراق
		مذكراتي عن الثورة العربية
بغداد ١٩٣٦	تحسين العسكري	الكبرى

مقدمة في كيان العراق

الاقتصادى	هاشم جواد	بغداد ١٩٤٦
مقالات	فهيمى الكمرى	ج ١ بغداد ١٩٣١
مذكراتى فى نصف قرن	احمد شفيق باشا	ج ١ القاهرة ١٩٣٤
مقدمة فى دراسة العراق المعاصر	زكى صالح	بغداد ١٩٥٣
مجموعة امثال الموصل	القلى القونس شوريز	
معروف الرصافى	احمد بلوى طبانة	القاهرة ١٩٤٧
المعلوم والمجهول	ولى الدين يكن	مصر ١٩٠٩
محاضرات عن العراق من		مصر معهد الدراسات
الاحتلال الى الاستقلال	عبد الرحمن البراز	الريسة العالية
مشكلة الموصل	فاضل حسين	بغداد ١٩٥٥
مختارات فى السفور والحجاب		
النظام السياسى فى العراق	مصطفى عبد الجبار القاضى	بغداد ١٩٢٤
النظام النقدى فى العراق	محمد عزيز	بغداد ١٩٤٠
نظرات فى اصلاح الريق	عبد الرحمن الجبلى	بغداد ١٩٣٦
الوقائع الحقيقية فى الثورة	عبد الرزاق الهلالي	لبنان ١٩٥٤
العراقية	على البازوكان	بغداد ١٩٥٤

٣ - المصادر الرسمية

الملكية الصغيرة فى العراق	حسن محمد على	بغداد ١٩٥٣
مجموعة مذكرات المجلس		
التاسيسى العراقى	وزارة الداخلية	بغداد ١٩٢٤
الاصلاح الزراعى واعمار الاراضى	وزارة الاعمال	بغداد ١٩٥٠
تقدم العراق الاقتصادى	البنك الدولى للانشاء والاعمار	بغداد ١٩٥٤
معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا	مطبعة الحكومة	بغداد ١٩٣٠
نشرة الاحصاء الصحى والحياتى	وزارة الصحة	بغداد ١٩٥٥
التقرير السنوى عن سير المعارف	١٩٥٣ - ١٩٥٤	بغداد ١٩٥٥

٤ - الجرائد والمجلات

١٩٣٤	عبد الإله حافظ	الإخاء الوطنى
١٩٣١	على جودة الأيوبي	الإخاء الوطنى
١٩٣٧ - ١٩٣٦	محمد مهدي الجواهري	الانقلاب
١٩٢٨ - ١٩٢٦	عبد الرحمن البناء	الأخلاق « مجلة »
١٩٢٣	معروف الرصافي	الأمل
١٩٣٧ - ١٩٣٥	كامل الجادرجي	الأهالي
١٩٤٠ - ١٩٢٦	عبد النفور البدرى	الاستقلال
١٩٢٧ - ٢٦	عبد الرحمن السيد	الإخاء
١٩٢٧ - ١٩٢٥	عبد الجليل آل جميل	الإرشاد « مجلة »
١٩٤٠ - ١٩٢٩	رفائيل بلى	البلاد
١٩٣٣ - ١٩٣١	عبد الرحمن البناء	بفداد
١٩١٠	عبد الهادي الأعظمي	تنوير الأفكار
١٩٢٩ - ١٩٢٨	سلمان الشيخ داود	التقدم
١٩٢٧	عبد الولي الطريحي	الحرية « مجلة »
١٩٣٧ - ١٩٣٦	مكي الجميل	الحارس
١٩٢٥ و ١٩٢٤	وفائيل بلى وعبد الجليل رزق الله	الحرية « مجلة »
١٩٢٢ - ١٩٢١	داود السعدي	دجلة « مجلة »
١٩٢٠ - ١٩١٨	انستاس ماري الكرملى	دار السلام
١٩٠٩ (١٣٢٨ هـ)	عبد اللطيف ثنيان	الرفيق
١٩١٠	يوسف السامرائي	الرشاد
١٩٤٠ - ١٩٣٧	محمد مهدي الجواهري	الرأى العام
١٩٢٧	ابراهيم صالح شكر	الزمان
١٩٣٧ - ١٩٤٠	توفيق السمعاني	الزمان
١٩٢٢	عبد الأحد حبوش	الزنبقة « مجلة »
١٩٢٥	يوسف غنيمه	السياسة
١٩٢٤ - ١٩٢٥	خلف شوقي الداودي	شط العرب
١٩٣٠	عبد الرزاق الحصان	صلى العهد
١٩٣١	عبد الهادي الجبلي	صلى العهد
١٩٠٩ - ١٩١٤	داود صليوا	صلى بابل
١٩٣١ - ١٩٣٤	عطاء الخطيب	صلى الاسلام

١٩١٢	عيد الله الزهر	الدستور
١٩٢٥	حسين الرحال	الصحيفة
١٩٣٦ - ١٩٣٤	توفيق السمعاني	الطريق
١٧ - ١٩١٨	مجلة رسمية	العالم الإسلامي
١٧ - ١٩٢٠	جريدة رسمية	العرب
٢٢ - ١٩٢٣	حسن القصيبة	العاصمة
١٩٢٠ - ١٩٤٦	رزوق غنام	العراق
١٩٣٩ - ١٩٣٨	يونس بحري	العقاب
٢٩ - ١٩٤٧	عبد الرضا شيخ العراقيين	الغري « مجلة »
١٩٢١ - ١٩٢٢	عبد اللطيف الفلاح	الفلاح
١٩٢٥ - ١٩٢٦	عبد الرزاق العصني	الفضيلة
١٩١١ - ١٩١٤	انستاس الكرملي	لغة العرب « مجلة »
١٩٢٦ - ١٩٣٢	انستاس الكرملي	لغة العرب
١٩٢١ - ١٩٢٢	ابراهيم حلمي العمر	لسان العرب
١٣٣٧ - ١٣٤٨ هـ	علي رضا الفزالي	البيان « مجلة »
١٩٢٣ - ١٩٢٤	بولينا حسون	ليلي « مجلة »
٢٠ و ٢٨ و ١٨٢٩	محمد الحسيني	الم رشد « مجلة »
١٩٢٤ - ١٩٢٥	ابراهيم حلمي العمر	المفيد
١٩٢٩ - ١٩٣٠	ابراهيم صالح شكر	المستقبل
٢٥ - ١٩٢٦	احمد عزة الاعظمي ونوري الاورفلي	المعرض
١٩١٠	احمد ماضي وعلي يوسف	المؤيد
١٩٢٠ - ١٩٢٨	مجلة رسمية وصدرت	الموصل
١٩١٢ - ١٩٠٢	محمد رشيد رضا	المنار
١٩١٠ - ١٩١١	محمد كرد علي	المقتبس « مجلة »
٤٤ - ١٣٤٥	يوسف رجب	النجف
٢٩ - ١٩٣٢	عبد الرحمن البناء	النور
١٩٢٧ - ١٩٣٠	حزب النهضة العراقية	النهضة العراقية
١٩٢٦ - ١٩٢٩	حزب الشعب	نداء الشعب
١٩٣٠	ياسين الهاشمي	نداء الشعب
١٩٢١	ابراهيم صالح شكر	الناشئة
١٩٢٢ - ١٩٢٥	ابراهيم صالح شكر	الناشئة الجديدة
٢٢ - ١٩٢٥	محمد الهاشمي	اليقين

(1) ENGLISH BOOKS

- BELL, Lady Florence. Letters of Gertrude Bell. Vol. 2 London 1927.
- Miss Gertrude Bell. Review of the Civil Administration of Mesopotamia. London, 1920.
Civil Administration of Mesopotamia London, 1920.
- Churchill, Winston The Second World War, Vol. 3, London, 1950.
- Foster, Henry The Making of Modern Iraq, London, 1936.
- Haldane, Sir Aylmer The Insurrection in Mesopotamia, 1920, London, 1922.
- George Antonius The Arab Awakening, London, 1938.
- Ireland, P. Iraq. A Study in Political Development, New York, 1936.
- Longrigg, S. H. Iraq. 1900—1950, London, 1953.
Four Centuries of Modern Iraq, London, 1925.
- Muir, R. Political Consequences of the Great War, London, 1932.
- Toynbee, A. Turkey, London, 1926.
- Willson, Sir A. T. Mesopotamia, London, 1943.

(2) OFFICIAL REPORTS

Report by H. M. Government in U.K. of G. B. and Northern Ireland to Council of the League of Nations on the Administration of Iraq for the year 1928 and Colonial No. 44 H. M. Stationery Office, London, 1929.

League of Nations, Question of Frontier between Turkey and Iraq, C. 400 M. 47, 1925.

The Official Story of the Persia and Iraq Command 1941—46, H. M. Stationery Office.

Anglo-Iraq Treaty, Baghdad, 1929.

Encyclopaedia Britannica, XIIIth edition, Vol. 2.

(مقتطفات من معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا الموقع عليها في ٣٠ من حزيران
سنة ١٩٣٠)
أ - من المقدمة :

ولما كانت حكومة جلالة (بريطانيا ٠٠٠٠٠) قد أعلنت الحكومة العراقية يلاقيولا
شرط في ١٤ أيلول ١٩٢٩ أنها مستعدة لعقد ترشيح العراق للسفول صبة الأمم سنة ١٩٣٢
وأعلنت لمجلس الصبة في ١٤ كانون الأول ١٩٢٩ أن هذه هي نيتها ، ولما كانت المستويات
الائتدائية التي قبلها صاحب الجلالة البريطانية فيما يتعلق بالعراق ستنتهي من تلقاء نفسها عند إدخال
العراق صبة الأمم ، ولما كان صاحب الجلالة ملك العراق وصاحب الجلالة ملك بريطانيا يريان
أن الصلات التي ستقوم بينهما بصفة كونهما ملكين مستقلين ينبغي تحديدها بمقد معاهدة تحالف
وصداقة ، فقد اتفقا على عقد معاهدة جديدة لبلوغ هذه الغاية على قواعد الحرية والمساواة التامتين
والاستقلال التام تصبح نافذة المفعول عند دخول العراق صبة الأمم .

ب - من المادة الرابعة :

إن معونة صاحب الجلالة ملك العراق في حالة حرب أو خطر حرب محقق تنحصر في أن
يقدم إلى صاحب الجلالة البريطانية في الأراضي العراقية جميع ما في وسعه أن يقدمه من التسهيلات
والمساعدات استخدام السكك الحديدية والأنهر والموانئ والمطارات ووسائل المواصلات .

ج - من المادة الخامسة :

يتعهد جلالة ملك العراق بأن يمنح صاحب الجلالة البريطانيه طيلة مدة التحالف موقعين
لقاعدتين جويتين ، ينتقيهما صاحب الجلالة البريطانية في البصرة أو في جوارها موقماً واحداً
لقاعدة جوية ينتقيها صاحب الجلالة البريطانية في غرب نهر الفرات .

وكذلك يأذن جلالة ملك العراق لصاحب الجلالة البريطانية ، في أن يقيم قوات في الأراضي
العراقية في الأماكن الآتفة الذكر وفقاً لأحكام ملحق هذه المعاهدة ، على أن يكون مفه وه
أن وجود هذه القوات لن يعتبر بوجه من الوجوه احتلالاً ولن يس على الإطلاق حقوق
سيادة العراق .

المحتوى

الصفحة

المقدمة ١

الفصل الأول : الشعر العراقي في العهد العثماني

المجتمع العراقي ومشكلاته ٩
الاتجاه الإسلامي ١٧
الدستور العثماني ٢٨
حروب الدولة العثمانية ٤٤

الفصل الثاني : أثر الحرب العظمى الأولى

أهم معارك الحرب العظمى ٧١
معارك العراق ٧٩
الاحتلال البريطاني ١١١
الحرب والسلام ١١٧

الفصل الثالث : الثورة العراقية

مهدات الثورة ١٣١
التحريض على الثورة ١٤٠
المقاومة العلنية ١٤٨
عرش العراق ١٦٧

الفصل الرابع : مشكلات العراق السياسية

١٧٣	حالة العراق العامة بعد الثورة ..
١٧٩	أثر الانتداب البريطاني
١٨٧	الشعر والمعاهدات والساسة
٢١٥	عبد المحسن السعدون

الفصل الخامس : أثر الحياة الاجتماعية في الشعر

٢٢٩	مشكلات الحياة الاجتماعية
٢٣٨	مشكلة المرأة
٢٥٥	الفلاح والإقطاع
٢٦٧	مشكلة الفقر

الملاحق :

٢٧٧	المصادر
						مقتطفات من معاهدة التحالف بين العراق وبريطانيا
٢٨٥						الموقع عليها في ٣٠ من حزيران (يونية) سنة ١٩٣٠

الجمهورية العربية المتحدة
الثقافة والإرشاد القومي

المكتبة العربية

— ٣٥ —

التأليف] ٢١

الأدب (٢١)

الناشرة

١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

المكتبة العربية

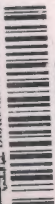
تصديقات

المتألفة والإرشاد القوي

بمؤرختها

المجلس الأعلى لإغاثة الفنون والآداب والفنون الاجتماعية
المؤسسة العامة للتأليف والأنباء والمبشر
الدار المصرية للنشر - الدار المصرية للتأليف والنشر

Bibliotheca Alexandrina



0695588